أدب القرن التاسع عشر في أوروبا كما رسمه معاصروه

من قصص القرن التاسع عشر

إختيار وترجمة:

الأمجد العثماني

كتوباتي
kotobati

أدب القرن التاسع عشر في أوروبا كما رسمه معاصروه

من قصص
القرن التّاسع عشر

أكثر من خمسين قصة مختارة لكبار كتاب القرن 19

قصص ملكية عامة

إختيار وترجمة: الأمجد العثماني

الكتاب: من قصص القرن التّاسع عشر
إختيار وترجمة: الأمجد العثماني
تدقيق: الأمجد العثماني
النوعية: نصوص وقصص
الإصدار: 2024
تصميم وتنسيق: مكتبة كتوباتي
النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن الناشر تبقى افكار المؤلف ومكتبة كتوباتي لا تتحمل مسؤليتها
وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

الفهرس

القصّة الأدبية القصيرة 6
الفصل الأخير.. 9
جريمة الأب « بونيفاس» 15
أمي... 21
تولستوي، ذكريات الطفولة والمراهقة والشباب..................... 23
ها قد غادرت باريس ! 27
الوصف الحزين... 34
مقتطفات من مآثر"شاتوبريان" 36
هوس المطالعة 44
مقتطفات من البؤساء... 47
الحلويات الصغيرة 50
حانة لاسوموار 56
حكاية حقيقية.. 59
ألزاسALZACE! 65
مونولوج على متن السفينة 69
الحصاد بجانب البحر 73
ذكريات.. 78
الكتاب الأخير 85
الطفل الجاسوس 90
الأب 98
صائد الفئران 107
كان الأمر أشبه بالظهور : 110

حارس المكتبة 113
الشيء الصّغير 118
الأمهات 120
حصار برلين 126
مشهد تمردّ 134
الزواف السيئ 140
في البحث عن الزمن الضائع 146
البارون العجوز 150
الطفل الضائع 153
مقدمة 162
ما تقوله الزهور 165
حكاية البيض 175
اسطورة توران 181
العبارة 185
بثلاثمائة ألف فرنك التي وعدني بها جيراردان! 190
نزوة الفتاة العابرة 194
أريحيّة التقاعد وكرامة الشخصية 198
1. قتل العجل السمين احتفالاً بعودة الطفل المقتصد 203
مقتطفات من رواية "البؤساء" 221
لعبة البليباردو 224
المرآة في الشمال 230
عذراء ثيلوز 233
"موبرات" 240
الرابح الأكبر، المنفق الكبير 245

المهزلة النورماندية 249
المرأة المجنونة 255
الذئب 260
الأسرار 267
من قصص انطون تشيكوف 282
موت موظف 285

القصّة الأدبية القصيرة

القصّة الأدبية القصيرة هي نوع أدبي روائي ازدادت شعبيتها على مر السنين بسبب قصرها وقدرتها على جذب انتباه القراء في فترة زمنية قصيرة. وغالبًا ما تقدم القصص القصيرة انغماسًا سريعًا في عالم خيالي يستكشف مواضيع معقدة ويعالج أوضاعًا إنسانية في بضع صفحات فقط. ولذلك اخترت أن أترجم لكم بعضها، تلك التي استهوتني مطالعتها أو التي رسخت في ذهني منذ الطفولة والشباب وتركت أثرًا. وهي قصص من القرن التاسع عشر ومن المجال العام...

"في الترجمة الأدبية، يُفضل عادةً الحفاظ على الأسماء الأجنبية كما هي للحفاظ على الأصالة والخصوصية الثقافية للنص الأصلي. ومع ذلك، قد يختار المترجمون تعديل الأسماء أو تكييفها في بعض الحالات لتسهيل فهم القارئ للنص أو لتجنب الالتباس. وهذا يعتمد على سياق النص والجمهور المستهدف.."

وبراعة المترجم تظهر في هذه التفاصيل. كيف يستطيع أن يرضي كل الأطراف، الكاتب والقارئ، يحافظ على روح النص الأصلي ويرضي ضميره كمترجم.

" الحكايات الخرافية هي شعر الأطفال، يقول اد. لابولاي."1 الخرافات ليست حقيقة. ونقصد بذلك أن لا شيء من هذا القبيل يحدث على الأرض؟ أنا أؤمن بأن حذاء توم ثامب لم يقطع سبعة فراسخ في المرة الواحدة، وأعترف بأن الجميلة النائمة لم تنم مائة عام، والذئب لا علاقة له بليلى والثلجة البيضاء لا علاقة لها بالثلج وكذلك أقزام الغابة والسحر والسحرة؛ ولكن أرأيتم كيف تؤثر هذه التفاصيل على حقيقة الأشياء؟ ومع ذلك، هل هناك أشخاص في العالم أكثر

[1] Édouard Laboulaye

حيوية وحقيقية وخلودا من كل هذه الشخصيات التي لم تعش قط؟ وهذه القصص يحبها الصغار والكبار على حد السواء وفي كل مكان. فلا بد إذن أن يكون لتقبل وتذوق الحكايات الخرافية جذور عميقة في النفس البشرية، لأن هذه الخرافات مهما كان تأثيرها الإيجابي أو السلبي على عقول الناس. لا شيء يمكن أن يدمرها وستظل خالدة في الكتب والأذهان والعقول كبعض **حكايات القرن التاسع عشر** هذه التي ترجمتها وأعرضها عليكم بروح عصرها ومدنه وقراه وأنماط الناس فيه ذلك لأن هذه الحكايات مثلها مثل الأساطير والأغاني والأمثال تنتمي إلى هذا الأدب الخالد الذي يحبه الناس ويحفظونه وينشرونه لأنهم يجدون أنفسهم في بعض سطوره...

الأمجد العثماني كاتب ومترجم

سوسة . تونس

Auteurs du XIX è siècle

Domaine public.

* Charles-Philippe de Chennevières-Pointel 1820-1899
*Stendhal Henri Beyle (1783 – 1842)
Alphonse de Lamartine (1790 – 1869)*
*Honoré de Balzac (1799 – 1850)
Victor Hugo (1802 – 1885)*
*Georges Sand (1804 – 1876)
*Gustave Flaubert (1821 – 1880)
Léon Tolstoï (1828 – 1910)*
Alphonse Daudet (1840 – 1897)*
*Guy de Maupassant (1850 – 1893)
Émile Zola (1840 – 1902)*
*François-René de Chateaubriand, René (1768 - 1848)
*Edmond About (1828 – 1885)
*Prosper Mérimée (1803 – 1870)
* Marcel Schwob (1867 –1905)
*Sébastien-Roch Nicolas de Chamfort (1741 – 1794)
Anton Tchekhov (1860 – 1904)

LEURS TEXTES CHOISIS ET TRADUITS

.1.

الفصل الأخير[2]

ألفونس دوداي 1840ـ 1897

في ذلك الصّباح، كنت متأخّراً جداً عن المدرسة، وكنت خائفاً جدّاً من أن يتمّ توبيخي، خاصة وأن الأستاذ "هامال" كان قد أخبرنا أنه سيختبرنا في اللغة وما تبعها ولم أكن أعرف شيئا. للحظة فكّرت في التغيّب عن الحصّة والرّكض عبر الحقول.

كان الطقس دافئاً وصافياً جداً !

كان بإمكانك سماع صفير الشحارير على أطراف الغابة، وفي المرج خلف المنشرة، كان "البروسيون"[3] يتدرّبون. كلّ هذا كان يغريني أكثر بكثير من كلّ القواعد؛ ولكنني كنت أملك القوّة على المقاومة، وركضت بسرعة كبيرة نحو المدرسة وكأن قوة خفية تدفعني إلى هناك.

وعندما مررت بمبنى البلدية، رأيت الناس واقفين عند السّور الصّغير الذي يحمل الملصقات. لقد كانت كل الأخبار السّيئة تأتي من هناك منذ سنتين، من المعارك الخاسرة، والمطالبات، وأوامر القيادة، وفكرت دون أن أتوقّف :

" ما الأمر الآن؟ "

ثم، بينما كنت أركض عبر السّاحة، صاح بي الحدّاد "فاختر" الذي كان هناك مع صانعه، الفتى الذي يتدرب عنده ويتعلم المهنة، يقرأ الملصق الحائطي :

" لا تستعجل كثيراً يا فتى، ستصل إلى المدرسة باكرا جداً !"

---

[2] Alphonse Daudet, contes du lundi.

[3] Les Prussiens.

ظننت أنه كان يسخر مني، ودخلت إلى فناء الأستاذ "هامال " وأنا ألهث.
عادة، في بداية الفصل، كان هناك ضجيج كبير يمكن سماعه حتى في الشارع: مكاتب تفتح وتغلق، ودروس تُعاد بصوت عالٍ، والجميع يغطّون آذانهم معًا ليتمكنوا من التعلم بشكل أفضل، ومسطرة المعلم الكبيرة تضرب على الطاولات : "قليل من الصمت !"
كنت أعتمد على هذا الضجيج كله لأصل إلى مقعدي دون أن يراني أحد، ولكن في ذلك اليوم بالذات كان كل شيء هادئاً، كصباح يوم الأحد. كنت أرى من خلال النافذة المفتوحة زملائي في الفصل في أماكنهم بالفعل، والأستاذ "هامال"[4] الذي كان يمر مراراً وتكراراً حاملاً المسطرة الحديدية الرهيبة تحت ذراعه. كان عليَّ أن أفتح الباب وأدخل وسط هذا الهدوء العظيم. قد تظن أنني كنت محمرّ الوجه وخائفاً !
أبداً، لم أكن كذلك! نظر إليّ السيد "هامال" بدون غضب وقال لي بلطف شديد " خذ مكانك بسرعة يا صغيري "فرانز"؛ كنا سنبدأ بدونك.
قفزت بهدوء وجلست في مقعدي على الفور. وعندها فقط، وبعد أن تعافيت قليلاً من رعبي وزال ما اعتراني من ارتباك، لاحظت أن معلّمنا كان يرتدي معطفه الأخضر الجميل وجُبّته ذات التثنيات الرفيعة والقلنسوة الحريريّة السّوداء المطرّزة التي كان يرتديها فقط في أيام التفقّد أو أيام توزيع الجوائز. كان هناك شيء غير عادي ورسميّ في الفصل كله. ولكن أكثر ما أدهشني هو أن أرى في آخر القاعة، على المقاعد التي كانت خالية عادة، أناساً من القرية يجلسون في صمت مثلنا: العجوز "هاوزر[5] " والعمدة السّابق، وساعي البريد السّابق، ثم بعض الأشخاص الآخرين. وكان كل هؤلاء الناس تبدو عليهم مسحة حزن، وكان "هاوزر" قد أحضر

[4] Mr Hamel.

[5] Hauser

معه أبجدية قديمة قد تآكلت أطرافها، وقد أمسكها مفتوحة على مصراعيها على حجره، وقد وضع نظارته السميكة على صفحاتها.

وبينما كنت أتعجب من هذا كله، كان السيد "هامال" قد صعد إلى منبره، وبنفس الصوت الرقيق الجاد الذي استقبلني به هذا الصباح قال لنا :

»يا أولادي، هذه هي المرة الأخيرة التي سأدرّسكم فيها. لقد جاءت الأوامر من برلين بتدريس اللغة الألمانية فقط في مدارس "الألزاس واللورين"... سيصل المعلم الجديد غداً. اليوم هو آخر درس لكم في اللغة الفرنسيّة. أرجوكم انتبهوا جيّداً...

هذه الكلمات القليلة صدمتني آه، هذا ما علقه أولئك البؤساء في مبنى البلدية.

درسي الأخير في اللغة الفرنسية !

وأنا بالكاد أستطيع الكتابة! لن أتعلّم أبداً! كان يجب أن أتوقّف عند هذا الحد! والآن ها أنا غاضب من نفسي على كل الوقت الذي أهدرته، والدروس التي ضيعتها في مطاردة العصافير والبحث عن الأعشاش أو اللهو واللعب والعبث! أما كتبي التي كنت أجدها مملة وثقيلة الحمل، كتبي في النحو والتاريخ، فقد بدت لي الآن كأصدقاء قدامى يصعب عليَّ فراقهم. مثل السيد "هامال" نفسه. إن فكرة أنه سيرحل، وأنني لن أراه مرة أخرى، جعلتني أنسى كل تلك العقوبات وعصاه الغليظة المرعبة .!

يا له من رجل مسكين!

وكان قد ارتدى ملابس يوم الأحد الجميلة تكريماً لهذا الحصّة الأخيرة، وبذات افهم الآن لماذا جاء هؤلاء الشيوخ من القرية ليجلسوا في آخر القاعة. بدا لي أنهم ندموا على عدم مجيئهم إلى المدرسة أكثر من مرّة. وكان ذلك أيضاً تعبيراً عن شكرهم لمعلّمنا على السنوات الأربعين التي قضاها في خدمة أبناء هذه البلدة، وعن احترامهم للواجب الذي قدمه للوطن الذي هو على وشك الرحيل...

كنتُ في هذه المرحلة من التأملات عندما سمعتُ اسمي يُنادى عليّ. كان دوري في التلاوة. وما كنت لأضحّي بما لا أملكه لأستطيع أن أقول شيئا عن هذه القواعد اللغوية الضرورية عن النحو والصّرف على طول الخط، بصوت عال وواضح، دون خطأ واحد! ولكنني ارتبكت عند الكلمات القليلة الأولى، ووقفت أتأرجح في مقعدي، وقلبي مثقل لا أجرؤ على رفع رأسي. كنت أسمع السيد "هامال" يتحدث إليّ :

" لن أؤنبك يا صغيري" فرانز"[6]، لا بد أنك عوقبت بما فيه الكفاية... هكذا هو الحال. كل يوم تقول لنفسك: طيّب! لدي الكثير من الوقت. سأتعلم غداً وبعد ذلك ترى ما يحدث... آه! هذه هي المصيبة الكبرى في "الألزاس"، تأجيل التعلّم إلى الغد. الآن يحق لهؤلاء الناس أن يقولوا لنا: كيف تدّعون أنّكم فرنسيون، وأنتم لا تستطيعون التحدث أو الكتابة بلغتكم! ... في كل هذا يا "فرانز" يا مسكين لستم أنتم المذنبين. يمكننا جميعاً أن نلوم أنفسنا...

لم يهتم والداك بما فيه الكفاية لرؤيتك متعلّمًا. لقد فضّلوا إرسالك للعمل في الأرض أو في مصانع الغزل لكسب بضعة قروش إضافية. أليس لديّ ما ألوم نفسي عليه؟ ألم أجبرك في كثير من الأحيان على سقي حديقتي بدلاً من العمل؟ وعندما أردت أن أذهب لصيد سمك السلمون المرقط، ألم أكلف نفسي عناء إعطائك يوم عطلة؟

ثم أخذ السيد هامال يحدثنا عن اللغة الفرنسية من شيء إلى شيء آخر، قائلا إنها أجمل لغة في العالم وأوضحها وأمتنها: يجب أن نحفظها بيننا ولا ننساها أبدا، لأن الشّعب إذا وقع في العبوديّة ما دام متمسّكا بلغته فكأنما هو ممسك بمفتاح سجنه[7] ...ثم أخرج كتابا في النّحو وقرأ علينا درسنا. اندهشت من مدى فهمي

[6] Franz

[7] « S’il tient sa langue, – il tient la clé qui de ses chaînes le délivre. » F. Mistral.

الجيّد. بدا لي كلّ ما قاله سهلاً وسهلاً جدّا. وأعتقد أيضًا أنني لم يسبق لي أن استمعتُ إليه بهذا القدر من الإصغاء، وأنّه لم يكن صبورًا في شرحه أيضًا مثل هذا اليوم. كان الأمر كما لو أن الرجل المسكين أراد، قبل أن يغادر، أن يعطينا كل ما لديه من معرفة، ليجعلها في رؤوسنا دفعة واحدة.

عندما انتهى الدرس، انتقلنا إلى الكتابة. وكان الأستاذ "هامال" قد أعدّ لنا في ذلك اليوم بعض الأمثلة الجديدة التي كتبها بنمط جميل :فرنسا، الألزاس، فرنسا، الألزاس. كان الأمر أشبه بأعلام صغيرة ترفرف في جميع أنحاء الفصل، تتدلى معلقة من مكاتبنا. كان عليك أن ترى كم كان الجميع يعمل بجد، و يا له من صمت! كل ما كنت تسمعه هو صرير الريشة على الورق. للحظة طار بعض الخنافس الصغيرة في الهواء محدثة بعض الضجيج، ولكن لم يعرهم أحد أي اهتمام، ولا حتى الصغار الذين كانوا مشغولين بتتبع حروفهم بقلب وضمير كما لو كانت لا تزال فرنسية... وعلى سطح المدرسة كان الحمام يهدل بهدوء، وقلت في نفسي وأنا أستمع إليه :

هل سيجبر على الهديل بالألمانية هو أيضاً؟

من وقت لآخر، عندما كنت أرفع نظري من صفحتي، كنت أرى السيد "هامال" بلا حراك في منبره، وهو يحدّق في الأشياء من حوله، وكأنّه يريد أن يأخذ مدرسته الصغيرة كلها معه إلى البيت... فكرت فقط! منذ أربعين عاماً وهو في نفس المكان، في نفس الموضع، وأمامه ملعبه وفصله الدراسي كما هو. فقط المقاعد والمكاتب قد صقلها الاستعمال وفركها الزمن، وأشجار الجوز في الفناء قد ازدادت طولاً، والنبتة المتسلقة التي زرعها بنفسه تزين النوافذ حتى السطح. ويا لها من حسرة على هذا الرجل المسكين أن يترك كل هذه الأشياء وراءه، وأن يسمع أخته وهي تغادر الغرفة في الأعلى وتذهب في الغرفة التي فوقه وهي تغلق صناديقها! لأنّه كان من المقرر أن يرحلا في اليوم التالي، وأن يغادرا البلاد إلى الأبد.

ومع ذلك، فقد كان لديه الشجاعة لتعليمنا طوال الحصّة .

بعد الكتابة، كان لدينا درس التاريخ؛ ثم غنى الأطفال جميعًا معًا. هناك، في الجزء الخلفي من القاعة، كان "هاوزر" العجوز قد ارتدى نظارته، وكان يمسك كتاب الأبجدية بكلتا يديه ويتهجّى الحروف بها. كان بإمكانك أن تلاحظ أنه كان يحاول أيضًا؛ فقد كان صوته يرتجف من شدة التأثر، وكان سماعه مضحكًا جدًا، لدرجة أننا جميعًا أردنا أن نضحك ونبكي. لن أنسى تلك الحصّة الأخيرة...

وفجأة دقّت ساعة الكنيسة وقت الظهيرة، ثم دقّت ساعة صلاة التبشير الملائكي. وفي نفس اللحظة، دوت أبواق "البروسيين" العائدين من التمرين خارج نوافذنا...

وقف السيد "هامال" شاحباً على منبره. لم يبدو بهذا الطول أبدا من قبل...

قال: "يا أصدقائي، يا أصدقائي، أنا... أنا..." ولكن شيئاً ما خنقه. لم يستطع إكمال جملته. لذا التفت إلى السبورة والتقط قطعة من الطباشير وضغط بكل قوته وكتب بأكبر قدر ممكن...

"تحيا فرنسا "

ثم وقف هناك، ورأسه مستند على الحائط، ودون أن يتكلم، لوّح بيده إلينا :

لقد انتهى الأمر... انصرفوا.

.2.

جريمة الأب « بونيفاس»[8]

قي دي موباسان (1850–1893)

في هذا اليوم، عندما غادر « بونيفاس»[9] ساعي البريد مكتبه، رأى أن جولته ستستغرق وقتًا أقل من المعتاد، وكان مسرورًا لذلك. فقد كان مسؤولاً عن الريف المحيط بسوق مدينة « فيرفيل»، وعندما كان يعود في المساء، بخطواته الطويلة المتعبة المثقلة، كان قد قطع أحياناً أكثر من أربعين كيلومتراً على قدميه، وهكذا كان التوزيع يتم بسرعة، بل كان يستطيع أن يتنزه قليلاً في الطريق ويصل إلى بيته حوالي الساعة الثالثة. يا له من حظ! غادر القرية على طريق « سنمار»[10] وبدأ عمله. كان ذلك في شهر يونيو، الشهر الأخضر والمزهر، شهر السهول الحقيقي.

كان الرجل الذي يرتدي جلبابه الأزرق ويعتمر قبعة سوداء ذات ضفيرة حمراء يعبر حقول اللفت أو الشوفان أو القمح في ممرات ضيقة وهو غارق حتى كتفيه في المحاصيل؛ وكان يبدو رأسه وهو يمر فوق سنابل الذرة وكأنه يطفو على بحر أخضر هادئ يموج بلطف بنسيم خفيف. وكان يدخل المزرعة من البوابة الخشبية المغروسة في السدود المظللة بصفين من أشجار الزان، ويحيي الفلاح

---

[8] www.bibebook.com/files/ebook/libre/V2/maupassant

[9] Boniface

[10] Sennemare

باسمه: (صباح الخير يا سيد شيكو) ثم يناوله جريدته (لو بيتي نورماند)[11] فيمسح الفلاح يده على أسفل سرواله ويتلقى الورقة ويدسها في جيبه ليقرأها في وقت فراغه بعد تناول الطعام. في الظهيرة. وكان الكلب الذي استقر في برميل عند سفح شجرة تفاح مائلة ينبح بغضب وهو يشد سلسلته؛ وانطلق السائر دون أن يلتفت، ثم انطلق مرة أخرى بخطاه العسكرية وهو يمد رجليه الطويلتين وذراعه اليسرى على حقيبته واليمنى تتوكأ على عصاه التي كانت تمشي مثله في سرعة متواصلة.

وكان يوزع مطبوعاته ورسائله في قرية « سنمار»، ثم انطلق مرة أخرى عبر الحقول ليحمل بريد جابي الضرائب الذي كان يسكن في بيت صغير منعزل على بعد كيلومتر من القرية، وكان جابي الضرائب الجديد السيد "« تشاباتيس»" الذي وصل في الأسبوع السابق، تصله جريدة من باريس، وكان ساعي البريد «بونيفاس» أحياناً عندما يتاح له الوقت يطالع النسخة المطبوعة قبل أن يسلمها إلى المرسل إليه، ففتح حقيبته وأخذ الورقة وأخرجها من نطاقها ثم فتحها وبدأ يقرأ وهو يمشي. ولم تكن الصفحة الأولى تثير اهتمامه كثيراً، فالسياسة لم تكن تهمه، فقد كان دائماً ما يتخطى كذلك الشؤون المالية، ولكن الأخبار كانت تستهويه وخاصة أحداث المجتمع. لقد كانوا يتناولون الفطور كالمعتاد في صباح ذلك اليوم. حتى أنه تأثر كثيراً بقصة الجريمة التي ارتكبت في منزل أحد حراس الصيد لدرجة أنه توقف في منتصف الطريق ليقرأها مرة أخرى ببطء. كانت التفاصيل مرعبة. فقد لاحظ أحد الحطابين أثناء مروره بمنزل الغابة في الصباح، وجود بعض الدماء على عتبته، كما لو أن أحدهم قد أصيب بنزيف في أنفه. ففكر قائلاً: "لا بد أن الحارس قد قتل أرنباً ما الليلة الماضية"، ولكنه عندما اقترب رأى أن الباب لا يزال مفتوحاً وأن القفل مكسور. ثم استولى عليه الخوف فأسرع إلى القرية ليخبر العمدة الذي اصطحب معه مأمور القرية والمعلم كتعزيز، وعاد الرجال الأربعة معاً. فوجدوا

[11] Le Petit Normand

العمدة مذبوحاً أمام الموقد، وزوجته مخنوقة تحت السرير، وابنتهما الصغيرة ذات الست سنوات مخنوقة بين فراشين. وتأثر ساعي البريد « بونيفاس» تأثراً شديداً من فكرة هذه الجريمة التي تراءت له كل ملابساتها المروعة واحدة بعد الأخرى، حتى أنه شعر بضعف في ساقيه، وقال بصوت عال: "يا إلهي، إن بعض الناس أوغاد!" ثم سوّى الجريدة في حزامه الورقي وانطلق مرة أخرى، ورأسه مليء برؤى الجريمة. وسرعان ما وصل إلى منزل السيد « تشاباتيس»[12]، وفتح البوابة المؤدية إلى الحديقة الصغيرة واقترب من المنزل. كان مبنى منخفضاً ذا طابق أرضي وسقف منحدر. كان على بعد خمسمائة متر على الأقل من أقرب منزل.

صعد ساعي البريد الدرجتين إلى عتبة الباب، ووضع يده على القفل، وحاول فتح الباب فوجده مقفلاً. ثم لاحظ أن المصراعين لم يفتحا، وأنه لم يخرج أحد في ذلك اليوم، فقلق لأن السيد « تشاباتيس» كان يستيقظ مبكراً جداً منذ وصوله.

أخرج «بونيفاس» ساعته. وكانت الساعة لا تزال السابعة وعشر دقائق فقط من الصباح، أي أنه كان قد استيقظ مبكراً بساعة تقريباً، وعلى أية حال، كان من المفروض أن يكون رجل الضرائب قد استيقظ، فتجول بحذر حول المنزل وكأنه في خطر. ولم يلاحظ أي شيء مريب، مجرد خطوات رجل في فراش من نباتات الفراولة، ولكنه فجأة وقف بلا حراك، وقد اعتصره الألم، وهو يمر أمام نافذة. كان في المنزل أنين. اقترب من المكان، وتخطى حدود الزعتر، وضغط بأذنه على المظلة ليستمع عن كثب. كان بإمكانه سماع تنهدات طويلة مؤلمة، ونوع من الحشرجة، وصوت صراع. ثم أصبح الأنين أعلى، وتكرر أكثر فأكثر، ثم ارتفع صوته أكثر فأكثر، وتحول إلى صراخ... و لم يعد « بونيفاس» يشك في أن جريمة كانت ترتكب في تلك اللحظة بالذات في بيت جابي الضرائب، فانطلق بأقصى سرعته، وعبر الحديقة الصغيرة مرة أخرى، واندفع عبر السهل، وعبر المحاصيل وهو يركض

[12] M. . Chapatis

لاهثاً، ويهز حقيبته التي كانت تنبض على ظهره، ووصل منهكاً يلهث مضطرباً إلى باب الدرك.

كان العميد « مالاوتور»[13] يصلح كرسيًا مكسورًا بمسامير ومطرقة. وكان الرقيب روتييه يمسك قطعة الأثاث المكسورة بين رجليه ويضع مسماراً على حافة الكسر؛ ثم كان العميد يمضغ شاربيه وعيناه مستديرتان مبللتان بالاهتمام ينقر أصابع مرؤوسه، وما أن رآهما ساعي البريد حتى صاح : - وتوقف الرجلان عن عملهما ورفعا رأسيهما وقد بدت على وجهيهما ملامح الدهشة والانزعاج، فكرر « بونيفاس» وقد رآهما مندهشين أكثر مما كانا في عجلة من أمرهما: - أسرع، أسرع! إن لصوصا في ذاك البيت، بيت جابي الضرائب، لقد سمعت الصرخات، لقد حان الوقت؛ وسأل الرقيب وهو يضع مطرقته على الأرض: - ما الذي جعلك على علم بذلك؟ وتابع ساعي البريد: - كنت ذاهباً لأحمل الجريدة مع رسالتين عندما لاحظت أن الباب مغلق وأن جابي المقابيض لم ينهض. فذهبت حول المنزل لأرى ماذا يجري، فسمعت أنين بشر كأنما خنق أحدهم أو ذبح، فغادرت بأسرع ما يمكنني لأبحث عنك. لقد حان الوقت، فانتصب الرقيب وقال: - وأنت لم تنقذه بنفسك؟ فأجابه ساعي البريد الخائف: - لقد خشيت ألا يكون فيّ ما يكفيني، فأعلن الرّقيب وقد اقتنع: - فقط ارتد ملابسك وسألحق بك، ودخل الدرك، وتبعه الجندي الذي أعاد الكرسي. ثم عادا في الحال تقريباً وانطلق ثلاثتهم بخطى حثيثة إلى مسرح الجريمة، ولما اقتربوا من المنزل أبطأوا من سرعتهم احتياطاً، وسحب الرّقيب مسدسه، ثم دخلوا الحديقة ببطء واقتربوا من السّور. لم تكن هناك أي علامة على أن المجرمين قد غادروا. ظل الباب مغلقاً والنوافذ مغلقة.

- لقد أمسكنا بهم"، قال العميد متمتماً، فقاده الأب « بونيفاس» وهو يخفق من شدة التأثر إلى الجانب الآخر وقال مشيراً إلى مظلة: "إنها هناك." وذهب العميد

[13] Malautour

بنفسه وضغط بأذنه على اللوح، فانتظر الآخران مستعدين لأي شيء وعيونهما مثبتة عليه. وبقي بلا حراك لفترة طويلة وهو يستمع. ماذا كان يسمع؟ لم يكشف وجهه المتجهم عن شيء، ولكن فجأة طوى شاربيه وانفرجت وجنتاه كما لو كان يضحك في صمت، ثم عاد إلى الرجلين اللذين كانا ينظران إليه في دهشة، ثم أشار إليهما أن يتبعاه وهو يمشي على رؤوس أصابعه، وعاد إلى المدخل، وأمر « بونيفاس» أن يدس الجريدة والرسائل تحت الباب.

ففعل ساعي البريد مطيعاً، ولكنه كان صامتاً: (والآن، لننطلق) قال العميد، ولكن ما كاد يجتاز البوابة حتى التفت إلى الرجلين وهو يسخر، وشفتاه تتهكمان وعيناه مقلوبتان تلمعان انشراحا...

- فقال موزّع البريد العجوز: ماذا قد سمعت؟، أقسم أني سمعت !، ولكن الرّقيب لم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك فانفجر ضاحكاً. وكان يضحك كما يضحك المخنوق، واضعاً يديه الاثنتين على بطنه مطوياً على اثنتين، وعيناه مليئتان بالدموع، وقد أحاط بأنفه تجهّم رهيب. ونظر إليه الآخران مذعورين، ولكنه لم يستطع أن يتكلم، ولا أن يكفّ عن الضحك، ولا أن يجعلهما يفهمان ما يفعل، فأشار إليهما بإشارة هي إشارة شعبية مهذبة، ولمّا كانا لا يزالان مبهمان لا يفهمانه، فقد كررها عدة مرات متتالية مشيراً بإيماءة إلى البيت الذي لا يزال مغلقاً، وانفجر الرقيب الذي فهم فجأة، بدوره، في موجة من الضحك الهستيري.

وبقي الرجل العجوز غبيّاً تائها بين هذين الرجلين اللذين كانا يلتويان، وهدأ الرقيب أخيراً، ثم صرخ ضاحكاً في بطن الموزّع العجوز:

- آه أيها المهرج، أيها المهرج اللعين، سأحاسبك على الجريمة التي ارتكبها الأب « بونيفاس»! وفتح ساعي البريد عينيه على مصراعيها وكرر:

- أقسم أني سمعت ذلك. وعاد الرقيب إلى الضحك مرة أخرى. وكان العميد قد جلس على العشب في الخندق يتلوى على مهله.

- آه، لقد سمعت... وزوجتك، هكذا تقتلها، أليس كذلك أيها المهرج العجوز؟

- زوجتي؟ - ما دخل زوجتي؟ - وفكر طويلاً، ثم تابع:
- زوجتي... نعم، عندما اضربها... ولكن هذا صراخ... آه، إذن كان السيد «تشاباتيس» يضرب زوجته؟ ثم قام الرقيب، في هذيان من شدة الضحك، بتدويره كالدمية من كتفيه، وهمس في أذنه بشيء ترك الرجل مذهولاً من الدهشة ثم غمغم العجوز بحياء :
-لا... لا... لا شيء من هذا القبيل... وانطلق، مرتبكاً، مشوشاً، خجولاً، واختفى من حيث جاء عبر مسالك الحقول الملتوية، بينما كان الرقيب والعميد لا يزالان يضحكان ويصيحان عليه من بعيد بنكات مستوحيات من اللحظة وهما يراقبان قبعته السوداء وهي تنجرف بعيداً في بحر المحاصيل الهادئ.

.3.

أمي[14]

تولستوي 1828 ـ 1910

أتذكر أنني عندما كنت أتعب من الركض، كنت آتي وأجلس على مائدة الشاي، على كرسي طفولتي الصغير، في مكان مرتفع. كان الوقت متأخرًا، وكنت قد أنهيت كوب الحليب الحلو منذ فترة طويلة، وكانت عيناي تغمضان من النوم، لكنني لم أكن أتحرك، كنت أجلس ساكنا وأستمع. كيف لي ألا أستمع؟ أمي تتحدث إلى أحد الموجودين هناك، وصوتها عذبٌ جداً وهو وحده يقول لقلبي أشياء كثيرة جداً. أحدق إليها بعيني التي أظلمها النعاس، وفجأة تصبح صغيرة جدًا، صغيرة تكاد لا ترى. تركت نفسي تنزلق على الأرض وذهبت لأستلقي براحة على كرسي كبير بذراعين.

قالت أمي: "أنت تغفو. من الأفضل أن تذهب إلى الفراش.

- لا أشعر برغبة في النوم يا أمي.

أحلام مبهمة ولكنها لذيذة تملأ مخيلتي، ونوم الطفولة الجميل يطبق على جفنيّ، وبعد لحظة أغفو. وفي أثناء نومي أشعر بيد رقيقة تلامسني؛ أتعرف عليها بمجرد لمسها، وبينما أنا نائم أمسكها وأضمها بقوة إلى شفتي.

---

[14] Tolstoï, Souvenirs. Enfance, Adolescence, Jeunesse. Traduction Arvède Barine (Hachette, édit.

تفرق الجميع. شمعة واحدة تحترق في غرفة المعيشة. قالت أمي إنها ستوقظني. تكوّرت على الكرسي بذراعين حيث كنت نائماً، ومررت يدها الجميلة الناعمة على شعري، وانحنت إلى أذني وهمست بذلك الصوت الجميل الذي أعرفه جيداً
»انهض يا روحي الصغيرة، لقد حان وقت الذهاب إلى الفراش."
لا تزعجها أي نظرة لا مبالاة؛ إنها لا تخشى أن تسكب عليَّ كل حنانها وحبها. لا أتحرك، لكنني أقبل يدها بقوة أكبر.
"انهض يا ملاكي ."
تضع يدها الأخرى على رقبتي وتدغدغني بأصابعها النحيلة. غرفة المعيشة الصامتة في شبه ظلام دامس، وأمي تجلس بالقرب مني، وتلمسني، وعندما أسمع صوتها أقفز على قدمي وألقي بذراعي حول عنقها وأضم نفسي إلى صدرها متمتماً:
"آه يا أمي، يا أمي الصغيرة العزيزة، كم أحبك !

.4.

تولستوي، ذكريات الطفولة والمراهقة والشباب.

ذكريات الطفولة[15]

ألفونس دي لا مارتين (1790 ـ 1869)

عاش لامارتين[16] طفولة سعيدة في ميللي[17]، وهي قرية صغيرة بالقرب من ماكون[18]. وها هو يتذكر بعاطفة جيّاشة تلك الأمسيات في منزل العائلة

كان الوقت ليلاً وكانت أبواب المنزل الصغير في "ميللي" مغلقة. كان الكلب الودود ينبح من وقت لآخر في الفناء. وكانت أمطار الخريف ترن على زجاج نافذتين منخفضتين، والرياح التي تهب بقوة، في هبوبها تصدر صفيرا يشبه الأنين، بتكسرها على أغصان شجرتين أو ثلاث من الأشجار المستوية وباختراقها ثغرات المصاريع، ذلك الصفير المتقطع الحزين الذي لا يسمعه المرء إلا عند أطراف غابات الصنوبر الكبيرة عندما نجلس عند قدميها لنستمع إليها. الغرفة التي أرى فيها نفسي مرة أخرى كبيرة، لكنها شبه عارية. في الخلف كوة عميقة بها سرير.

[15]Lamartine, Les Confidences (Hachette, édit.) fr.wikisource.org/wiki/Contes_et_récits_du_XIXe_siècle/Souvenirs_d’enfance

[16] Alphonse de Lamartine

[17] Milly

[18] Mâcon

ستائر السرير مصنوعة من نسيج قطني طويل أبيض بمربعات زرقاء. هذا هو سرير أمي؛ هناك مهدان على كرسيين خشبيين عند أسفل السرير؛ أحدهما كبير والآخر صغير. هذه هي حمالات أخواتي الصغيرات اللاتي كنّ نائمات منذ فترة طويلة. تشتعل نار كبيرة مصنوعة من مخزون الكروم في أسفل مدخنة من الحجر الأبيض. تشكل العوارض الكبيرة التي اسودت بفعل الدخان، وكذلك الألواح الخشبية التي تدعمها، السقف. لا توجد أرضيات خشبية أو سجاد تحت الأقدام، فقط بلاط من الطوب غير المزجج... لا توجد معلقات أو ورق حائط على جدران الغرفة، فقط جص مخدوش في عدة أماكن. يظهر الحجر العاري للجدار كما ترى الأطراف والعظام من خلال الملابس الممزقة. في إحدى الزوايا، قيثارة صغيرة مفتوحة، مع كراسات موسيقية من كتاب "عرّاف القرية" لجان جاك روسو، مبعثرة على الآلة، بالقرب من النار، في منتصف الغرفة، طاولة ألعاب صغيرة عليها سجادة خضراء مرقطة ببقع الحبر والثقوب في القماش. على المنضدة شمعتان من الشحم تحترقان في شمعدانين من النحاس المطلي بالفضة، وتلقيان ضوءاً خفيفاً وظلالاً كبيرة يهزها الهواء على جدران الشقة المبيضة.

ومقابل المدفأة، يستند بمرفقه على الطاولة، رجل جالس يحمل كتاباً في يده. قامته طويلة وأطرافه قوية. لا يزال يتمتع بكل حيوية الشباب. جبهته مفتوحة، وعيناه زرقاوان، وابتسامته قوية ومريحة، وأسنانه مشرقة. وتشهد بعض بقايا زيه، ولا سيما تسريحة شعره وبعض الصلابة العسكرية في سلوكه، على أنه ضابط متقاعد. وإذا كان لديك أي شك، فما عليك إلا أن تنظر إلى سيفه ومسدسات خدمته وخوذته واللوحات المذهبة على لجام حصانه التي كانت تلمع بريقاً من مسمار معلق على الحائط في مؤخرة خزانة صغيرة تفتح على الغرفة. هذا الرجل

هو والدي[19]. تجلس على أريكة منسوجة من القش، في الزاوية التي تشكلها المدفأة وجدار الكوة، امرأة لا تزال تبدو في ريعان شبابها، رغم أنها تقترب من الخامسة والثلاثين. كما أنها طويلة القامة ورشيقة، تتمتع بكل ليونة وأناقة فتاة شابة. ملامحها رقيقة جداً، وعيناها السوداوان لهما نظرات صريحة وثاقبة؛ وبشرتها الشفافة تكشف الكثير تحت نسيجها الشاحب قليلاً، وزرقة عروقها والحمرة المتحركة لأدنى انفعالاتها؛ وشعرها الأسود جداً و الناعم جداً ينسدل بتموجات وانحناءات حريرية على خديها وحتى على كتفيها بحيث يستحيل أن تعرف ما إذا كانت في الثامنة عشرة أو الثلاثين. ولا أحد يريد أن يمحو سنة واحدة من سنوات عمرها التي لا تزيدها إلا نضجاً في فراستها وإكمالاً لجمالها.

وهذا الجمال، وإن كان نقيًا في كل مظهر من مظاهره إذا تأملنا فيه بالتفصيل، إلا أنه يظهر قبل كل شيء في المجموع بالانسجام، بالرشاقة، وخاصة بهذا الإشراق من الرقة الداخلية، جمال الروح الحقيقي الذي ينير الجسد من الداخل، و ليس أجمل ما في الوجه إلا مظهره الخارجي. هذه المرأة الشابة، نصف متكئة على وسائد، تحمل طفلة صغيرة نائمة، ورأسها على أحد كتفيها. والطفلة لا تزال تقلب بأصابعها إحدى ضفائر شعر أمها السوداء الطويلة، التي كانت كثيرا ما تلعب بها قبل أن تغفو. تجلس طفلة صغيرة أخرى، أكبر منها، على مقعد عند سفح الأريكة، مسندة رأسها الأشقر على حضن أمها. هذه المرأة الصغيرة هي أمي، وهاتان الطفلتان هما شقيقتاي الكبيرتان. وهناك طفلتان أخريان في المهدين.

أبي، كما قلت، يحمل كتاباً في يده. إنه يقرأ بصوت عالٍ. ما زلتُ أسمع صوته الذكوري، الممتلئ والعصبي والمرن في الوقت نفسه، الذي يتدفق في فترات رنانة

---

[19] *L'officier retiré* : le père de Lamartine, capitaine dans un régiment de cavalerie, avait été, pendant la Révolution, un des défenseurs de Louis XVI. Emprisonné, puis remis en liberté, avec sa famille, dans son petit domaine de Milly.

عريضة، تقطعها أحياناً الرياح التي تهب على النوافذ. تستمع أمي، ورأسها منحني قليلاً، وهي تستمع حالمة. أما أنا، وقد أدرت وجهي نحو أبي وذراعي مستنداً إلى إحدى ركبتيه، فقد كنت أستمع إلى كل كلمة، وأترقب كل قصة، وألتهم الكتاب الذي تتفتح صفحاته ببطء شديد لا يتسع له خيالي الذي لا صبر له.[20]
احتفظت بالمجلدين بعناية فائقة وحفظتهما من كل التقلبات التي تجلبها تغيرات الإقامة والوفيات والتوريث والانقسامات لمكتبات العائلة. ومن وقت لآخر، في "ميللي"، في نفس الغرفة، عندما أعود وحدي، أفتحهما في خشوع، وأعيد قراءة بعض هذه الأبيات نفسها بنصف صوت، وأحاول أن أتظاهر لنفسي أنني أسمع صوت أبي، وأتخيل أن أمي لا تزال هناك مع أخواتي تستمع وتغمض عينيها. وأجد نفس الانفعال في أبيات "تاسو"[21]، ونفس أصوات الريح في الأشجار، ونفس بريق الكروم في الموقد، ولكن صوت أبي لم يعد هناك، و أمي تركت الأريكة فارغة، و المهدين قد تحولا إلى قبرين ينبتان خضرا على تلال غريبة! وينتهي كل هذا دائمًا بالنسبة لي ببضع دموع أبلل بها الكتاب عندما أغلقه.

---

[20] Il s’agit de la *Jérusalem délivrée*, poème italien du Tasse, traduit par Lebrun, en deux volumes. Le sujet en est la délivrance du Saint-Sépulcre pur Godefroy de Bouillon, qui dirigea la première croisade, et conquit à grand’peine Jérusalem sur les païens. Lamartine gardera toujours en goût de la lecture qui éventera, son intelligence, formera son âme, et contribuera à faire de lui un grand poète.

[21] Tasse

.5.

ها قد غادرت باريس ![22]

يوليو 1838

.

فيكتور هيقو [23]1802ـ 1885

في صباح أول أمس، في حوالي الساعة الحادية عشرة، كما كتبت لك يا صديقي، غادرت باريس. وتركت "سان دوني" و"مونتمورسي" على يساري، وفي أقصى التلال هضبة "سان – بي"، وفي تلك اللحظة التي كنت فيها قد فكرت فيكم جميعا تفكيراً رقيقاً، ظلت عيناي مثبتة على ذلك الفانوس الصغيرة المظلم في نهاية السهل حتى أخفاها عني فجأة منعطف في الطريق.

وأنتم تعرفون ذوقي في الرحلات الطويلة في أيام قصيرة، دون تعب، ودون أمتعة، في سيارة أجرة، وحدي مع صديقي الطفولة القديمين، "فيرجيل وتاسيتوس". لذا يمكنك أن ترى طاقمي من هنا.

سلكت الطريق إلى "شالون"، لأنني أعرف الطريق إلى "سوسون" من خلال متابعتي له منذ بضع سنوات؛ وبفضل الهدّامين، لم يعد هذا الطريق ذا أهمية كبيرة اليوم. فقدت "نانتي لو هودوان" قلعتها التي بنيت في عهد فرانسوا الأول. أما "فيلير كوتيريه" فقد حولت دار العزبة الرائعة التي كانت ملكاً " لدوق فالوا"

[22] Lettre de Victor Hugo

[23] Victor Hugo

إلى مخزن للمتسولين، وهنا كما في كل مكان تقريباً اختفت تحت الكشط والطلاء الأبيض كل روح عصر النهضة وكل جمال القرن السادس عشر. لقد هدمت "دامارتان" برجها الضخم الذي كان يمكن رؤية "مونمارتر" من قمته بوضوح، على بعد تسعة فراسخ، والذي أدى صدعه العمودي الكبير إلى ظهور مثل لم أفهمه تماماً: إنها مثل قلعة "دامارلن" التي تفيض بالضحك. أما اليوم، وقد ترملت من قلعتها القديمة التي كان "أسقف مو" عندما يتشاجر مع كونت شامبين الذي كان يحتمي بها مع سبعة من حاشيته، فلم تعد "دامارتان" تولد الأمثال ولا تبعث إلا على ملاحظات أدبية من النوع التالي الذي نسخته حرفياً، في الوقت الذي قضيته هناك، من كتاب محلي صغير لا أعرفه كان موضوعاً على مائدة النزل.

"دامارتان"، وهي بلدة صغيرة على تلة... ولم يسمح لي الوقت القصير الذي خصصه لي هذا الطاغية من طغاة العربات الذي يدعى (السائق) أن أتحقق من صحة ما قيل لي من أن سكان "دامارتان" البالغ عددهم ستمائة وألف شخصاً كلهم من الفضوليين. لذلك سلكت طريق "مو".

وبين "كلاي ومو"، في أجمل طقس وفي أجمل طريق في العالم، تعطلت عجلة سيارتي المكشوفة. وأنت تعلم أنني من أولئك الرجال الذين يواصلون المسير؛ تخلت عجلة السيارة المكشوفة عني، فتخليت أنا عن السيارة المكشوفة. كانت هناك عربة صغيرة تمر للتو، عربة "توشارد". وكان بها مقعد واحد شاغر، فأخذته؛ وبعد عشر دقائق من الحادث، "واصلت طريقي"، وأنا جالس على العربة ذات الطابقين بين أحدب ودركي.

ها أنا ذا الآن في "لا فرتي"، تلك البلدة الصغيرة الجميلة التي يسعدني أن أراها للمرة الرابعة مرات أخرى، بجسورها الثلاثة، وجزرها الساحرة، وطاحونتها القديمة في وسط النهر، والتي تتصل بالأرض بخمسة أقواس، وجناحها الجميل الذي يرجع تاريخه إلى عهد لويس الثالث عشر، والذي يقال إنه كان ملكاً للدوق "دي سان سيمون"، وهو الآن في يد بقال وإذا كان السيد "دي سان سيمون" يملك هذا

المسكن القديم، فإنني أشك في أن قصره الأصلي في "لا فيرتي" كان أكثر فخراً واعتزازاً بمظهره الفخم، وكان أكثر ملاءمة لتأطير شخصيته المتغطرسة كدوق ونظير من قصر "لا فيرتي سوس جوار" الساحر والصارم.
إنه الوقت المثالي للسفر. الريف مليء بالعمال. يتم الانتهاء من الحصاد. يتم بناء أحجار طاحونة كبيرة هنا وهناك، وعندما يكتمل نصفها تبدو مثل الأهرامات المنزوعة الأحشاء التي تراها في سوريا. يوضع القمح المقطوع على الأرض على سفوح التلال ليشبه ظهور الحمير الوحشية.
وكما تعلم يا صديقي أنني لا أبحث عن الأحداث عندما أسافر، بل عن الأفكار والأحاسيس؛ ولهذا تكفيني حداثة الأشياء. كما أنني أكتفي بالقليل جداً. فما دام لديّ أشجار وعشب وهواء وطريق أمامي وطريق خلفي، فكل شيء يناسبني. إذا كانت البلاد مسطحة، فأنا أحب الآفاق الواسعة. وإذا كان البلاد تلالاً، فأنا أحب المناظر الطبيعية غير المتوقعة، وفي أعلى كل تلة هناك واحد منها. رأيت للتو واديًا ساحرًا. وعلى اليمين واليسار روابٍ جميلة من الأرض المعشوشبة، وتلال كبيرة تقطعها المحاصيل، ومربعات كثيرة ممتعة للنظر؛ وهنا وهناك مجموعات من الأكواخ المنخفضة المكسوة بالقش التي بدت سقوفها كأنها تلامس الأرض؛ وفي أسفل الوادي مجرى مائي يميزه للعين خط طويل من الخضرة ويقطعه جسر صغير قديم من الحجارة الصدئة التي أكلتها الديدان حيث يتصل طرفا الطريق الرئيسي. وبينما كنت أقف هناك، كانت عربة جوّالة تعبر الجسر، عربة ألمانية ضخمة منتفخة ومربوطة تبدو كبطن تلك العربة التي تجرها ثمانية خيول على أربع عجلات. كان أمامي، متبعاً تموّج التل المقابل، الطريق المشمس الذي كانت ظلال صفوف الأشجار ترسم عليه باللون الأسود شكل مشط كبير تنقصه عدة أسنان. حسناً، هذه الأشجار، وهذا المشط من الظلال التي قد تضحكك، وهذا الحوذي وهذا الطريق الأبيض، وهذا الجسر القديم، وهذه الحقول المنخفضة، كل هذا

يبهجني ويجعلني منشرحا. وادٍ كهذا يجعلني سعيداً، والسماء من فوقه. كنت وحدي في تلك العربة أنظر إليها وأستمتع بها. كان الركاب يتثاءبون بفظاعة.
عندما نتولى القيادة، كل شيء يسلينا. توقفنا عند باب النزل. تصل الخيول مع قعقعة الحديد. هناك دجاجة بيضاء على الطريق الرئيسي، ودجاجة سوداء في الحشائش، ومشدّ أو عجلة قديمة مكسورة في زاوية، وأطفال ملطخة ثيابهم يلعبون على كومة من الرمال؛ وفوق رأسي "شارل- كانت أو جوزيف الثاني أو نابليون" معلقين على مشنقة حديدية قديمة ويضعون لافتة، أباطرة عظام لا يصلحون الآن إلا لتزيين نزل. البيت مليء بأصوات الثرثرة؛ وعلى عتبة الباب يتنافس صبيان الإسطبل وخادمات المطبخ، ويتغازل الروث مع ماء الصحون؛ وأنا أستغل موقعي العالي – على الإمبراطورية – لأستمع إلى حديث الأحدب والرّقيب أي عون الحرس، أو لأعجب بالمستعمرات الصغيرة الجميلة من زهور الخشخاش القزم التي تشكل واحات على سطح قديم.
وإلى جانب ذلك، كان الرّقيب والأحدب فيلسوفين، "غير متكبرين على الإطلاق"، وكانا يتجاذبان أطراف الحديث بإنسانية، الرّقيب دون أن يزدري الأحدب، والأحدب دون أن يحتقر الرّقيب. كان الأحدب يدفع ستمائة فرنك كضرائب لـ"جوارري"، وهو "جوفيس آرا" العجوز، كما كان لطيفاً بما فيه الكفاية ليشرح للدركي. وله أيضاً أب يدفع تسعمائة جنيه في باريس، وهو ساخط على الحكومة في كل مرة يدفع فيها القرش لعبور الجسر على "المارن" بين مو ولا فرتيه. لم يدفع الرّقيب أي مساهمة، لكنه روى قصته بسذاجة. في عام 1814، في مونتميراي، قاتل كالأسد؛ كان مجنداً. وفي عام 1830، في أيام تموز/ يوليو، خاف وهرب؛ كان دركياً. هذا يفاجئه ولا يفاجئني. كمجند، لم يكن في العشرين من عمره سوى رجل شجاع. وكشرطي، كان لديه زوجة وأطفال، وأضاف أنه كان لديه حصانه الخاص؛ وكان جباناً. نفس الرجل، بالمناسبة، ولكن ليس نفس الحياة. الحياة طبق جيد

بقدر جودة صلصته. لا شيء أكثر جرأة من المحكوم عليه. في هذا العالم، لا يهمك جلدك بل ملابسك. الرجل العاري لا يهتم بشيء.

لنعترف أيضًا أن العصرين مختلفان تمامًا. ما في الهواء يؤثر على الجندي كما على أي رجل. الفكرة التي تهب تجمده أو تدفئه أيضًا. في عام 1830، كانت هناك ثورة في الهواء. لقد شعر بأن قوة الأفكار التي هي كالروح من قوة الأشياء، قد انثنت عليه وغلبته. ثم ما الذي يمكن أن يكون أكثر حزناً وأشد تهييجاً! أن يقاتل من أجل أوامر غريبة، من أجل ظلال مرت في عقل مضطرب، من أجل حلم، من أجل جنون، من أجل إخوة ضد إخوة، من أجل مشاة ضد عمال، من أجل فرنسيين ضد باريسيين! في عام 1814، على العكس من ذلك، كان المجند يقاتل ضد الأجنبي، ضد العدو، من أجل أشياء واضحة وبسيطة، من أجل نفسه، من أجل الجميع، من أجل أبيه وأمه وأخواته، من أجل المحراث الذي تركه للتو، من أجل سقف القش الذي كان يدخن فوقه، من أجل الأرض التي كانت تحت أظافر حذائه، من أجل الوطن الحي النازف. في عام 1830، لم يكن الجندي يعرف ما كان يقاتل من أجله. في عام 1814 كان يعرف أكثر من مجرد المعرفة، بل كان يفهم؛ كان يفهم أكثر من مجرد الفهم، بل كان يشعر؛ كان يشعر أكثر من مجرد الإحساس، بل كان يرى. أثار اهتمامي في "مو" ثلاثة أشياء: بوابة صغيرة مبهجة من عصر النهضة بجوار كنيسة قديمة مفككة، على اليمين عند دخولك المدينة؛ ثم الكاتدرائية؛ ثم خلف الكاتدرائية مسكن قديم جيد من الحجر، نصفه محصن، تحيط به أبراج كبيرة مشغولة. كان هناك فناء. دخلت الفناء بشجاعة رغم أنني رأيت امرأة عجوز تحيك شيئا ما. لكن السيدة الطيبة سمحت لي بالدخول. أردت أن أتفحص الدرج الخارجي الجميل، المرصوف بالحجر والمطعم بالخشب، والذي يؤدي إلى البيت القديم، والمدعوم بقوسين منخفضين والمغطى بمظلة ذات أقواس ذات سلال. لم يكن لدي وقت لرسمه. يؤسفني ذلك؛ إنه أول درج من نوعه رأيته. يبدو لي أنه من القرن الخامس عشر. الكاتدرائية كنيسة نبيلة بدأت

في القرن الرابع عشر واستمرت في القرن الخامس عشر. وقد تم ترميمها للتو بطريقة بغيضة. لم يكتمل بناؤها بعد. لم يتم بناء سوى برج واحد من البرجين اللذين خطط لهما المهندس المعماري. أما الآخر، الذي تم رسمه تخطيطياً، فيخفي جذعه تحت سقف أردوازي. يعود الباب الأوسط والباب الذي على اليمين إلى القرن الرابع عشر؛ أما الباب الذي على اليسار فيعود إلى القرن الخامس عشر. الأبواب الثلاثة جميلة جداً، رغم أنها مصنوعة من الحجر الذي أكله القمر والمطر.

أردت فك رموز النقوش البارزة. تصوّر طبلة الباب الأيسر قصة القديس يوحنا المعمدان؛ لكن الشمس التي كانت تسقط بغزارة على الواجهة لم تسمح لعينيّ أن تتعمق أكثر. يتميز التصميم الداخلي للكنيسة بتكوينه الرائع. يوجد على المذبح زخارف كبيرة ثلاثية الفصوص ذات تأثير جميل جداً. كل ما تبقى منها نافذة زجاجية ملونة رائعة، مما يجعلك تفتقد النوافذ الأخرى. في مدخل الجوقة، يوجد مذبحان مصنوعان من أعمال خشبية رائعة تعود إلى القرن الخامس عشر ويجري حالياً استبدالهما، ولكن يتم تلطيخهما بطلاء زيتي بلون الخشب. هذا هو ذوق السكان المحليين. على يسار المذبح، بالقرب من باب منخفض ساحر ذو رافعة عابرة، رأيت تمثالاً رخامياً جميلاً راكعاً لرجل حرب من القرن السادس عشر، بدون شعار ولا نقش. لم أستطع تخمين اسم هذا التمثال. أنت، يا من تعرف كل شيء، كنت ستعرفه. وفي الجانب الآخر يوجد تمثال آخر؛ وهذا التمثال يحمل نقشاً خاصاً به، وحسناً فعلت، لأنك أنت نفسك لن تخمن وجه "بينيني بوسيه" الصارم في هذا الرخام الصلب الرقيق. أما بالنسبة "البوسيه"، فإنني أخشى كثيراً أن يكون تدمير النوافذ الزجاجية الملونة من صنعه. لقد رأيت عرشه الأسقفي، بألواحه الرائعة المصممة على طراز لويس الرابع عشر. لم يكن لدي الوقت الكافي لزيارة خزانته الشهيرة في قصر الأسقف.

ومن الحقائق الغريبة أنه كان في مدينة "مو" مسرح قبل باريس، وهو مسرح حقيقي، بني منذ عام 1547، كما تقول مخطوطة في المكتبة المحلية: "كان يشبه السيرك القديم من حيث أنه كان مغطى بالقطيفة، ويشبه المسرح الحديث من حيث وجود صناديق قابلة للقفل في جميع الأنحاء، وكانت تؤجر لسكان "مو". كانت تُقام فيه عروض الألغاز. لعب رجل يدعى" باسكالوس" دور الشيطان واحتفظ بلقبه. وفي عام 1562 سلّم المدينة إلى "الهوغونوتيين"، وفي العام التالي شنقه الكاثوليك، وذلك جزئيا لأنه سلّم المدينة، وجزئياً لأنه كان يُلقب بالشيطان. – واليوم يوجد في باريس عشرون مسرحاً، بينما لم يعد في مدينة "شامبين" مسرح واحد. ويقال إن المدينة تفتخر بذلك؛ وكأنما تفتخر مدينة "مو" بأنها ليست باريس. علاوة على ذلك، فإن هذا البلد مليء بقرن لويس الرابع عشر. هنا، الدوق "دي سان سيمون"؛ وفي "مو، بوسويت"؛ وفي لا فيرتي ميلون، راسين؛ وفي شاتو تييري، "لا فونتين". كل ذلك ضمن دائرة نصف قطرها اثنا عشر فرسخاً. اللورد العظيم بجوار الأسقف العظيم. المأساة والخرافة يسيران جنباً إلى جنب.

عند مغادرة الكاتدرائية، وجدت الشمس محجوبة وتمكنت من فحص الواجهة. إن الطبلة الكبيرة للبوابة المركزية مثيرة للفضول. تصور المقصورة السفلية "جوان" زوجة "فيليب العادل"، التي استُخدمت أموالها لبناء الكنيسة بعد وفاتها. وتقف ملكة فرنسا وبيدها الكاتدرائية على أبواب السماء. القديس بطرس يفتحها لها. وخلف الملكة يقف الملك فيليب الوسيم، مع جو من الفقر المخزي. وتشير الملكة، وهي منحوتة بروحانية عالية ومستديرة، إلى شيطان الملك المسكين بنظرة جانبية وإيماءة من الكتف، ويبدو أنها تقول للقديس بطرس: باه! دعه يدخل قبل كل شيء!

.6.

الوصف الحزين[24]

شاتوبريان 1768 ـ 1848

توفي والد "رينيه". فيقرر السفر، لكن مشاهد الطبيعة الرائعة لا تستطيع أن تهدئ من كآبته أو تلهيه عن ملله، فيعود إلى باريس في حالة من اليأس، ثم يعتزل العالم هائما في الريف. معذَّبًا بعواطفه، ويسلِّم نفسه لأحلام اليقظة... يقول:
في النهار، كنت أتجول فوق التلال العظيمة التي تنتهي بالغابات. ولم يكن خيالي يحتاج إلى الكثير: ورقة جافة تذروها الرياح أمامي، كوخ يتصاعد دخانه من قمم الأشجار العارية، طحلب يرتجف على جذع شجرة بلوط في النسيم الشمالي، صخرة نائية، بركة مهجورة حيث يخرخر كل شيء! وكثيراً ما لفت نظري برج الجرس المنعزل الذي يرتفع بعيداً في الوادي، وكثيراً ما تتبعت الطيور العابرة التي كانت تحلق فوقه. تخيلت الشواطئ المجهولة، والمناخات البعيدة التي تطير إليها؛ وددت لو كنت على أجنحتها. وكانت غريزة سرية تعذبني؛ وشعرت بأنني لست سوى مسافر؛ ولكن صوتاً من السماء بدا لي وكأنه يقول لي: "أيها الرجل، إن موسم هجرتك لم يحن بعد، فانتظر حتى تهب ريح الموت، ثم تقرر طيرانك نحو تلك المناطق المجهولة التي يتوق إليها قلبك، فانهض بسرعة أيها العاصف المشتاق، الذي يجب أن يحمل "رينيه" إلى فضاءات حياة أخرى! هكذا قلت، ومضيت في طريقي، ووجهي ملتهب والريح تصفر في شعري، لا أشعر بالمطر ولا بالصقيع، مسحورًا معذبًا وكأنما استحوذ عليَّ شيطان قلبي.

[24] François-René de Chateaubriand, René (1802)

.7.

مقتطفات من مآثر"شاتوبريان"[25]

النصّ الأول

الإستقرار بسهل الذئاب

"عندما لا يُسمع في صمت الذل إلا سلسلة العبد وصوت المخبر؛ عندما يرتجف كل شيء أمام الطاغية، ويكون من الخطورة بمكان أن ينال رضاه كما يستحق خزيه، يبدو المؤرخ مكلفًا بانتقام الشعب .

عبثًا يزدهر نيرون؛[26] لقد وُلد "تاسيتوس"[27] بالفعل في الإمبراطورية؛ إنه ينمو مجهولاً بجانب رماد "جرمانيكوس"[28]، وقد سلمت العناية الإلهية الصادقة بالفعل مجد سيد العالم إلى طفل مغمور.

وسرعان ما ستكشف الحوليات عن كل الفضائل الزائفة؛ وسرعان ما سيظهر في الطاغية المؤله فقط المؤرخ، والمحرِّق، والمُحرِّض والمُثبِّط على غرار أولئك المسيحيين الأوائل في مصر الذين اخترقوا في خطر أيامهم معابد الوثنية، واستولوا في أعماق الحرم المظلم على ذلك اللاهوت الذي قدمته الجريمة لبخور الخوف، وجروا إلى نور الشمس، بدلاً من إله، وحشاً مرعباً .

---

25 EXTRAITS D'OEUVRES A LA RENCONTRE DE FRANÇOIS-RENÉ DE CHATEAUBRIAND ET DU ROMANTISME

26 Néron

27 Tacite

28 Germanicus

ولكن على الرغم من أن دور المؤرخ جميل، إلا أنه غالباً ما يكون خطيراً. فلا يكفي دائماً لرسم أعمال الرجال أن يكون المرء ذا نفس سامية، وخيال قوي، وعقل رقيق وعادل، وقلب رحيم وصادق، بل يجب أن يكون ذا شخصية لا تعرف الخوف، وأن يكون مستعداً لكل المصائب، وأن يكون قد ضحى براحة نفسه وحياته مقدماً [29].

النص الثاني

لا فاليه[30] 4 أكتوبر 1811 .

منذ أربعة أعوام، عند عودتي من الأرض المقدسة، اشتريت منزلاً بستانياً بالقرب من قرية "أولناي"[31] الصغيرة بالقرب من "سو وشاتيناي"[32]، وكان مخبأً بين تلال مشجرة. ولم تكن الأرض الرملية غير المستوية الملحقة بهذا المنزل سوى بستان بري في نهايته وادٍ وغابة من أشجار الكستناء. وبدا لي أن هذا الحيز الضيق قد احتوى على آمالي الطويلة؛ إن الأشجار التي زرعتها هناك مزدهرة ولا تزال صغيرة جدًا لدرجة أنني أمنحها الظل عندما أقف بينها وبين الشمس. ذات يوم، بإعطائي هذا الظل سيحمون شيخوختي كما حميتُ شبابهم. لقد انتقيتها بقدر ما

[29] Chateaubriand, Sur le Voyage pittoresque et historique de l'Espagne par M Alexandre de Laborde, in Mercure de France du 4 juillet 1807.

[30] La Vallée-aux-Loups, près d'Aulnay

[31] Aulnay

[32] Sceaux et Châtenay

استطعت من مختلف المناخات التي تجولت فيها؛ فهي تذكرني بأسفاري وتغذي أوهاماً أخرى في أعماق قلبي.
وإذا ما عاد آل "بوربون"[33] إلى العرش في يوم من الأيام، فلن أطلب منهم إلا أن يجعلوني غنياً بما فيه الكفاية لأضيف إلى ميراثي أطراف الغابات التي تحيط به مكافأة على ولائي: لقد تملكني الطموح؛ وأود أن أزيد في نزهتي بضعة فدادين: فمع أني فارس ضال، فإن لي أذواق الرهبان المستقرة: فمنذ أن عشت في هذه الخلوة لا أظن أني وطئت قدمي خارج ضيعتي ثلاث مرات .
لن تفي أشجار الصنوبر، وأشجار التنوب، وأشجار الأرز بما وعدت به، وستصبح "فاليه أو لو"[34] شجر "شارتريز"[35] حقيقي. عندما وُلد فولتير في "شاتيناي"[36] في 20 فبراير 1694، ماذا كان شكل سفح التل؟
إنني أحب هذا المكان؛ وقد حلّ لي محل حقول أبي؛ وقد دفعت ثمنه من نتاج أحلامي وسهراتي؛ وإني مدين لصحراء "أتالا"[37] العظيمة بصحراء "أولناي" الصغيرة؛ ولكي أخلق لنفسي هذا الملجأ، لم أقم، مثل المستعمر الأمريكي، بتجريد الهندي من "الفلورايدس".[38] أنا متعلق بأشجاري؛ وقد كتبت لها المراثي والقصائد والأشعار. ما من واحدة منها لم أرعاها بيدي، ولم أنقذها من الدودة الملتصقة

---

[33] les Bourbons

[34] la Vallée-aux-Loups

[35] chartreuse

[36] Châtenay

[37] Atala

[38] l’Indien des Florides.

بجذرها، ومن اليرقة الملتصقة بورقها؛ أعرفها كلها بالاسم، مثل أولادي: إنهم عائلتي، ليس لي غيرهم، وأتمنى أن أموت بينهم.[39]

النص الثالث

وقرب نهاية شهر نوفمبر، بعد أن لاحظت أن الإصلاحات في كوخي لا تتقدم، قررت الذهاب لتفقدها .
وصلنا إلى لا فاليه في المساء. لم نسلك الطريق المعتاد؛ دخلنا من البوابة في أسفل الحديقة. حالت أرض الممرات المبللة بالمطر دون تحرك الخيول؛ وسقطت العربة. قفز تمثال هوميروس النصفي الجصي، الذي كان موضوعاً بجانب "مدام دي شاتوبريان"[40]، من الباب وكسر عنقه: نذير شؤم على الشهداء، وقد كنت أعتني به في ذلك الوقت.
وكان البيت يعج بالعمال الذين يضحكون ويغنون ويضربون على الأرض، كان مليئاً بالضحك والغناء والضجيج، وكان مدفئاً بنشارة الخشب ومضاءً بالشموع؛ وكان يبدو كصومعة ينيرها ليلاً الحجاج في الغابة .
سُررنا عندما وجدنا غرفتين مجهزتين تجهيزاً جيداً إلى حد ما، وكانت إحداهما مجهزة بمائدة معدة مسبقاً، وجلسنا لتناول العشاء .
وفي اليوم التالي، وقد أيقظني صوت المطارق وغناء المستعمرين، راقبت شروق الشمس بقلق. كنتُ في حالة من السحر اللامتناهي؛ ودون أن أكون "مدام دي

[39] Mémoire d’outre-tombe, livre premier, chapitre 1.

[40] Chateaubriand,

سيفينييه"[41]، كنتُ مزودة بزوج من القباقيب أغرس أشجاري في الوحل، وأسير في نفس المسارات مراراً وتكراراً، وأرى وأعيد زيارة كل الزوايا الصغيرة، وأختبئ حيثما وجدتُ شجيرة، وأتخيل كيف ستكون حديقتي في المستقبل، لأنه لم يكن هناك في ذلك الوقت أي مستقبل .

اليوم، وأنا أحاول أن أعيد فتح الأفق المغلق بذاكرتي، لم أعد أجد الأفق نفسه، بل أصادف أفقًا آخر. أفقد نفسي في أفكاري المتلاشية؛ وربما كانت الأوهام التي أتعثر بها جميلة كالأولى؛ إلا أنها لم تعد فتية؛ فما كنت أراه في روعة الظهيرة أراه في وهج الغروب. - لَيْتَ الأَحْلامَ تَكُفُّ عَنِّي!

فأجاب "بايارد"[42]، وقد استدعيت إلى الاستسلام: "انتظروا حتى أبني جسراً من الجثث، حتى أستطيع العبور بحاميتي. أخشى أنه من أجل الخروج، أن أضطر إلى الوقوف على بطون أشجاري .

ولما كانت أشجاري لا تزال صغيرة لم تكن تلتقط صوت رياح الخريف؛ أما في الربيع، فقد كانت النسائم التي تهب على المروج المجاورة فتنفسها في واديي .

أدخلت بعض الإضافات على الكوخ، وزيّنت جداره القرميدي برواق يدعمه عمودان من الرخام الأسود وتماثيل لامرأتين من الرخام الأبيض: تذكرت أنني كنت في أثينا.

كانت خطتي أن أضيف برجاً إلى نهاية جناحي؛ وفي الوقت نفسه قمت بمحاكاة أسوار على الجدار الذي يفصلني عن الطريق: وبهذه الطريقة سبقت هوس العصور الوسطى الذي يذهلنا الآن.[43]

---

[41] de Sévigné

[42] Bayard

[43] Mémoire d’outre-tombe, livre dix-huitième, chapitre 5.

النص الرابع

وأخيراً قررنا أن نضحي بآخر ما تبقى لنا من المال تقريباً لنشتري كوخاً لا يبعد كثيراً عن باريس؛ وقد وجدنا كوخاً على بعد ثلاثة فراسخ في جبال "أوفيرني" [44].

ويقع هذا المنزل الذي اشتريناه بثمن كبير ، وهو ما يدل على جماله، في منطقة "أولناي" بالقرب من "سو وشاتيناي". وعندما اشتريناه كان عبارة عن حظيرة بلا فناء وبستان مزروع بأشجار التفاح الرديئة وقليل من الأشجار الرديئة ما عدا شجرة أكاسيا واحدة كانت جميلة جداً؛ ولكن هذا البستان الذي كان مملوءاً بأرض متغيرة وتحيط به (كما كان المنزل) تلال مزروعة، كانت هذه الملكية البرية، التي كانت تُعرف آنذاك باسم فاليه-أو-لوب[45] وأطلق عليها فيما بعد "فونتانيس[46] فال-دو- لوب" والآن ببساطة فاليه، تعود ملكيتها في السابق إلى أحد أثرياء صناعة الجعة. كانت هذه الملكية البرية، تعود ملكيتها في السابق إلى صانع جعة ثري جداً في شارع سان أنطوان، والذي قدم خدمة جليلة للعائلة الملكية في بداية الثورة. وامتناناً له طلبت منه الملكة ذات يوم زيارة مصنع الجعة الخاص بها في أولناي. ويقال إن الرجل النبيل لم يجد كوخه المصنوع من القش جميلاً بما فيه الكفاية لاستقبال ملكته، وفي ثلاثة أيام بنى الجناح الصغير على أحد منحدرات الحديقة، وكان في الوقت الذي اشترينا فيه الوادي رائعاً جداً بالنسبة لبقية المنزل. ولما كان الحكم بالنفي قد صدر، لم يكن هناك عجلة في تنفيذه، فقد أتاح لنا ذلك وقتاً كافياً

[44] les montagnes d'Auvergne.

[45] s la Vallée-aux-Loups

[46] Fontanes

لإجراء الإصلاحات العاجلة قبل أن نستولي عليه، وفي هذه الأثناء اتخذنا شقة في فندق مفروش في شارع القديسين.
وقرب نهاية شهر نوفمبر، وبعد أن رأينا أن الإصلاحات في كوخنا لا تتقدم، قررنا أن نذهب ونعتني بها بأنفسنا؛ ووصلنا في المساء إلى لا فاليه في طقس مروع. الطرق على جانب "أولناي"، وهي طرق صعبة للغاية في جميع الأوقات، ولا يمكن عبورها في الطقس السيئ. دخلنا من بوابة في أسفل الحديقة، وهو ليس المدخل المعتاد؛ وقد منعت تربة الطرقات التي أثارها المطر حديثاً وهدمها من أن تتقدم الخيول إلى الأمام، وبجهد بذلته لتحرير العجلات من الأخاديد انقلبت العربة. لم نصاب بأذى، لكن "هومر" الذي كنت أحمله بين ذراعيّ سقط من الباب وكسرت رقبته، ضحية استياء بونابرت. وكان البيت، الذي لم يكن أحسن حالاً من اليوم الذي اشتريناه فيه، لا يزال يعج بالعمال الذين كانوا يضحكون ويغنون ويرحبون بنا. وكان على رأسهم طباخنا العجوز الذي أرسلناه ليضع لنا الحساء. ولم يكن ثملاً أكثر من المعتاد، ولكنه كان ثملاً بما فيه الكفاية حتى أنه كان يترنح ولا يستطيع أن ينطق بكلمتين متتاليتين. ولم تمنعه حالة السكر هذه، التي كان يجد نفسه فيها عادة، من أن يطبخ بشكل رائع، بل على العكس من ذلك، إذا نجحنا في منعه من الشرب يوما ما عن طريق التوبيخ والتهديد، فإنه لم يعد يعرف ماذا يفعل: ففي أحد تلك الأيام السيئة مثلا، وضع رغيفاً من السكر في الحساء بدلاً من اللحم البقري. كانت الغرف الخالية من النوافذ تُدفأ بنشارة الخشب وتضاء على ضوء الشموع. واختلطت رائحة الشرائح التي كانت مشوية برائحة دخان التبغ، لأن زجاجات الفريز بوليه التي كانت تفوح من زجاجاتنا لم تنسه الشرائح التي كانت دائماً مطبوخة طبخاً متقناً. وكان الجميع مبتهجين كما كنا مبتهجين، وكنا مسرورين لأننا وجدنا غرفتين قد أعدتا لنا بشكل جيد إلى حد ما ووضعت فيهما المائدة، وجلسنا إليها وتناولنا الطعام بشهية طيبة جداً. ونمنا نوما هنيئا، واستيقظنا في الصباح على صوت المطارق والأغاني المبهجة لمستعمرتنا الصغيرة،

ورأى المنفيون المساكين شروق الشمس بقلق أقل من قلق سيد التويلري[47] الذي كان حينئذ مهموما بالعالم كله.[48]

[47] Tuileries

[48] Céleste de Chateaubriand, cahier rouge, In Un complément aux Mémoires d’outre-tombe, préface et note par Joseph Le Gras, Jonquière éditeur, Paris, pages 25 à 28.

.8.

هوس المطالعة [49]

ستندال 1783 ـ 1842

...عندما اقترب من مصنعه، نادى الأب «سوريل» على جوليان بصوته الجهوري؛ ولم يجبه أحد. لم ير سوى أبنائه الكبار، مثل العمالقة المسلحين بفؤوس ثقيلة، وهم يربعون جذوع الأشجار التي كانوا على وشك نشرها. وبينما كانوا مشغولين بمتابعة العلامة السوداء على قطعة الخشب، كانت كل ضربة من فأسهم تفصل بين شظايا ضخمة. لم يسمعا صوت والدهما. وعندما دخل السقيفة، بحث عبثاً عن جوليان في المكان الذي كان ينبغي أن يحتله، بجانب المنشار.

. لقد رآه على ارتفاع خمسة أو ستة أقدام إلى الأعلى، وهو يتوسّط إحدى قطع السقف. وبدلاً من أن يراقب بانتباه حركة الآلية كلها، كان جوليان يقرأ. ولم يكن هناك ما هو أكثر من ذلك مما لا يتعاطف معه «سوريل» العجوز، فقد كان من الممكن أن يغفر لجوليان بنيته النحيلة التي لا تلائم العمل الشاق والمختلفة جداً عن بنية من هم أكبر منه سناً؛ ولكن هوس القراءة هذا كان بغيضاً بالنسبة له، فهو لم يكن يستطيع أن يقرأ بنفسه.

وعبثاً نادى جوليان مرتين أو ثلاثاً. كان اهتمام الشاب الصغير بكتابه، أكثر بكثير من ضجيج المنشار، يمنعه من سماع صوت والده الرهيب. وأخيراً، وعلى الرغم من كبر سنه، قفز والده بخفة على الشجرة التي كان يتم نشرها، ومن هناك على

[49] Stendhal, Le Rouge et le Noir (1830)

العارضة المتقاطعة التي تدعم السقف. ثم تلقّى ضربة عنيفة جعلت الكتاب الذي كان يحمله جوليان يطير في المجرى المائي؛ ثم تلقّى ضربة ثانية لا تقل عنفاً على شكل قلنسوة أفقدته توازنه. وكان على وشك أن يسقط على ارتفاع اثني عشر أو خمسة عشر قدماً إلى الأسفل، في وسط عتلات الآلة التي كانت تعمل، الأمر الذي كان سيؤدي إلى كسره، ولكن والده أمسكه بيده اليسرى أثناء سقوطه: - حسناً، أيها التافه الكسول، هل ستظل تقرأ كتبك اللعينة وأنت في نوبة المنشار؟ اقرأها في المساء، عندما تضيع وقتك عند الكاهن، فهذا هو الوقت المناسب .

اقترب جوليان من موقعه الرسمي بجانب المنشار، على الرغم من أنه كان مذهولاً من قوة الضربة وكان مضرّجاً بالدماء. كانت الدموع في عينيه، ليس من الألم الجسدي بقدر ما كانت دموعه تنهمر من فقدان كتابه المحبوب.

"انزل أيها الحيوان، حتى أتمكن من التحدث معك. كان ضجيج الآلة لا يزال يمنع جوليان من سماع هذا الأمر. وقف والده الذي كان قد نزل، ولم يكن يريد أن يتكبد عناء العودة إلى الآلة، فذهب وأحضر عموداً طويلاً لقطع الجوز، وضربه به على كتفه. وبمجرد أن أصبح جوليان على الأرض، دفعه العجوز «سوريل» بخشونة أمامه نحو المنزل. قال الشاب لنفسه: "الله وحده يعلم ماذا سيفعل بي!". وفي أثناء مروره نظر بحزن إلى الجدول الذي سقط فيه كتابه، وهو الكتاب الذي كان يحبه أكثر من أي شيء آخر، وهو كتاب "ميموريال دي سانت هيلين".

كانت وجنتاه قرمزيتين وعيناه متجهمتين. كان شاباً صغيراً في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، ضعيف المظهر، ذو ملامح غير منتظمة ودقيقة وأنف مائل. من وكانت عيناه السوداوان الكبيرتان اللتان كانتا في لحظات الهدوء تنبئان في لحظات الهدوء عن التأمل والنار، كانتا في هذه اللحظة متحركتين بتعبير الكراهية الأكثر شراسة. كان شعره البني الداكن، الذي كان منخفضاً جداً، يمنحه جبيناً صغيراً، وفي لحظات الغضب كان يبدو في هذه اللحظة لئيماً. ومن بين الأصناف التي لا تحصى من الفراسة البشرية، ربما لا يوجد ما هو أكثر تميزاً من ذلك. فقد كان خصره النحيل

الممشوق متين البنية ينم عن خفة أكثر مما ينم عن قوة. فمنذ شبابه المبكر، أوحى إلى أبيه منذ شبابه الأول أن هواءه شديد التأمل وشحوبه الشديد قد أوحى إلى أبيه أنه لن يعيش، أو أنه سيعيش ليكون عبئاً على أسرته. وكان الجميع في البيت يحتقرونه ويكرهونه ويكرهون إخوته ووالده؛ وكان يُضرب دائماً في مباريات الأحد وفي الساحة العامة.

.9.

مقتطفات من البؤساء[50]

صورة ڤافروش

فيكتور هيقو 1802 ـ 1885

كان هناك صبي صغير يتراوح عمره بين الحادية عشرة والثانية عشرة في شارع المعبد وفي منطقة "شاتو دو" [51] أي قصر الماء، كان يمكن أن يكون قد حقق تماماً المثل، لو لم يكن قلبه، مع ضحكات سنّه التي لا تفارق شفتيه، قلباً مظلماً وفارغاً تماماً. كان هذا الطفل يلبس بنطلوناً رجالياً، ولكنه لم يحصل عليه من أبيه، وقميصاً نسائياً، ولكنه لم يحصل عليه من أمه. وَقَدْ أَلْبَسَهُ بَعْضُ النَّاسِ خِرَقًا رَثَّةً لِلصَّدَقَةِ. وَكَانَ لَهُ أَبٌ وَأُمٌّ. وَلَكِنَّ أَبَاهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِيهِ، وَأُمَّهُ لَمْ تُحِبَّهُ ولم تسأل عنه يوما. كان واحدًا من أولئك الأطفال الذين يستحقون الشفقة بين كل من له أب وأم وهو يتيم دون يتم.

لم يشعر هذا الطفل بأفضل مما شعر به في الشارع. لقد ركله والداه إلى الحياة ركلةً واحدةً فخرج إليها وقد أخذ في طيرانه ببساطة. كان صبيًا صاخبًا، شاحبًا، رشيقًا، يقظًا، متيقظًا، ساخرًا، ذا هواء حيويّ مملوء به. كان يجيء ويذهب، ويغني، ويلعب، ويخدش الجداول، ويطير قليلا، ولكن كالقطط والعصافير، مرحا،

[50]Les Misérables (Troisième partie, livre premier, chapitre XIII) de Victor Hugo

[51] Château-d'Eau

يضحك إذا دعي بالعدو، ويغضب إذا دعي بالمارق. لم يكن له مأوى ولا خبز ولا نار ولا حب؛ لكنه كان سعيدًا لأنه كان حرًا وما أثمن الحرية !.

وعندما يكون هؤلاء المساكين رجالاً فإن حجر الرحى في النظام الاجتماعي يكاد يقابلهم دائماً ويسحقهم سحقا، ولكن ما داموا أطفالاً فإنهم يهربون. ومع ذلك فقد كان يحدث أحياناً أن يقول هذا الطفل المنبوذ، كل شهرين أو ثلاثة: انظروا، أنا ذاهب لرؤية أمي! ثم كان يغادر الشارع الكبير والسيرك وبورت سان مارتان وينزل إلى رصيف الميناء ويعبر الجسور ويذهب إلى الضواحي ويصل إلى حيث يريد... إلى أين؟ بالضبط عند كوخ "غوربو."52

...وكان هؤلاء الذين يعيشون في الكوخ أكثر بؤساً منه، أسرة مكونة من أربعة أفراد، الأب والأم وابنتان قد كبرتا بالفعل، وكان أربعتهم يعيشون في نفس الكوخ، وهي إحدى تلك الزنزانات التعيسة. ولم تكن لهذه الأسرة للوهلة الأولى ما يميّزها سوى عوزها الشديد، وكان الأب عندما استأجر الغرفة قد قال إن اسمه "جندريت". وبعد مرور بعض الوقت على انتقاله إلى هذه الغرفة، التي كانت تبدو، إذا ما استعرنا تعبيرا لا ينسى من المستأجرة الرئيسية، وكأنها مدخل إلى لا شيء على الإطلاق، قال هذا "جندريت" لهذه المرأة التي كانت، مثل سلفها، الحمال أيضا وكانت تكنس الدرج:

- أمي، إذا جاء أحد بالصدفة يسأل عن بولندي أو إيطالي، أو ربما إسباني، فإنه أنا.

كانت هذه العائلة هي عائلة الحافي الصغير السعيد. كان يصل فيجد الفقر والضيق، والأدهى من ذلك أنه لا يجد ابتسامة واحدة؛ برودة في القلوب وجفوة في النفوس. وعندما كان يدخل، كانوا يسألونه:

---

[52] Gorbeau.

- من أين أنت؟ كان يجيب:

- من الشارع. وعندما يخرج، كانوا يسألونه:

- إلى أين أنت ذاهب؟ كان يجيب:

- إلى الشارع. وكانت أمه تقول له:

- ماذا تفعل هنا إذن؟

كان هذا الطفل يعيش في هذا الغياب عن الحنان مثل الحشائش الشاحبة التي تنمو في الأقبية. لم يكن يتألم لكونه هكذا ولم يكن يلوم أحداً. لم يكن يعرف بالضبط كيف يجب أن يكون الوالدين.

لقد نسينا أن نذكر أن هذا الطفل كان يُعرف في شارع المعبد باسم "ڤافروش" الصغير. لماذا كان يدعى "ڤافروش"؟ ربما لأن والده كان يدعى "جوندريت".53 يبدو أن كسر الخيط هو غريزة بعض العائلات البائسة.

[53] Jondrette

.10.

الحلويات الصغيرة[54]

ألفونس دوداي 1840 ـ 1897

الفصل الأول

في **ذلك** الصباح، وكان يوم أحد، نادى الحلواني في شارع دي تورين على صانعه وقال له:

" يبدو أن الثوار قد دخلوا باريس."

فوضع الصبي الذي لم يكن يفهم شيئاً في السياسة، الفطائر الساخنة في صحن، ووضع الصحن في منديل أبيض، ووضع كل شيء في مشبكه، وانطلق مسرعاً إلى "إيل سان لوي" حيث كان يقيم السيد "بونيكار".[55] وكان الصباح رائعاً، وهو أحد الأيام المشمسة لشهر مايو العظيم التي تملأ محلات الفاكهة بباقات من أزهار الليلك والكرز. وعلى الرغم من إطلاق النار من بعيد ونداءات الأبواق في زوايا الشوارع، فقد احتفظت منطقة ماريه القديمة كلها بسلامها. كان الجو يوم الأحد يعبق بالأجواء المنعشة، وجولات الأطفال في الساحات، والفتيات الجميلات يلعبن أمام الأبواب، وتلك الظلال البيضاء الصغيرة التي كانت تهرول على الرصيف

---

[54] Alphonse Daudet, Contes du lundi, LES PETITS PÂTÉS

LES PETITS PÂTÉS

[55] M. Bonnicar

المهجور برائحة المعكرونة الساخنة تضيف إلى مظهر الأحد الساذج الذي كان يبدو عليه صباح يوم المعركة. بدا أن كل صخب الحي قد امتد إلى شارع ريفولي. كانت البنادق تُنقل إلى الداخل، والناس يعملون على المتاريس؛ كانت هناك مجموعات في كل خطوة، والحرس الوطني مشغول بالعمل. لكن الحلواني الصغير لم يفقد صوابه. لقد اعتاد هؤلاء الأطفال على السير بين الحشود وصخب الشارع! إنه في أيام المهرجان وأيام القطار، وفي زحمة الزحام في أوائل كانت متعة حقيقية أن ترى القضيب الأبيض الصغير وهو ينسج داخل وخارج "القبعات العسكرية"[56] والحراب، متجنبًا الصدمات، متأرجحًا بلطف، وأحيانًا بسرعة كبيرة، وأحيانًا ببطء قسري حيث لا يزال بإمكانك أن تشعر بالرغبة الكبيرة في الجري. ماذا كانت تفعل به المعركة! كان المهم أن يصل إلى منزل "بونيكار" بحلول الظهر، وأن يأخذ بسرعة البقشيش الصغير الذي كان ينتظره على الرف في غرفة الانتظار.

وفجأة حدث اندفاع رهيب في الحشد، واندفع الحرس الجمهوري في مسيرة وهم يغنون. كانوا أطفالاً في الثانية عشرة أو الخامسة عشرة من العمر، يرتدون سراويل مزينة وأحزمة حمراء وأحذية كبيرة، وكانوا فخورين بملابسهم كجنود كما لو كانوا يركضون في طين الجادة في المرفع، مرتدين قبعات ورقية ومظلات وردية بشعة. هذه المرة، في خضم التدافع، واجه طاهي المعجنات الصغير صعوبة كبيرة في الحفاظ على توازنه؛ ولكنه كان قد قام هو و"فطائره" بالعديد من الانزلاقات على الجليد، والعديد من ألعاب الحجلة في وسط الرصيف، حتى أن الفطائر الصغيرة كانت خائفة. ومن سوء الحظ أن كل هذا الحماس، والغناء، والأحزمة الحمراء، والإعجاب، والفضول، جعل صانع الفطائر يرغب في أن يمضي أبعد من ذلك قليلاً في مثل هذه الصحبة الرائعة؛ وبعد أن اجتاز دار البلدية وجسور "إيل سان لوي"

56

[57] دون أن يدرك ذلك، وجد نفسه منقولا إلى حيث لا يعلم إلى أين في غبار ورياح هذا السباق المجنون.

الفصل الثاني

على مدى خمسة وعشرين عاماً على الأقل، كان من عادة عائلة "بونيكار" تناول هذا النوع من الحلويات كل يوم أحد. في منتصف النهار بالضبط، عندما كانت العائلة بأكملها – صغارًا وكبارًا – مجتمعة في غرفة المعيشة، كان رنين جرس الباب المبهج والمفعم بالحيوية يجعل الجميع يقولون: ." آه! ها هو طباخ المعجنات ". ثم، مع جلبة كبيرة من الكراسي وضجيج من الضحك أمام الطاولة الموضوعة على الطاولة، كان كل هؤلاء البورجوازيين السعداء يستقرون حول المعجنات الصغيرة المكدسة بشكل متناسق على الموقد الفضي.

في ذلك اليوم، ظل جرس الباب صامتاً. وحدق السيد "بونيكار" في ساعته غاضباً، وهي ساعة قديمة يعلوها مالك الحزين المحشو الذي لم يتحرك إلى الأمام أو الخلف طوال حياته. وكان الأطفال يتثاءبون عند النوافذ، ويتطلعون إلى زاوية الشارع التي كان الجزار يلتفت إليها عادة. وتكاسلت الأحاديث؛ وكان الجوع الذي يزداد عمقاً في الظهيرة بضرياته الاثنتي عشرة المتكررة، يجعل غرفة الطعام تبدو كبيرة جداً، حزينة جداً، على الرغم من الأواني الفضية العتيقة التي تلمع على مفرش المائدة الدمشقي، والمناديل المطوية في كل مكان في أقماع بيضاء صغيرة متصلبة.

[57] l'île Saint-Louis,

ولكن السيد "بونيكار" رفض بعناد أن يجلس إلى المائدة دون أن يتناول الفطائر؛ وعزم غاضباً من "سورو"[58] على أن يذهب ليرى بنفسه ما معنى هذا التأخير الذي لم يسمع به أحد. وبينما هو خارج وهو يلوح بعصاه في غضب، حذره بعض الجيران:

وفي غمرة الحماسة التي كانت تغمره تكلم وحده، فرأى نفسه هناك في وسط الدكان يضرب بعصاه على أحجار الأعلام، ويهز زجاج النافذة وأطباق "البابا س".[59] قطع الحاجز الموجود على "بونت لويس فيليب" [60]غضبه إلى قسمين. كان هناك بعض الفدائيين ذوي الملامح الشرسة يتمرغون في الشمس على الأرض العارية.

إلى أين أنت ذاهب أيها المواطن؟

وأوضح المواطن مأربه؛ لكن قصة الفطائر الصغيرة بدت مريبة، ولا سيما أن السيد "بونيكار" كان يرتدي معطفه الجميل الذي يرتديه يوم الأحد ونظارته الذهبية ومظهره الرجعي القديم.

قال "الفدراليون": "إنه مخبر، يجب أن نرسله إلى "ريجولت"[61].

وعندئذ دفع أربعة من الرجال ذوي النية الحسنة، الذين لم يغضبوا من ترك المتراس، الرجل المسكين الغاضب أمامهم بأعقاب بنادقهم.

ولست أدري كيف أحصوا عددهم، ولكن بعد نصف ساعة تم جمعهم جميعاً في الصف وتركوا لينضموا إلى طابور طويل من السجناء الذين كانوا على أهبة

58 Sureau

59 babas

60 pont Louis-Philippe

61 Rigault.

الانطلاق إلى فرساي. احتج السيد "بونيكار" أكثر فأكثر، ورفع عصاه وروى قصته للمرة المائة. ولسوء الحظ، بدا اختراع الفطائر الصغيرة هذا سخيفاً جداً، وغير معقول وسط كل هذا الاضطراب، حتى أن الضباط اكتفوا بالضحك.
لا بأس، لا بأس، لا بأس، أيها الشاب العجوز... يمكنك أن تشرح نفسك في فرساي.
وعبر جادة "الشانزليزيه" التي كانت لا تزال بيضاء بدخان الطلقات النارية، كان الرتل يهتز بين صفين من الفرسان.

الفصل الثالث

سار السجناء خمسة خمسة في صفوف متراصة. ولمنع القافلة من التشتت أجبروا على الالتحام بالسلاح؛ وكان القطيع البشري الطويل، وهو يدوس غبار الطريق، يصدر صوتاً يشبه صوت عاصفة ممطرة عظيمة.
ظن بونيكار سيئ الحظ أنه كان يحلم. وكان يتصبب عرقاً ويلهث، وقد أذهله الخوف والتعب، فراح يجر نفسه في ذيل الرتل بين عجوزين تفوح منهما رائحة البنزين والبراندي: وكان الناس من حوله يظنون أنه قد أصيب بالجنون عندما سمعوا عبارة (باتيسييه، بتي باتيه) [62]("طباخ المعجنات، فطائر صغيرة")، التي كانت تتكرر دائماً في لعناته.
والحقيقة أن المسكين كان قد فقد عقله. ففي الطريق إلى الأعلى، وفي الطريق إلى الأسفل، عندما خفت صفوف القافلة قليلاً، ألم يتخيل أنه رأى هناك، في الغبار الذي ملأ الفجوات، السترة البيضاء ومشبك شعر الصبي الصغير من سورو؟ وذلك عشر مرات على طول الطريق! ومرت تلك الومضة البيضاء الصغيرة أمام

[62] : « Pâtissier, petits pâtés »,

عينيه كأنها تسخر منه، ثم اختفت وسط زحمة البزات والملابس الرسمية والخرق.

وأخيراً، عند الغسق، وصلنا إلى فرساي؛ وعندما رأى الجمهور هذا البرجوازي العجوز ذو النظارات الأشعث الأغبر المترب المتعب، اتفق الجميع على أنه يبدو كالأشرار. قالوا

"إنه فيليكس بيات... لا! إنه ديليسكلوز".[63]

وواجه الصيادون المرافقون صعوبة كبيرة في إيصاله بأمان إلى فناء حديقة البرتقال. وهناك فقط استطاع القطيع المسكين أن يتفرقوا ويستلقوا على الأرض ويلتقطوا أنفاسهم. نام بعضهم، وشتم بعضهم، وسعل بعضهم، وبكى بعضهم، ولكن بونيكار لم ينم ولم يبك. وكان جالساً على حافة المنحدر، ورأسه بين يديه، وقد مات ثلاثة أرباعه من الجوع والخجل والإرهاق، واستعاد في ذهنه ذلك اليوم التعيس، وخروجه من هناك، وضيوفه القلقين، والمائدة التي أعدت حتى المساء وما زالت تنتظره، ثم الإذلال والإهانات والضرب بالعصا، وكل ذلك من أجل طاهٍ غير دقيق في المعجنات.

"وفجأة قال صوت قريب منه: (مسيو بونيكار، ها هي ذي حلوياتك الصغيرة!) وفجأة قال صوت قريب منه؛ ورفع الرجل الطيب رأسه فدهش تماماً ليرى الصبي الصغير من آل "سورو"، الذي كان قد قبض عليه مع عساكر الجمهورية، يكشف عن "التورتيير" المخبأ تحت مئزره الأبيض ويقدمه له. وهكذا، وعلى الرغم من الشغب والسجن، كان السيد "بونيكار" في ذلك الأحد، كما في كل الآحاد الأخرى، يأكل في ذلك الأحد، كما في كل الآحاد الأخرى، فطائر صغيرة.

[63] « C’est Félix Pyat… Non ! c’est Delescluze. »

.11.

حانة لاسوموار[64]

ايميل زولا 1840 ـ 1902

" في هذا المقتطف من الفصل الثاني من رواية "لاسوموار"، تُركت جيرفيز مع طفليها من قبل حبيبها لانتير. يحاول كوبيو، وهو عامل شريف يحب جيرفايز، إغوائها. في ملهى يسمى« L'Assommoir » ، تتحدث جيرفيز وكوبو عن تاريخ كل منهما وخططهما للمستقبل..."

امتلأت "لاسوموار"... وكان الشاربون واقفين جميعاً وأيديهم متشابكة على بطونهم أو ملقاة خلف ظهورهم، وشكلوا جماعات صغيرة متراصة متجمعة معاً، وكانت هناك سرايا بالقرب من البراميل كان عليها أن تنتظر ربع ساعة قبل أن تطلب دورتها من الأب كولومب. "أوه!" قالت بنصف صوتها: "أوه!" ثم استرسلت في سرد كيف كانت تشرب "الأنيسيت"[65] مع أمها في بلاسان. ولكنها كادت أن تموت منه ذات يوم، وكان ذلك يشعرها بالاشمئزاز، فلم تعد تستطيع أن تنظر إلى المسكرات " وأضافت وهي تشير إلى كأسها: "لقد أكلت برقوقي؛ فقط

[64] Emile Zola, L'Assommoir (1877)

[65] l'anisette

سأترك الصلصة لأنها ستؤذيني." كوبو"[66] أيضاً لم يستطع أن يفهم كيف يمكن للناس أن يشربوا كؤوساً كاملة من "ماء الحياة" [67].

لم يكن البرقوق هنا أو هناك سيئًا. أما بالنسبة للزاج و"الأفسنتين" [68]وغيرهما من الخمر غير المرغوب فيه، فمرحبًا! ومهما مزح معه الرفاق، فقد كان يبقى عند الباب عندما يدخل هؤلاء السكارى بمناجم الفلفل. وكان بابا "كوبو"[69] الذي كان عاملاً في الزنك مثله، قد هشم رأسه على الرصيف في شارع "كوكونار"، عندما سقط ذات يوم من مزراب الشارع رقم 25 وهذه الذكرى، في العائلة، جعلتهم جميعاً حكماء. أما هو فحين مر في شارع "كوكونار" ورأى الساحة، كان يفضل أن يشرب الماء من الجدول على أن يبتلع برميلاً مجاناً عند تاجر الخمر. واختتم بهذه الجملة: "في مهنتنا، تحتاج إلى أرجل قوية.

في تجارتنا تحتاج إلى ساقين قويتين" التقطت "جيرفايز"[70] سلتها مرة أخرى. غير أنها لم تنهض من مكانها وأمسكتها في حجرها وهي تنظر إليها بعينين شاردتين حالمتين، وكأنما كانت كلمات العامل الشاب توقظ فيها أفكاراً بعيدة عن الوجود. ثم قالت مرة أخرى، ببطء ودون أي انتقال واضح: "يا إلهي! أنا لست طموحَة، ولا أطلب الكثير.. مثلي هو أن أعمل في هدوء، وأن آكل الخبز، وأن يكون لي مكان نظيف للنوم، سرير وطاولة وكرسيين، لا أكثر... آه! أود أيضًا أن أربي أطفالي وأجعل منهم أشخاصًا صالحين إن أمكن... هناك مثل أعلى آخر، وهو ألا أتعرض للضرب،

6666 Coupeau

67 eau-de-vie

68 vitriol, à l'absinthe

69 Coquenard

70 Gervaise

إذا تزوجت مرة أخرى؛ لا، لا أحب أن أتعرض للضرب... وهذا هو كل شيء، كما ترى، هذا كل شيء..."

فبحثت وتساءلت عن رغباتها، ولكنها لم تعد تجد ما يغريها .

ومع ذلك، وبعد لحظة من التردد، استأنفت قائلة: "نعم، في النهاية يمكن أن ترغب في الموت في الفراش... أما بالنسبة لي، فبعد أن عملت بجد طوال حياتي، يسعدني أن أموت في فراشي، في بيتي. ونهضت. وكان "كوبيو"، الذي وافق بحرارة على رغباتها، قد استيقظت بالفعل، وكانت قلقة بشأن الوقت. ولكنهما لم يخرجا على الفور؛ وكان الفضول يدفعها إلى الذهاب والنظر، في الخلف، خلف بوابة البلوط، إلى المعصرة النحاسية الحمراء الكبيرة التي كانت تعمل تحت الزجاج الشفاف في الفناء الصغير؛ وشرح لها عامل الزنك الذي تبعها كيف تعمل، مشيراً إلى مختلف أجزاء الجهاز، ومبيناً لها المعصرة الضخمة التي يتساقط منها تيار صاف من الكحول.

بدت الفتاة، بأوعيتها الغريبة الشكل، ولفائف أنابيبها التي لا نهاية لها، كئيبة؛ ولم يكن يتصاعد منها نفخة دخان؛ وكان المرء يسمع بالكاد نفساً داخلياً، وهمهمة تحت الأرض؛ وكان الأمر أشبه بعمل ليلي يقوم به في وضح النهار، عامل بليد قوي أخرس. ثم استولت على "جيرفايز" رعشة فارتجفت، وتراجعت إلى الوراء؛ وحاولت أن تبتسم وهي تتمتم: "إنه أمر سخيف، هذه الآلة تصيبني بالبرد، هذه الآلة... الشراب يجعلني أشعر بالبرد...".

.12.

حكاية حقيقية[71]

قي دي موباسان 1850 ـ 1893

كانت تهب في الخارج رياح خريفية هادرة، رياح خريفية تعوي وتهرول، من تلك الرياح التي تقتل آخر أوراق الأشجار وتحملها إلى السحاب، وكان الصيادون ينهون عشاءهم وهم لا يزالون منتعلين أحذيتهم حمرًا مفعمة بالحيوية والنشاط. كانوا نصف أسياد "نورمان" ونصف رعاة ونصف مزارعين، أغنياء نشيطين مهيئين لكسر قرون الثيران عندما يوقفونها في المعارض. كانوا قد اصطادوا طوال النهار في أرض السيد "بلوندل"، عمدة "إيبارفيل"، وكانوا الآن يتناولون عشاءهم حول المائدة الكبيرة في ما يشبه قلعة المزرعة التي يملكها مضيفهم.

كانوا يتحدثون كالعواء، ويضحكون كالوحوش الضارية، ويشربون كالصهاريج، وأرجلهم ممدودة ومرافقهم على مفرش المائدة، وعيونهم تلمع تحت لهب المصابيح التي يسخنها موقد هائل يلقي بريقاً دموياً على السقف؛ وكانوا يتحدثون عن الصيد والكلاب. ولكنهم كانوا، في الوقت الذي كانت فيه أفكار أخرى تخطر على بال الرجال، نصف شاحبين، وكانوا جميعاً يحدقون في فتاة قوية البنية ممتلئة الخدود تحمل الأطباق الكبيرة المحملة بالطعام في قبضتيها الحمراوين.

وفجأة صاح شيطانٌ كبيرٌ ذاك الذي أصبح جراحًا بيطريًا بعد أن درس ليصبح قسّا: إنها حبة حلوى كبيرة لم تأت عليها الحشرات المفسدة ! وانطلقت ضحكة مدوية.

---

[71] Guy de Maupassant, contes du jour et de la nuit.

ثم رفع السيد "دي فارنيتو"، وهو من النبلاء القدامى الذين انسلخوا من الحياة النبيلة وكان قد أسرف في شرب الخمر، رفع صوته:

- أنا الذي كانت لي قصة مضحكة مع فتاة من هذا القبيل! هنا، يجب أن أخبركم عنها. وكلما فكرت فيها تذكرت "ميرزا"، كلبتي التي بعتها للكونت "دوسونيل" والتي كانت تعود كل يوم، بمجرد أن أطلق سراحها، لأنها لم تستطع أن تتركني. وفي النهاية غضبت وتوسلت إلى الكونت أن يبقيها مقيدة بالسلاسل، أتعرف ماذا فعلت تلك الكلبة؟ لقد ماتت من الحزن.

ولكن، لكي أعود إلى خادمتي، فإليك القصة:

- كنت في الخامسة والعشرين من عمري في ذلك الوقت وكنت أعيش كنادل في قصر "فيلبون". هل تعلمون عندما تكون شاباً يافعاً ولديك دخل، وتقع في المشاكل كل مساء بعد العشاء، وعيناك تراقب كل شيء!. سرعان ما اكتشفت شابة كانت تعمل لدى "ديبولوتو من كوفيل". كنت تعرفين "ديبولتو" جيداً، أليس كذلك يا "بلونديل"! باختصار، لقد أغرتني تلك الوغدة جيدا، حتى أنني في أحد الأيام ذهبت لمقابلة سيدها واقترحت عليه صفقة. هو يعطيني جاريته وأنا أبيعه فرسي السوداء التي كان يريدها منذ سنتين تقريباً. فمدّ يده إليّ قائلاً: "صافحني يا سيد دي فارنيتو". وتمت الصفقة، وجاءت الفتاة الصغيرة إلى القصر وأخذت فرسي إلى" كوفيل" بنفسي، وتركتها مقابل ثلاثمائة "إيسكوس."

في البداية، سارت الأمور كالساعة. لم يشك أحد في أي شيء؛ كل ما في الأمر أن روز كانت تحبني أكثر من اللازم بالنسبة لي. كما ترى، تلك الطفلة لم تكن أي شخص عادي. لابد أنها كان لديها شيء غير عادي في عروقها. باختصار، كانت تعشقني. لقد كانت تتملقني وتداعبني وتشتمني وتفعل كل الأشياء اللطيفة لتجعلني أفكر. كنت أقول لنفسي: لا يجب أن يستمر هذا الأمر وإلا وقعت في حبها! لكنني لا أنخدع بسهولة. أنا لست من أولئك الأشخاص الذين يمكنك تقبيلهم والهروب. في النهاية وقعت عيني عليها عندما أخبرتني أنها سمينة.

تيك توك... كان الأمر كما لو كنت قد أصبت بطلقتين في الصدر. وقبّلتني وضحكت ورقصت، كانت مجنونة! لم أقل شيئاً في اليوم الأول، ولكني في أثناء الليل حاورت نفسي. وقلت: هذا هو الأمر؛ ولكن علينا أن نتفادى الضربة، وأن نقطع السلك، فقد آن الأوان. لقد كان لي أبي وأمي في "بارنفيل"، وكانت أختي متزوجة من الماركيز "ديسبار" في "روليبك" على بعد فرسخين من "فيلبون." فلا سبيل للهزل في موضع الجد ولكن كيف يمكنني الخروج منها؟ إذا غادرت المنزل، سيشك الناس في شيء ما ويثرثرون. وإذا احتفظت بها، فسرعان ما سنرى باقة الزهور؛ وبعد ذلك، لن أستطيع أن أتركها تذهب هكذا.

وتكلمت مع عمي البارون "دي كريتويل"، وهو أرنب عجوز عرف أكثر من واحدة، وطلبت منه النصيحة. فأجابني في هدوء:

- يجب أن تزوجها يا ولدي فانتفضت:

- أزوجها يا عمي، ولكن ممن؟ فهز كتفيه في رفق:

- ممن تحب، فهذا شأنك أنت لا شأني. لقد فكرت في ذلك لثمانية أيام كاملة، وأخيراً قلت لنفسي:

- إنك على حق يا عمي.

وبدأت في تفكير دقيق وبحث عميق وذات مساء قال لي قاضي الصلح الذي كنت أتناول العشاء معه للتو: لقد ارتكب ابن الأم "بوميل" للتو حماقة مرة أخرى؛ وسينتهي به الأمر إلى ما لا تحمد عقباه، ذلك الفتى. كانت الأم "بوميل" امرأة عجوز داهية لم يكن شبابها قد ترك الكثير مما هو مرغوب فيه. ومن المؤكد أنها كانت تود أن تبيع روحها وابنها الوغد من أجل أي شيء فذهبت لرؤيتها وبكل لطف، وأفهمتها الموقف، وبينما كنت أحتار في تفسيري، سألتني فجأة:

- ماذا ستعطيها هذه الفتاة الصغيرة؟ كانت العجوز ذكية، ولكنني لم أكن أحمقاً، فقد أعددت قضيتي. كنت أملك ثلاث قطع من الأراضي المفقودة بالقرب من "ساسفيل"، وكانت هذه الأراضي تابعة لمزارعي الثلاث في "فيلبون". وكان

المزارعون يشتكون دائماً من بعد المسافة؛ فاستوليت على هذه الحقول الثلاثة، ومجموعها ستة أفدنة، ولما كان المزارعون يشتكون من طول المسافة فقد أعدت إليهم جميع ما كان لهم من إتاوات الدواجن حتى نهاية عقد الإيجار. وبهذه الطريقة، مر الأمر. ثم بعد أن اشتريت قطعة أرض من جاري السيد "دومونتيه"، اشتريت كوخاً بنيت عليه كوخاً بمبلغ خمس عشرة مائة فرنك. وبهذه الطريقة، كنت قد بنيت عقاراً صغيراً لم يكلفني الكثير، وأعطيته للفتاة كمهر.

واشتكت العجوز من أن ذلك لم يكن كافياً، ولكني وقفت على موقفي وافترقنا دون أن نصل إلى نتيجة. وفي فجر اليوم التالي، جاء الفتى لرؤيتي. بالكاد تذكرت وجهه. فلما رأيته اطمأننت، فلم يكن سيئ المظهر بالنسبة لفلاح، ولكنه بدا لي فظاً غليظاً، وأخذ الأمر من بعيد، وكأنه جاء ليشتري بقرة، عندما اتفقنا، أراد أن يرى العقار، وانطلقنا عبر الحقول. وأقامني الوغد في الأرض ثلاث ساعات لا بأس بها؛ فعاينها وقاسها وأخذ كتلاً منها وسحقها بين يديه، كأنه خاف أن يغش في البضاعة. وبما أن المزرعة لم تكن مسقوفة بعد، فقد أصرّ على تسقيفها بالقرميد بدلاً من القش، لأنه يتطلب صيانة أقل! ثم قال لي: - ولكنك ستعطيني الأثاث؟ فاعترضت: - كلا، لا على الإطلاق، يكفي أن أعطيك مزرعة؛ فضحك: - أخشى أن يكون الأمر كذلك، مزرعة وطفل؛ فخجلت رغمًا عني، ثم قال: - ولكنك ستعطيني الأثاث؟ وتابع: - هيا، ستعطيني السرير والطاولة والذاكرة وثلاثة كراسي وأواني الفخار، أو لا شيء على الإطلاق، فوافقت، وها نحن أولاء في طريق عودتنا. لم يكن قد قال كلمة واحدة عن الفتاة. ولكنه سألني فجأة بنظرة خبيثة محرجة: - ولكن إذا مت فإلى من سيذهب كل هذا ؟ أجبته:

- لك طبعا. كان هذا كل ما أراد أن يعرفه طوال الصباح. مدّ يده إليّ على الفور بحركة راضية. لقد كنا متفقين على ذلك، أما أنا فقد واجهت صعوبة في اتخاذ قرار بشأن "روز". لقد جرّت نفسها على قدمي وهي تبكي وتردد: (أنت الذي تقترح هذا، أنت الذي تقترح هذا! قاومت لأكثر من أسبوع، رغم كل ما كنتُ أطلبه منها من

أسباب ودعوات. النساء غبيات؛ بمجرد أن يسيطر الحب على عقولهن، لا يفهمن أي شيء. في النهاية غضبت وهددت بطردها. لكنها استسلمت تدريجيًا، بشرط أن أسمح لها بالقدوم لرؤيتي من وقت لآخر.
لقد اصطحبتها إلى الفندق بنفسي، ودفعت تكاليف المراسم وأقمت حفل الزفاف بأكمله. باختصار، لقد فعلت كل شيء بشكل صحيح. ثم: "مساء الخير يا أبنائي! لقد ذهبت لأقضي ستة أشهر مع أخي في تورين وعندما عدت علمت أنها كانت تأتي إلى القصر كل أسبوع لتسأل عني. ولم تكد تمضي ساعة واحدة على وجودي هناك حتى رأيتها تدخل حاملة طفلها بين ذراعيها. صدقوني إن شئتم، ولكن رؤية ذلك الطفل الصغير قد أثلج صدري. أما الأم، فقد كانت خراباً، هي هيكلاً عظمياً وظلاً. لقد كانت نحيفة وعجوزا، و يا للعجب، لم يكن الزواج يناسبها! سألتها بشكل ميكانيكي: " - ثم أخذت تبكي كالربيع، وتنشج وتنتحب، وتصرخ: لا أستطيع، لا أستطيع الاستغناء عنك الآن، أفضل الموت، لا أستطيع! أفضّل الموت، لا أستطيع! كانت تصدر ضوضاء شيطانية. فواسيتها بقدر ما استطعت، وعدت بها إلى البوابة، وعلمت أن زوجها كان يضربها وأن حماتها كانت تضايقها تلك البومة العجوز، وبعد يومين عادت. فأخذتني بين ذراعيها وجرّت نفسها على الأرض:
- اقتلني، لكنني لا أريد العودة إلى هناك.

هذا بالضبط ما كانت ستقوله "ميرزا" لو كانت قد تكلمت! بدأت تزعجني كل هذه الضجة، وغادرت لمدة ستة أشهر أخرى. عندما عدت... علمت أنها توفيت قبل ثلاثة أسابيع، بعد عودتي إلى القلعة... تمامًا مثل "ميرزا". وتوفي الطفل أيضاً بعد ثمانية أيام، أما الزوج، الوغد المجنون، فقد ورث ويبدو أنه قد أبلى بلاء حسناً منذ ذلك الحين، وهو الآن عضو مجلس المدينة. ثم أضاف السيد "دي فارنيتوت" ضاحكاً: (وما الفرق، فأنا الذي صنعت ثروة ذلك الرجل!) واختتم السيد

"سيجور" الجراح البيطري كلامه في وقار، وهو يرفع كأساً من "البراندي" إلى فمه: (كما تشاء، ولكنك لست بحاجة إلى نساء مثلهن!)

.13.

ألزاس ALZACE[72]!

ألفونس دوداي 1840 ـ 1897

قبل بضع سنوات، قمت برحلة إلى الألزاس، وهي من أعز ذكرياتي. ليست تلك الرحلة التي لم يبقَ منها سوى رؤى لبلدٍ قطعته القضبان وأسلاك التلغراف، بل رحلة سيراً على الأقدام، بحقيبة ظهر وعصا متينة ورفيق لم يكن كثير الكلام... يا لها من طريقة رائعة للسفر، وكيف أن كل ما رأيته في تلك الرحلة يبقى معك!

خاصة بعد أن أصبحت الألزاس الآن مسورة بسور كبير، فإن كل انطباعاتي عن تلك البلاد الضائعة تعود إليّ مع تلك النكهة غير المتوقعة للرحلات الطويلة عبر الأرياف الرائعة، حيث ترتفع الغابات كستائر خضراء فوق القرى الهادئة التي تغمرها الشمس، وحيث ترى عند منعطف في الجبل أبراج الأجراس، والمصانع التي تعبرها الجداول، والمناشر، والطواحين والنغمة المشرقة لزيّ مجهول يظهر فجأة من نضارة السهل الأخضر...
كل صباح، عند الفجر، كنا نقف على أقدامنا.
صاح النادل" :موسيه، موسيه، إنها الساعة الرابعة وبسرعة، قفزنا من الفراش، وبعد أن حزمنا حقائبنا، تلمسنا طريقنا على الدرج الخشبي الصغير الهش. في الطابق السفلي، قبل الانطلاق، تناولنا كأساً من شراب منعش في أحد مطابخ النزل

72 Alphonse Daudet Conte du lundi. Alsace

الكبيرة حيث تُشعل النار في وقت مبكر، مع تلك الرعشات من براعم الكرمة التي تجعلك تحلم بالضباب والنوافذ الرطبة. ثم انطلقنا!

ما هي أسماء كل تلك القرى الألزاسية الجميلة التي مررنا بها على طول الطريق؟ لا أستطيع أن أتذكر أي أسماء الآن، ولكنها جميعاً متشابهة إلى حد كبير، وخاصة في منطقة الرين العليا، وبعد أن مررنا بالعديد منها في أوقات مختلفة، يبدو لي أنني لم أرَ منها إلا واحدة؛ الشارع الرئيسي، والنوافذ الزجاجية الصغيرة ذات الأطر الزجاجية الملونة والمزينة بالقفزات والورود، والأبواب ذات الأقبية حيث يتكئ الرجال المسنون وهم يدخنون غليونهم الكبير، وحيث تنحني النساء لينادوا الأطفال على الطريق... في الصباح، عندما مررنا بها، كانت كلها نائمة. وبالكاد كنا نسمع صوت القش يتحرك في الإسطبلات أو الكلاب تلهث تحت الأبواب. على بعد فرسخين، كانت القرية تستيقظ. كان هناك صوت فتح المصاريع، وقرقعة الدلاء، وامتلاء الجداول؛ وكانت الأبقار تتوجه بكثافة إلى الحوض، وهي تضرب الذباب بأذنابها الطويلة. وبعد ذلك كانت القرية لا تزال على حالها، ولكن مع الصمت العظيم الذي يسودها في فترة ما بعد الظهيرة الصيفية، لا شيء سوى طنين النحل الذي كان يتتبع الأغصان المتسلقة إلى أعلى حافة الأكواخ، والأناشيد المنبعثة من المدرسة. وبين الفينة والأخرى، في نهاية الريف، كانت هناك زاوية صغيرة، لم تعد قرية، بل مقاطعة، منزل أبيض من طابقين عليه لوحة تأمين جديدة لامعة، أو لافتات كاتب العدل أو جرس طبيب. وأثناء مرورك، كان بإمكانك أن تسمع رقص الفالز على البيانو، نغمة قديمة الطراز قليلاً تنبعث من المصاريع الخضراء. ما زلت أتذكر بسعادة القرية الألزاسية في صباح يوم الأحد وقت القداس؛ الشوارع المهجورة، والبيوت الخالية مع بعض العجائز الذين يستمتعون بالشمس خارج أبوابها; والكنيسة الممتلئة، والنوافذ الزجاجية الملونة بالألوان الوردية الجميلة التي تتلون بألوانها الصامتة الجميلة تلك الشموع في وضح النهار، والأناشيد التي تسمع في نفثات أثناء مرورها، وصبي المذبح الذي يرتدي رداءً

قرمزيًا يعبر الساحة حاسر الرأس، وفي يده مبخرة ليحضر قداسًا من الخباز ...
أحيانًا كنا نمضي أيامًا دون أن ندخل قرية. وكنا نبحث عن الغابات والدروب المغطاة والغابات الصغيرة المريحة التي تجاور نهر الراين حيث تضيع مياهه الخضراء الجميلة في زوايا المستنقعات التي تعج بالحشرات. وبدا لنا النهر العظيم من بعيد ومن خلال شبكة الأغصان الرقيقة المترامية الأطراف، محملة بالقوارب المملوءة بالأعشاب المقطوعة من الجزر التي بدت هي نفسها كجزر صغيرة متناثرة يجرفها التيار. ثم كانت هناك القناة الممتدة من نهر الرون إلى نهر الراين، بحدودها الطويلة من أشجار الحور، وقد انضمت أطرافها الخضراء إلى المياه المألوفة الخاصة التي تسجنها ضفاف ضيقة. هنا وهناك، على الضفة، كوخ حارس القفل، وأطفال يركضون حفاة، وفي زخات الرغوة كانت قطارات خشبية عظيمة تتحرك ببطء إلى الأمام مستغرقة عرض القناة كله .آه من شمس يوليو الثقيلة، ومن الاستراحات الجيدة التي كنت أقضيها على جانب طريق بازل، مستلقين على طول الطريق في العشب الجاف في الخنادق الجافة، والحجل ينادي بعضه بعضاً من حقل إلى آخر، والطريق الرئيسي يشق قطاره الكئيب فوق رؤوسنا. كان هناك سجع الحوذي، وجرس الجراس وصوت الفأس، ومعول كاسر الحجارة، وعدو شرطي مسرعاً يخيف سرباً كبيراً من الأوز في المسير، والباعة المتجولون المرهقون تحت صناديقهم، وساعي البريد في جبة زرقاء مزركشة بالأحمر يترك الطريق الرئيسي فجأة ليسلك معبراً صغيراً تصطف على جانبيه أسيجة برية، حيث تشعر ببلدة صغيرة ومزرعة وحياة معزولة في نهاية الطريق.
وتلك الأشياء الجميلة غير المتوقعة في السفر سيراً على الأقدام، تلك الطرق المختصرة التي تجعل الرحلة أطول، تلك المسالك الخادعة التي تصنعها عجلات العربات ودوس الخيول التي تقودك إلى وسط حقل، والأبواب المكتومة التي لا تريد أن تفتح، والنزل الممتلئ، والأمطار، تلك الأمطار الغزيرة، تلك الأمطار الجيدة

في أيام الصيف، التي سرعان ما تتبخر في الهواء الحار، والتي تجعل السهول وصوف القطعان وحتى معطف الراعي نظيفا لامعا.
أتذكر عاصفة رهيبة داهمتنا هكذا في الغابة ونحن في طريقنا من "بالون دالزاس." عندما غادرنا النزل أعلاه، كانت الغيوم تحتنا. وكانت أشجار التنوب القليلة تعلو فوقها، ولكن عندما نزلنا كنا بالتأكيد في مهب الريح والمطر والعاصفة.
ولكن يا لها من نار عظيمة عندما وصلنا إلى روج غوت! يا لها من نار جميلة لتجفيف ملابسنا، بينما كانت العجة تقفز إلى اللهب، العجة الألزاسية الفريدة من نوعها، مقرمشة وذهبية مثل الكعكة.
في اليوم التالي لهذه العاصفة رأيت شيئاً مذهلاً.
على الطريق إلى "دانيماري"، عند منعطف في السياج، حقل رائع من القمح، وقد نهبته الأمطار والبرد وأهلكته سيقانه المكسورة التي كانت تتقاطع مع الأرض في كل اتجاه. كانت سنابل القمح الثقيلة الناضجة ترفرف في الوحل، وكانت أسراب الطيور الصغيرة تنقض على هذا الحصاد الضائع، وتقفز في وديان القش الرطب وترسل القمح يتطاير في كل مكان. كان يقف أمام حقله المدمر مزارع طويل القامة منحنيها، يرتدي ملابس على طراز الألزاس القديم، يراقب ذلك بصمت. كان هناك ألم حقيقي على وجهه، ولكن في الوقت نفسه كان هناك شيء من الاستسلام والهدوء، لا أدري ما هو الأمل الغامض، وكأنه يقول لنفسه إن أرضه تحت سنابل الذرة المتساقطة لا تزال باقية بالنسبة له حية وخصبة ومخلصة، وأنه ما دامت الأرض موجودة فلا يجب أن نيأس.

.14.

مونولوج على متن السفينة[73]

ألفونس دوداي 1840ـ 1897

منذ ساعتين حتى الآن، كل الأنوار مطفأة وكل الطرق مغلقة. في البطارية المنخفضة التي تستخدم كمهجع لنا، الجو مظلم وثقيل ونحن نختنق. يمكنني سماع الرفاق وهم يتقلبون في أراجيحهم، يحلمون بصوت عالٍ، ويئنون في نومهم. في هذه الأيام التي لا عمل فيها، حيث الرأس وحده يعمل ويتعب، يمنحك نوماً سيئاً، مليئاً بالحمى والهزات. لكن حتى هذا النوع من النوم يستغرق مني وقتاً طويلاً لأجده. لا أستطيع النوم، فأنا أفكر كثيراً.

على سطح السفينة، إنها تمطر. والرياح تهب. من وقت لآخر، عندما تتغير المناوبة، هناك جرس يرن في الضباب في الطرف البعيد من السفينة. في كل مرة أسمعه، يذكرني بباريس وناقوس الساعة السادسة في المصانع - لا يوجد نقص في المصانع هنا! أستطيع أن أرى بيتنا الصغير، الأطفال عائدون من المدرسة، وأمي في مؤخرة المشغل تنهي شيئاً ما أمام النافذة، تحاول أن تكبح الضوء المتضائل حتى نهاية عملها في التطريز.

ربما كان من الأفضل لي أن آخذها معي، بما أنه كان مسموحًا لي بذلك. ولكن ماذا تريد! إنها بعيدة جداً. كنت خائفة من الرحلة، ومن مناخ الأطفال. عندها كنت سأضطر إلى بيع تجارتنا في الزينة، هذه الثروة الصغيرة التي عملنا جاهدين على

---

[73] Alphonse Daudet, contes du lundi

بنائها قطعة قطعة على مدى عشر سنوات. وأولادي، الذين لن يذهبوا إلى المدرسة بعد الآن! وأمي، التي أجبرت على العيش مع مجموعة من العاهرات! أفضل أن أعاني وحدي... لا يهم! عندما أصعد على سطح السفينة وأرى كل تلك العائلات المستقرة هناك كما لو كانوا في المنزل، الأمهات يخطن الخرق، والأطفال في تنانيرهم، يجعلني ذلك دائمًا أرغب في البكاء.

تشتد الرياح وترتفع الأمواج. تمر الفرقاطة وهي تميل على جانبها. يمكنك سماع صراخ الصواري وصرير الأشرعة. علينا أن ننطلق بسرعة كبيرة. هذا أفضل بكثير، سنصل إلى هناك بسرعة...

جزيرة الصنوبر هذه، التي كانت تخيفني كثيراً في وقت التجربة، تجعلني الآن أحسدها. إنها هدف وراحة. وأنا متعب جداً، هناك أوقات يمر أمام عينيّ كل ما رأيته في العشرين شهراً الماضية فيومض أمام عينيّ ويصيبني بالدوار. إنه حصار البروسيين، والأسوار، والتمرين؛ ثم النوادي، والجنائز المدنية التي كان المدنيون يحتمون فيها بعرواتهم الخالدة، والخطب التي كانت تلقى عند سفح الكولوني، واحتفالات الكومونة في فندق الفيل، واستعراضات كلوسيريت، والطلعات الجوية، والمعركة، ومحطة كلامارت، وكل تلك الجدران الصغيرة التي كان الناس يحتمون فيها ليطلقوا النار على رجال الدرك؛ ثم س

لدي قناع من التعب والغبار ولا أعرف ما الذي التصق بوجهي. لا أعتقد أنني لم أغتسل منذ عشر سنوات.

أوه نعم، سيكون من الجيد أن أحصل على موطئ قدم في مكان ما لأتوقف فيه. يقولون إنني سأحصل هناك على قطعة أرض، وبعض الأدوات، وبيت صغير... بيت صغير! كنا نحلم بواحد، أنا وزوجتي، على جانب سان ماندي؛ منخفض، مع حديقة صغيرة منتشرة أمامه، مثل درج مفتوح مليء بالخضروات والزهور. كنا نأتي إلى هناك أيام الآحاد، من الصباح إلى المساء، لنستنشق بعض الهواء النقي وأشعة الشمس طوال الأسبوع. ثم، عندما يكبر الأولاد ويذهبون إلى العمل، كنا نذهب

للتقاعد هناك في سلام. يا لك من مسكينة، لقد تقاعدت الآن وستحصلين على بيتك الريفي!

آه، يا للأسف! عندما أعتقد أن السياسة هي سبب كل شيء. لم أكن أهتم بالسياسة لطالما كنت أخشاها. أولاً وقبل كل شيء، لم أكن غنياً، ومع المال الذي كنت أدفعه لم يكن لدي وقت كافٍ لقراءة الصحف أو الاستماع إلى المتحدثين المعسولين في الاجتماعات. ولكن بعد ذلك جاء الحصار الدموي، والحرس الوطني، ولم يكن لدي ما أفعله سوى الصراخ والشرب. فذهبت مع الآخرين إلى الملاهي الليلية وأسكرني كلامهم الكثير.

حقوق العامل! سعادة الشعب!

عندما جاءت البلدية، ظننت أنه العصر الذهبي للفقراء. ولا سيما أنني كنت قد أصبحت نقيباً، وكانت كل تلك الملابس الجديدة وكل تلك الأشرطة وكل تلك الماركات وكل تلك الأيقونات قد جعلت البيت يعمل كثيراً. فيما بعد، عندما رأيت كيف يعمل كل شيء، كنت أود أن أغادر، ولكنني كنت أخشى أن أبدو كالجبان.

ماذا يحدث هناك؟ شخير مكبرات الصوت أحذية كبيرة تركض على سطح السفينة المبلل... هؤلاء البحارة يا لها من حياة صعبة يعيشونها! صافرة ضابط الإعاشة قد باغتتهم للتو في منتصف نومهم. صعدوا إلى سطح السفينة، وهم لا يزالون نائمين ويتصببون عرقاً. كان عليهم أن يركضوا في الظلام والبرد. كانت الألواح الخشبية زلقة، والحبال متجمدة تحرق الأيدي التي تشبثت بها. وبينما هم معلقون هناك، في نهاية الساحة، في نهاية الساحة، يتقلبون بين السماء والماء، يلفون لوحات كبيرة صلبة، تأتي عاصفة من الرياح وتمزقهم وتحملهم بعيداً وتنثرهم في عرض البحر مثل سرب من طيور النورس. آه! إنها حياة أصعب بكثير من حياة العامل الباريسي وأقل أجراً بكثير. لكن هؤلاء الناس لا يتذمرون أو يتمردون. فهم يتحلون بالهدوء والهدوء، وعيونهم صافية وعزيمة ثابتة، واحترامهم لرؤسائهم! يمكنك أن تعرف أنهم لم يرتادوا نواديهم كثيراً.

إنها عاصفة بالتأكيد. كانت الفرقاطة تهتز بشكل مروع. كان كل شيء يتراقص ويصدر صريراً.

حزم من الماء تتحطم على سطح السفينة مع ضجيج يشبه الرعد؛ ثم، لمدة خمس دقائق، تتدفق أخاديد صغيرة من جميع الجهات. بدأ الناس من حولي يرتجفون. بعضهم مصاب بدوار البحر، والبعض الآخر خائف. إن هذا الجمود القسري في خطر هو أسوأ أنواع السجن... وأن أفكر أنه بينما نحن هنا، مسوقون كالقطيع، نتلمس طريقنا وسط هذا الضجيج المشؤوم الذي يحيط بنا، فإن كل أبناء الكومونة الأفاضل بأوشحتهم الذهبية وصدورهم الحمراء، كل أولئك المتصنعين والجبناء الذين كانوا يدفعوننا إلى الأمام، هم في راحة تامة في المقاهي والمسارح في لندن وجنيف وفرنسا القريبة. عندما أفكر في ذلك، أشعر بالغضب! البطارية كلها مستيقظة. ننادي بعضنا بعضًا من أرجوحة إلى أخرى، وبما أننا جميعًا باريسيون، نبدأ بالمزاح والضحك. تظاهرت بالنوم حتى يتركوني وشأني. يا له من عذاب رهيب أن لا تكون وحيدًا أبدًا، أن تعيش في كومة! عليك أن ترتقي إلى مستوى غضب الآخرين، وأن تقول ما يقولون، وأن تؤثر الكراهية التي لا تملكها، وإلاّ ستُعتبر واشياً. ودائمًا النكتة، النكتة... يا له من بحرٍ بحق الله! تستطيع أن تشعر بالريح وهي تحفر ثقوباً سوداء عظيمة حيث تغوص الفرقاطة وتدور ... هيا! من الجيد جدا أن أفكر في هذه الساعة أنهم هناك، محميون جيدا في غرفتنا الصغيرة...

.15.

الحصاد بجانب البحر[74]

ألفونس دوداي 1840ـ 1897

كنا نركض عبر السهل منذ الصباح بحثاً عن البحر الذي كان يهرب منا دائماً في التعرجات والرؤوس وشبه الجزر التي تشكل الساحل.
وبين الفينة والأخرى كانت تتراءى لنا في الأفق زاوية من الزرقة البحرية كأنها لمحة من السماء الداكنة المتغيرة؛ ولكن فرصة هذه الطرق المتعرجة التي تجعلك تحلم بالكمائن سرعان ما كانت تغلق الرؤية التي كنا نلمحها. كنا قد وصلنا إلى قرية ريفية صغيرة وقديمة، ذات شوارع ضيقة مظلمة على الطراز الجزائري، تعج بالسماد والإوز والثيران والخنازير. وكانت البيوت تشبه الأكواخ بأبوابها المنخفضة ذات الأبواب الواطئة المطوقة بالبياض والمطوقة بصلبان بيضاء، ومصاريعها مثبتة بتلك العارضة الطويلة التي لا تراها إلا في البلاد التي تهب فيها الرياح. ومع ذلك بدت قرية "بريتون" الصغيرة محمية جداً، هادئة جداً ومريحة جداً. كنا نعتقد أننا كنا على بعد عشرين فرسخاً في الداخل. وفجأة، عندما دخلنا إلى ساحة الكنيسة، وجدنا أنفسنا محاطين بضوء مبهر وهواء عملاق وصوت أمواج لا حدود لها. كانت الكنيسة مليئة بالعشب الجاف والأعشاب الضارة وجدار منخفض متداعٍ ومتهدم ومقاعد حجرية متكئة عليه.

[74] Alphonse Daudet, contes du lundi.

لا يمكنك أن تجد حقاً أي شيء أكثر متعة وعزلة من هذه القرية الصغيرة الضائعة بين الصخور، والمثيرة للاهتمام بسبب جوانبها البحرية والرعوية المزدوجة. جميعهم صيادون أو حرّاثون، والناس هنا قساة وغير مرحبين. على العكس، فهم لا يدعونك للبقاء معهم. ولكن شيئاً فشيئاً، يصبحون أكثر إنسانية، وتفاجأ برؤية أناس ساذجين وطيبي القلب تحت هذا الترحيب القاسي. إنهم يشبهون إلى حد كبير بلادهم، هذه التربة الصخرية المقاومة التي تشبه إلى حد كبير تلك التربة التي تتسم بالمعدن لدرجة أن الطرقات – حتى في الشمس – تأخذ لوناً أسود متلألئاً بشرارات من النحاس والقصدير. هذه هي الانهيارات الأرضية، والمنحدرات الشاهقة، والكهوف التي نحتها البحر، حيث يندفع البحر ويهدر. عندما ينحسر المد، يمكنك أن ترى الشعاب المرجانية على مد البصر، وظهورها المتوحشة تبرز من الأمواج، لامعة وبيضاء مع الرغوة، مثل حيتان العنبر العملاقة التي جنحت إلى جانب البحر.

وعلى النقيض من ذلك تماماً، وعلى مرمى حجر من الشاطئ، تمتد حقول القمح والكروم والبرسيم التي تفصل بينها جدران صغيرة عالية كالأسيجة وخضراء كالعليق. إن العين، التي تعبت من دوار المنحدرات العالية، ومن تلك الهاويات التي تهبط فيها بالحبال المثبتة في الصخر، ومن زبد الأمواج، تجد الراحة في وسط انتظام السهول والطبيعة الحميمة المألوفة. تتضخّم أدنى التفاصيل الريفية في مقابل الخلفية المتلألئة للبحر الحاضر دوماً عند منعطف الطريق، في الفجوات بين السقوف، في تقطيع الجدران، في نهاية الزقاق. يبدو صياح الديكة أكثر وضوحاً، محاطاً بمساحة أكبر. لكن الجميل حقاً هو كومة الحصاد على البحر، وأحجار الرحى الذهبية فوق الأمواج الزرقاء، والمناطق التي تتساقط فيها السنابل على مقياس واحد، وتلك المجموعات من النساء على الصخور الشاهقة، يتجهن نحو الهواء ويغربلن القمح بين أيديهن المرفوعة بإيماءات مثيرة. تتساقط الحبوب في وابل كثيف متواصل، بينما تحمل ريح البحر القش وتجعله يدور. هناك عملية

غربلة في ساحة الكنيسة، على رصيف الميناء، وصولاً إلى حيث تنتشر شباك صيد كبيرة تجفف شبكاتها المتشابكة مع نباتات الماء.

وفي الوقت نفسه، هناك حصاد آخر يحدث أيضًا، ولكن في قاع الصخور، في تلك المساحة المحايدة التي يغزوها المد والجزر ويكشفها بدوره. هذا هو حصاد الجيمون. كل موجة، عندما تتكسر على الشاطئ، تترك بصماتها في خط متموج من النباتات البحرية، والأعشاب البحرية أو عشب البحر. عندما تهب الرياح، تجري الأعشاب البحرية حفيفاً على طول الشاطئ، وبقدر ما يتراجع البحر فوق الصخور، تنبسط هذه الشعيرات الطويلة الرطبة وتنتشر. تتجمع في حزم ثقيلة وتتراكم على الشاطئ في أحجار طاحونة أرجوانية داكنة اللون، محتفظة بكل ظلال البحر، مع تقزح غريب للأسماك المحتضرة أو النباتات الذابلة. عندما تجف الأكوام، يتم حرقها لإنتاج رماد الصودا.

يتم هذا الحصاد الفريد من نوعه عاري الساقين، على المد والجزر، بين آلاف البحيرات الصغيرة الصافية التي يتركها البحر المتراجع في مكانه. يشق الرجال والنساء والأطفال، مسلحين بمجارف ضخمة، طريقهم بين الصخور الزلقة. وأثناء مرورهم، تهرول السرطانات المذعورة بعيدًا، وتتربص وتنبسط وتمد مخالبها، وتضيع **الماعز** الشفافة في لون الماء المضطرب. يتم تحميل الماعز التي تم جمعها على عربات تجرها ثيران مشدودة تسير عبر التضاريس الوعرة ورؤوسها مطأطئة. أينما تلتفت، يمكنك رؤية هذه العربات. وفي بعض الأحيان، في الأماكن التي يتعذر الوصول إليها تقريباً، حيث تصل عبر مسارات شديدة الانحدار، يظهر رجل يقود حصاناً محملاً بالنباتات المتساقطة من اللجام. يمكنك أيضاً أن ترى أطفالاً يحملون قطفهم من هذا الحصاد البحري على عصي متقاطعة على نقالات. كل ذلك يضيف صورة كئيبة ولافتة للنظر. تطير النوارس الخائفة وهي تصرخ حول بيضها. إن تهديد البحر موجود، وما يكمل وقار هذا المنظر هو أنه خلال هذا الحصاد الذي يتم في أخاديد الموج كما في الحصاد على اليابسة، يحوم الصمت،

صمت نشيط، صمت مفعم بجهد شعب في مواجهة طبيعة بخيلة ومتمردة. نداء للثيران عالي النبرة يرن في الكهوف، هذا كل ما تسمعه.

يبدو أنك تمر في مجتمع **ترابيين**، أحد تلك الأديرة حيث يعملون في الهواء الطلق في ظل قانون الصمت الدائم. لا يستدير السائقون حتى للنظر إليك وأنت تمر، والثيران فقط هي التي تحدق بك بعيونها الكبيرة الساكنة. ومع ذلك، فإن هؤلاء الناس ليسوا حزينين، ومع حلول يوم الأحد، يعرفون كيف يبتهجون ويرقصون رقصات البريتون القديمة. في المساء، حوالي الساعة الثامنة، يتجمعون على رصيف الميناء، أمام الكنيسة والمقبرة. إن كلمة "مقبرة" لها وقع مخيف، لكنك لو رأيت المكان، فلن يخيفك. لا توجد أشجار صندوقية أو خشب الصنوبر أو الرخام؛ لا شيء رسمي أو مهيب. فقط صلبان تتكرر فيها نفس الأسماء عدة مرات، كما هو الحال في جميع البلدان الصغيرة التي يتحالف سكانها مع بعضهم البعض؛ نفس العشب الطويل في كل مكان، والجدران منخفضة لدرجة أن الأطفال يتسلقونها في ألعابهم، وفي أيام الدفن، يمكنك رؤية المصلين الراكعين من الخارج. عند سفح هذه الجدران الصغيرة، يأتي كبار السن للجلوس تحت أشعة الشمس للغزل أو النوم بين السور غير المزروع والصامت وبين رحلة البحر الأبدية...

وأمام هذه الجدران يأتي الشباب للرقص في أمسيات الأحد. وبينما لا يزال القليل من الضوء يتصاعد من الأمواج على طول الرصيف، تقترب مجموعات الفتيات والفتيان. تتشكل الجولات، وفي البداية ينطلق صوت صغير بمفرده على إيقاع بسيط يستدعي الجوقة وراءه :

إنه في فناء بلات ديتان...

تتكرر جميع الأصوات معًا :

إنه في فناء بلات ديتان...

تدبّ الحياة في الدائرة، وتدور الأبواق البيضاء حولها، وتنفتح من الجانبين كأجنحة الفراشات. ودائمًا ما تحمل رياح البحر نصف الكلمات...

وتبدو الأغنية أكثر سذاجة وسحرًا، تُسمع على شكل شذرات، مع مقاطع غريبة كالتي نجدها في الأغاني الريفية التي تؤلف أثناء الرقص، وتهتم بالإيقاع أكثر من اهتمامها بمعنى الكلمة. مع عدم وجود ضوء سوى شعاع قمر غامض، تبدو الرقصة رائعة. كل شيء رمادي، أسود أو أبيض، بلون محايد يرافق الأشياء التي تحلم بها أكثر من الأشياء التي تراها. شيئًا فشيئًا، مع شروق القمر، تطول الصلبان في المقبرة، والصليب على الجلجلة الكبيرة عند الزاوية، وتنضم إلى الدائرة وتختلط بها... أخيرًا، تدق الساعة العاشرة ونفترق. يعود الجميع إلى منازلهم عبر شوارع القرية التي تبدو غريبة في هذه اللحظة. درجات السلالم الخارجية المتكسرة، وزوايا الأسطح الخارجية، والسقائف المفتوحة حيث يأتي الليل بكل سواده وانضغاطه، ينحني وينحني ويتجمع. نسير بمحاذاة الجدران القديمة التي تحيط بها أشجار التين الضخمة؛ وبينما نسحق القش الفارغ من القمح المدروس تختلط رائحة البحر برائحة الحصاد الدافئة والإسطبلات النائمة.

المنزل الذي نسكنه في الريف، خارج القرية مباشرة. وفي طريق العودة، عند نقاط الأسيجة، يمكننا أن نرى أضواء المنارات تسطع على جميع جوانب شبه الجزيرة، منارة تومض، وضوء دوار، وضوء ثابت؛ وبما أننا لا نرى المحيط، فإن كل هذه المطالع على الشعاب السوداء تبدو لنا ضائعة في الريف الهادئ.

.16.

ذكريات[75]

قي دي موباسان 1850 ـ 1893

كم تأتي من ذكريات الشباب تحت مداعبة الشمس الناعمة الأولى! تلك السن التي كان فيها كل شيء طيباً ومسرّاً وساحراً ومبهجاً. هل تتذكرون يا أصدقائي القدامى يا إخوتي، هل تتذكرون تلك السنوات التي كانت الحياة فيها لا شيء سوى الانتصار والضحك؟ هل تذكرون أيام تجولنا في باريس، وفقرنا المشع، ونزهتنا في الغابات الخضراء، وسكرنا بالهواء الأزرق في الملاهي على ضفاف السين، وعلاقاتنا الغرامية المبتذلة واللذيذة في آن واحد؟ أريد أن أحدثكم عن إحدى تلك العلاقات الغرامية. لقد كانت منذ اثنتي عشرة سنة مضت وتبدو لي الآن قديمة جداً، حتى أنها تبدو لي الآن في الطرف الآخر من حياتي، قبل نقطة التحول، تلك النقطة المنعطف القبيحة التي رأيت منها فجأة نهاية الرحلة.

كنت في الخامسة والعشرين من عمري في ذلك الوقت. كنت قد وصلت للتو إلى باريس، وكنت موظفاً في دائرة حكومية، وكانت أيام الآحاد تبدو لي أعياداً استثنائية مليئة بالسعادة الغامرة، رغم أنه لم يحدث شيء مفاجئ، أما اليوم فهو يوم الأحد. لكني أفتقد الأيام التي كنت أحظى فيها بيوم واحد في الأسبوع. كم كانت جيدة! كان لدي ستة فرنكات لأنفقها!

[75] Guy De Maupassant Contes du jour et de la nuit.

استيقظت في الصباح الباكر في ذلك اليوم مع ذلك الشعور بالحرية الذي يعرفه الموظفون جيدًا، ذلك الشعور بالخلاص والراحة والطمأنينة والاستقلال. فتحت نافذتي. كان الطقس رائعًا. كانت السماء الزرقاء ممتدة فوق المدينة، مليئة بأشعة الشمس وطيور السنونو. ارتديت ملابسي بسرعة كبيرة وغادرت، كنت أريد أن أقضي اليوم في الغابة، أتنفس أوراق الشجر، لأنني من خلفية ريفية، فقد نشأت بين العشب وتحت الأشجار. كانت باريس تستيقظ، فرحة، في حرارة الشمس والنور. كانت واجهات المنازل مشرقة؛ وكانت طيور البوابين تغرد في أقفاصها، وكانت البهجة تسري في الشوارع فتضيء الوجوه وتبعث الضحكات في كل مكان، وكأنها رضى غامض للكائنات والأشياء تحت الشمس المشرقة الصافية.
ونزلت إلى نهر السين لألحق بباخرة "هيروانديل" التي ستقلّني إلى "سان كلود"، وكم أحببت انتظار الباخرة على العائم. بدا لي أنني سأرحل إلى نهاية العالم، إلى بلاد جديدة ورائعة. كنتُ أرى ذلك القارب يظهر، هناك، تحت قوس الجسر الثاني، صغيراً بعمود دخانه، ثم أكبر وأكبر، ويكبر دائماً، ويأخذ في ذهني مظهر سفينة محيطية. رست السفينة وركبتُ.
كان الناس يرتدون ملابس تنكرية بالفعل، بأزياء مبهرجة وأشرطة لامعة ووجوه قرمزية كبيرة. ووقفت في مقدمة الجسر، أطل على الأرصفة والأشجار والمنازل والجسور، وفجأة رأيت جسر" بوينت دو جور" العظيم يسد النهر. لقد كانت نهاية باريس، وبداية الريف، وفجأة اتسع نهر السين خلف الخط المزدوج من الأقواس كأنما أعيد إليه الفضاء والحرية، وأصبح فجأة النهر الجميل الهادئ الذي يجري عبر السهول عند سفح التلال المشجرة، ووسط الحقول، وعلى حافة الغابات. وبعد أن مر بين جزيرتين سار نهر" ليروانديل" على سفح تل منعطف، وقد امتلأت خضرته بالبيوت البيضاء. أعلن صوت "با ميدون" ثم هناك بعيدا "سافر" وبعيدا بعيدا جدا "سان كلود". نزلت وأسرعت عبر البلدات الصغيرة على طول الطريق المؤدي إلى الغابة. وكنت قد أحضرت معي خريطة لمنطقة باريس

حتى لا أضل الطريق في المسالك التي تعبر هذه الغابات الصغيرة التي يسير فيها الباريسيون في كل الاتجاهات. وما أن أصبحت في الظل حتى درست طريقي الذي بدا لي أنه بسيط جداً. كنت سأنعطف يميناً ثم يساراً ثم يساراً مرة أخرى، وسأصل إلى فرساي عند حلول الظلام، لتناول طعام العشاء.

وبدأت أمشي على مهل، تحت أوراق الشجر الجديدة، أستنشق الهواء اللذيذ المعطر برائحة البراعم وشذى الخضرة. وسرت بخطى وئيدة، غير عابئ بالأعمال الورقية والمكتب والمدير والزملاء والملفات، وأفكر في الأشياء السعيدة التي لا بد أن تحدث لي، وفي المجهول المحجوب من المستقبل. كانت روائح الريف تثير في نفسي ألف ذكرى من ذكريات طفولتي، وسرتُ في طريقي وأنا مشبع بالسحر العطر، والسحر الحيوي، والسحر النابض للغابة التي تدفئها شمس يونيو المشرقة.

كنت أجلس أحياناً وأنظر إلى كل أنواع الزهور الصغيرة على طول الضفة، والتي كنت أعرف أسماءها منذ زمن طويل. تعرفت عليها جميعاً كما لو كانت هي نفسها التي رأيتها في الأيام الخوالي. كانت صفراء وحمراء وأرجوانية وناعمة ولطيفة ومثبتة على سيقان طويلة أو ملتصقة بالأرض. وكانت الحشرات من كل الألوان والأشكال، ممتلئة وممتدة وغير عادية في تركيبها، وحوشاً مخيفة ومتناهية الصغر، تتسلق بسلام شفرات العشب التي تنحني تحت ثقلها. ثم نمت بضع ساعات في خندق ثم عدت إلى البيت وقد استرحت ونشطت بهذه القيلولة. انفتح أمامي زقاق مبهج، وكانت أوراقه المغزولة قليلاً تترك قطرات من أشعة الشمس تنهمر على الأرض لتضيء أزهار الأقحوان البيضاء. امتدت إلى ما لا نهاية، فارغة وهادئة. لم يكن يتبعها سوى دبور كبير منفرد يطنّ وحيداً، يتوقف أحياناً ليشرب من زهرة تنحني تحته، ثم يغادر مرة أخرى على الفور تقريباً ليستريح بعيداً قليلاً. بدا جسمه الضخم وكأنه مصنوع من المخمل البني المخطط بالأصفر، وكان مدعومًا بأجنحة شفافة صغيرة غير متناسبة.

ولكنني فجأة رأيت شخصين، رجل وامرأة، قادمين نحوي في نهاية الممر. كنتُ منزعجاً من إزعاجهما لي أثناء سيري على مهل، وكنت على وشك الدخول إلى الغابة، عندما بدا لي أن هناك من يناديني. توجهت نحوهما. وكانا يسيران مسرعين، وكلاهما شديدا الاحمرار، وكانت هي بخطوات قصيرة وسريعة، وهو بخطوات طويلة. فسألتني المرأة على الفور: - سيدي، هل تستطيع أن تخبرني أين نحن، لقد ضيعنا زوجي الأحمق بتظاهره بمعرفة هذه البلاد معرفة تامة فأجبتها بثقة: - سيدتي، أنت ذاهبة نحو سان كلود وأنت تديرين ظهرك إلى فرساي.

واستطردت وهي تنظر إلى زوجها بنظرة شفقة غاضبة:

- ماذا! نحن ندير ظهورنا إلى فرساي. ولكن هذا هو بالضبط المكان الذي نريد أن نتناول العشاء فيه. وأنا أيضاً يا سيدتي سأذهب. وقالت عدة مرات وهي تهز كتفيها: - يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي! بنبرة الاحتقار التي تتحلى بها النساء للتعبير عن سخطهن. وكانت شابة جميلة سمراء اللون ذات شاربين، وعلى شفتيها ظل شارب، أما هو فكان يتصبب عرقاً ويمسح جبينه. لقد كانت بالتأكيد أسرة برجوازية باريسية صغيرة. فبدا الرجل فزعاً مرهقاً ومتأسفاً وغمغم:

- ولكن، يا صديقتي العزيزة... إنه أنت...

لم تدعه يكمل: - إنه أنا! ... آه! إنه أنا الآن. هل كنت أنا من أراد الرحيل دون أي معلومات، مدعياً أنني سأجد نفسي دائماً؟ هل كنت أنا من أراد أن ينعطف يميناً عند قمة التل، مدعياً أنني أعرف الطريق؟ هل كنت أنا من تولى مسؤولية كاشو... ولم تكد تنتهي من كلامها حتى أطلق زوجها، كما لو كان قد استولى عليه الجنون، صرخة مدوية، صرخة وحشية طويلة لا يمكن كتابتها بأي لغة، ولكنها بدت وكأنها أصوات قطار، ولم تبد الشابة مندهشة ولا متأثرة، وتابعت: (لا، حقاً، هناك بعض الناس الأغبياء جداً، الذين يتظاهرون دائماً بمعرفة كل شيء. هل أنا من استقل قطار "ديبب" العام الماضي بدلاً من قطار لوهافر؟ هل كنت أنا من راهن على أن

السيد "ليتورنور" كان يعيش في شارع الشهداء؟ هل كنت أنا من لم يرد أن يصدق أن "سيليست" كانت لصة؟

ومضت غاضبة، وبسرعة لغوية مدهشة، تنهال على زوجها بأشد الاتهامات المتنوعة وغير المتوقعة والمذمومة التي توفرها كل المواقف الحميمة في حياتهما المشتركة، معاتبة زوجها على كل أفعاله، وكل أفكاره، وكل طرقه، وكل محاولاته، وكل جهوده، وكل حياته منذ زواجهما إلى الساعة الحاضرة.

فحاول أن يوقفها ويهدئ من روعها، وتلعثم:

- ولكن، يا صديقتي العزيزة... لا فائدة من ذلك... أمام السيد... نحن نجعل من أنفسنا أضحوكة... السيد غير مهتم... وكان يدير عينيه البائستين نحو الشجيرات وكأنه يريد أن يسبر أغوارها الغامضة الهادئة، أن يندفع، أن يهرب، أن يختبئ من كل العيون؛ وبين الحين والحين كان يطلق صرخة أخرى، صرخة طويلة عالية النبرة. لقد ظننتُ أن هذه العادة مرض عصبي.

وفجأة التفتت إليّ المرأة الشابة، وغيّرت نبرة صوتها بسرعة غريبة وقالت: إذا سمح لي السيد، سنذهب معه حتى لا نضيع مرة أخرى وينتهي بنا الأمر إلى النوم في الغابة. انحنيت لها؛ فأخذت بذراعي وبدأت تتحدث عن ألف شيء، عن نفسها وحياتها وعائلتها وأعمالها. وكانا في شارع سان لازار، وكان زوجها يمشي بجانبها وهو يرمق الأشجار بنظرات مجنونة دائماً، ويصرخ بين لحظة وأخرى صرخته المعهودة، سألته أخيرا:

- لماذا تصرخ هكذا؟ فأجابني في فزع ويأس:

- إنه كلبي المسكين الذي فقدته. ماذا؟ فقدت كلبك؟ نعم. كان عمره بالكاد سنة. أردت أن آخذه في نزهة في الغابة. لم يسبق له أن رأى عشباً أو أوراق شجر، فجن جنونه. بدأ بالركض والنباح واختفى في الغابة. لا بد من القول إنه كان خائفاً جداً من السكة الحديدية، فقد كان خائفاً جداً منزعجا، وربما أفقده ذلك صوابه. حاولت الاتصال به، لكنه لم يعد. لقد كان سيموت جوعاً هناك، فقالت المرأة

الشابة دون أن تلتفت إلى زوجها: (لو تركته يأخذ حزامه لما حدث هذا. ولكنك عندما تكون غبياً مثلك لا تملك كلباً. فتمتم في خجل: (ولكن يا صديقتي العزيزة، إنه أنت. . .) وتوقفت في مكانها ثم أخذت تنظر في عينيه وكأنها تريد أن تقتلعهما من مكانهما، وأخذت ترمي في وجهه توبيخات لا تنتهي.

كان المساء يهبط. وكان حجاب الضباب الذي يغطي الريف عند الشفق ينقشع رويداً رويداً؛ وكان الشّعر الرومنسي يطفو على السطح، مؤلفاً من ذلك الإحساس الغريب الساحر بالنضارة التي تملأ الغابة مع اقتراب الليل. وفجأة توقف الشاب، وتحسس جسمه في حمى: - أوه! لم أنتبه إلى أن معطفي على ذراعي، حسناً؟ لقد فقدت محفظتي... كانت نقودي فيها فارتجفت من الغيظ، واختنقت من السخط.

- هذا كل ما نحتاجه. كم أنت غبي! كم أنت غبي! هل من الممكن أن أكون متزوجة من أحمق كهذا؟ حسناً، اذهب وابحث عنه وتأكد من العثور عليه. سأذهب إلى فرساي مع هذا السيد أنا لا أريد أن أنام في الغابة، فأجاب بهدوء: نعم يا صديقتي، أين سأجدك؟

نصحوني بأحد المطاعم، سأدلك عليه. واستدار الزوج، وانحنى على الأرض وعينه القلقة تجول فوقها وهو يصيح صيحته المعهودة! ومضى وقت طويل قبل أن يختفي؛ وكان الظل قد تكاثف ومحاه في مسافة الزقاق. وسرعان ما لم نعد نستطيع أن نتبين خيال جسمه؛ ولكننا ظللنا نسمع لوقت طويل صوته الذي كان يزداد حدة كلما ازداد الليل ظلاماً. وسرتُ في خفة الشفق، وأنا أمشي في سعادة في خيلاء، مع تلك المرأة الصغيرة المجهولة التي كانت تتكئ على ذراعي، وبحثت عن كلمات رقيقة راقية فلم أجد، فانتبهت إلى أن هناك من يقول لي: . لكن فجأة اخترق طريق رئيسي طريقنا. على اليمين، في وادٍ، رأيت بلدة كاملة.

مرّ رجل. سألته عن ذلك. فأجابني:

- "بوجيفال". كنت عاجزاً عن الكلام: - ماذا تقصد يا "بوجيفال"؟ كانت المرأة الصغيرة تضحك كالمجنونة، فاقترحت أن نأخذ عربة إلى فرساي. فأجابت:

- بالطبع لا. إنه أمر ممتع جداً، وأنا جائعة جداً. سيكون زوجي دائماً على ما يرام. من الجيد لي أن أغتنم الفرصة و أرتاح لبضع ساعات.

فذهبنا إلى مطعم بالقرب من الماء، وتجرأت على أخذ غرفة خاصة. ثملت كثيراً، يجب أن أقول، بشكل جيد جداً، وغنت وشربت الشمبانيا، وفعلت كل أنواع الأشياء المجنونة... بل والأكثر من ذلك كله. كانت أولى كبائري!

.17.

الكتاب الأخير[76]

ألفونس دوداي 1840ـ 1897

»لقد مات « ! قال لي أحدهم ونحن على الدرج.

كنت قد شعرت بالفعل أن الخبر الكئيب قادم منذ عدة أيام. كنت أعرف أنني سأجده في أي لحظة على ذلك الباب؛ ومع ذلك فقد صدمت بشيء غير متوقع. ودخلت بقلب مثقل وشفتين مرتجفتين إلى المسكن المتواضع لرجل من رجال الأدب، حيث كان المكتب يحتل مكان الصدارة، وحيث كانت الدراسة المستبدة قد استولت على كل ما في البيت من رفاهية وإشراق.

وكان هناك مستلقياً على سرير حديدي منخفض جداً، ومنضدته مثقلة بالأوراق، وخطه الكبير متقطع في وسط الصفحات، وريشته لا تزال واقفة في المحبرة، وكل ذلك يدل على أن الموت قد داهمه فجأة. وخلف السرير، خزانة طويلة من خشب البلوط، تفيض بالمخطوطات والأوراق، تكاد تنفتح فوق رأسه. وفي كل مكان، كانت الكتب، لا شيء غير الكتب: على الرفوف والكراسي والمكتب، مكدسة على الأرض وفي الزوايا، وحتى عند قدم السرير. عندما كان يكتب هناك، جالسًا على مكتبه، كانت هذه الفوضى الخالية من الغبار، مريحة للعينين: يمكنك أن تشعر بالحياة ونشاط العمل. لكن في غرفة الموت هذه، كان الأمر كئيبًا. كل تلك الكتب المسكينة، المبعثرة في أكوام، كانت تبدو جاهزة للرحيل، لتضيع في تلك المكتبة

[76] Alphonse Daudet. Contes du lundi.

العظيمة التي كانت مبعثرة في المبيعات، على الأرصفة، والأكشاك، تتصفحها الرياح فتبليها، أو تمر بها دون انتباه.
كنت قد قبلته للتو في الفراش، ووقفت أنظر إليه وقد استولت عليَّ لمسة تلك الجبهة الباردة كالصّخر. وفجأة انفتح الباب. ودخل مساعد مكتبة مثقل بالكتب، مثقل النفس، فدخل مبتهجاً ودفع رزمة الكتب، طازجة من المطبعة، على الطاولة.
»ثم، عندما رأى السرير، تراجع إلى الوراء وخلع قبعته وانسحب بحذر.
كان هناك شيء مثير للسخرية بشكل مخيف في هذه الشحنة من بائع الكتب "باشلان"، التي تأخرت لمدة شهر، والتي كان ينتظرها الرجل المريض بفارغ الصبر ويستقبلها الرجل الميت... مسكين صديقي! لقد كان كتابه الأخير، الكتاب الذي كان يعوّل عليه أكثر من غيره. وبأي عناية دقيقة كانت يداه اللتان كانتا ترتجفان من الحمّى قد صحّحتا النسخة الأولى! في الأيام الأخيرة، عندما لم يعد يتكلم، ظلت عيناه مثبتتين على الباب; ولو أن الطابعين والمدققين والمصححين والخياطين، وكل أولئك الذين يعملون في عمل شخص واحد، لو كانوا قد رأوا نظرة الكرب والترقب تلك، لكانت أيديهم قد أسرعت، و لوضعت الحروف في صفحات، والصفحات في مجلدات لتصل في الوقت المناسب، أي قبل ذلك بيوم، ولمنح الرجل المحتضر فرحة العمر أن يجد مرة أخرى، في رائحة الكتاب الجديد ووضوح حروفه، الفكرة التي كان يشعر بها بالفعل وهي تفرّ وتتوارى مظلمة داخله.
حتى في خضم الحياة، وهذه فرحة لا يملّها الكتّاب أبداً. أن يفتح المرء أوّل نسخة من عمله، وأن يراه ثابتاً كما لو كان في راحة ولم يعد في ذلك المجرى العظيم من الدماغ حيث يكون دائماً مشوّشاً، يا له من إحساس لذيذ! عندما تكون صغيراً تكون مبهوراً: تبدو الحروف متلألئةً ممدودةً بالأزرق والأصفر، كما لو كان رأسك مليئاً بأشعة الشمس. فيما بعد، يختلط قليل من الحزن مع فرحة المخترع هذه، ندم عدم قول كل ما أردت قوله. دائمًا ما يبدو العمل الذي حملته في داخلك أجمل

من العمل الذي صنعته. يضيع الكثير في هذه الرحلة من الرأس إلى اليد! إن فكرة الكتاب تشبه تلك القناديل الجميلة في البحر الأبيض المتوسط التي تطفو كالظلال في البحر، وتوضع على الرمال، فلا تكون أكثر من ماء قليل، بضع قطرات متغيرة اللون تجففها الريح في الحال.

وا أسفاه! لا هذه الأفراح ولا هذه الخيبات، لم يكن للفتى المسكين علاقة بعمله الأخير. لقد كان من المفجع أن نرى ذلك الرأس الثقيل الخامل، النائم على الوسادة، وإلى جانبه هذا الكتاب الجديد الذي كان على وشك أن يظهر في واجهات المحلات ممتزجاً بأصوات الشارع، وبحياة اليوم، والذي كان المارة يقرأون عنوانه قراءة ميكانيكية، ويحملونه في ذاكرتهم، وفي أعماق عيونهم، مع اسم المؤلف، ذلك الاسم نفسه المنقوش على الصفحة الحزينة في قاعات البلدة، والضّحوكة جداً، والمبهجة جداً على الغلاف الفاتح اللون. وبدت مشكلة الروح والجسد معلقة هناك، بين هذا الجسد الجامد الذي سيُدفن، ويُنسى، وهذا الكتاب الذي برز منه كروح مرئية، حية وربما خالدة...

... " لقد وعدني بنسخة ... " قالها صوت باكٍ قريب مني. التفتُّ فرأيت تحت نظارات ذهبية عيناً صغيرة حية متلصصة من معارفي ومعارفكم أيضاً، جميعكم يا أصدقائي الذين تكتبون. لقد كان عاشق الكتب، ذلك الذي ما إن يعلن عن مجلد من مؤلفاتكم حتى يقرع جرس بابكم بقرعتين خجولتين مثابرتين تشبهانه. يدخل عليك مبتسماً منحني الظهر، يتلوى حولك ويناديك بـ (سيدي العزيز) ولا يغادر دون أن يأخذ معه آخر كتاب لك. لا شيء سوى الكتاب الأخير! لديه كل الكتب الأخرى، لا ينقصه سوى هذا الكتاب الأخير. وكيف له أن يرفض؟ إنه بارع جداً في الوصول في الوقت المحدد و بارع جداً في اللحاق بك في غمرة الفرحة التي كنا نحدثك عنها، في هجر المراسلات والإهداءات. آه، الرجل الصغير الرهيب الذي لا يرفض شيئاً، لا الأبواب الصماء، ولا الترحيب البارد، ولا الريح، ولا المطر، ولا البعد. في الصباح تقابله في شارع "دي لا بومب"، يهرول عند الباب الصغير لباب

البطريرك "باسي"؛ وفي المساء يعود من "مارلي" حاملاً تحت ذراعه مسرحية "ساردو" الجديدة. وعلى هذا النحو، دائم الهرولة، دائم البحث، يملأ حياته دون أن يفعل شيئاً، ويملأ مكتبته دون أن يدفع شيئا.

لا بد أن شغف هذا الرجل بالكتب كان قوياً جداً ليوصله إلى فراش الموت هذا.

قلت له بفارغ الصّبر: "خذها، نسختك". لم يأخذها، بل التهمها. ثم بعد أن وضع المجلد في جيبه، ظل ساكناً بلا حراك، دون أن يتكلم، ورأسه منحني على كتفه، يمسح نظارته في ترقب... ماذا كان ينتظر؟ ما الذي كان يعيقه؟ ربما قليل من الخجل والحرج من المغادرة على الفور، كما لو كان هذا هو السبب الوحيد الذي دفعه للمجيء؟

حسناً، لا !

كان قد لمح على المنضدة، في ورق التغليف نصف المنزوع، بضع نسخ لهواة، سميكة الحواف غير مشذبة وبهوامش عريضة وأوراق زهرية وأوراق نهائية؛ وعلى الرغم من موقفه المتزن ونظراته وأفكاره، كل شيء كان هناك... كان يحدق في عينيه، البائس!

يا له من هوس بالملاحظة! كنت أنا أيضا قد سمحت لنفسي أن أنصرف عن مشاعري، وكنت أتابع من خلال دموعي الكوميديا الصغيرة المؤلمة التي كانت تجري على سرير الرجل الميت. ببطء، مع هزات صغيرة غير مرئية، اقترب عاشق الكتب من الطاولة. ووقعت يده، كما لو كانت صدفة، على أحد المجلدات؛ فقلبه وفتحه وتحسّس ما حوله. وعندما لمعت عيناه، اندفع الدم إلى وجنتيه. كان سحر الكتاب يعمل فيه... وفي النهاية، لم يستطع أن يتحمّل أكثر من ذلك والتقط واحداً :

"إنه للسيد دي سانت بوف"، قالها بصوت شبه مرتفع، وفي غمرة حمّى الارتباك والخوف من أن يؤخذ منه، وربما أيضاً ليقنعني أنه للسيد "دي سانت بوف"،

أضاف في وقار شديد بلهجة من التأثر لا يمكن ترجمتها: "من الأكاديمية الفرنسية..." ثمّ اختفى.!

.18.

الطفل الجاسوس[77]

ألفونس دوداي 1840 ـ 1897

كان اسمه «ستين»، «ستين» الصغير، كان طفلاً مريضاً شاحباً من باريس، ربما كان في العاشرة أو ربما في الخامسة عشرة، لا أحد يعرف أبداً شيئا من هذا القبيل. كانت أمه متوفاة، وكان أبوه جندياً بحرياً سابقاً، وكان يعتني بساحة في منطقة المعبد. وكان الأطفال الرضع، والخادمات، والعجائز، والأمهات الفقيرات، وجميع الباريسيين الذين يأتون للاحتماء من السيارات في هذه الأحواض التي تصطف على أرصفة الشوارع، يعرفون الأب «ستين» ويعشقونه. كانوا يعرفون أن تحت شاربه الخشن الذي كان يخيف الكلاب والمارة على المقاعد، كانت هناك ابتسامة رقيقة تكاد تكون أمومية، وأنك لكي ترى تلك الابتسامة كل ما عليك أن تقول للرجل "كيف حال ولدك الصغير؟"

كان الأب «ستين» يحب ولده الصغير كثيرًا! لقد كان سعيدًا جدًا في المساء، بعد انتهاء الدرس، عندما كان يأتي صاحب الـ 34 عامًا ليأخذه، وكانا يتجولان في الأزقة ويتوقفان عند كل مقعد لتحية الرواد والرد على حسن أخلاقهم.

وللأسف تغير كل شيء مع الحصار، فقد أغلقت ساحة الأب «ستين»ي، وأدخل البنزين إليها، وقضى الرجل المسكين حياته في أحواض الزهور المهجورة والمقلوبة وحيداً لا يملك سيجارة، إلا أن يعود ولده إلى البيت في وقت متأخر من الليل. كان

[77] Alphonse Daudet. Contes du lundi.

عليك أن ترى شاربيه عندما كان يتحدث عن البروسيين ... لم يتذمر «ستين» الصغير كثيراً من حياته الجديدة .

!حصار ! إنه ممتع جداً للأطفال

لا مزيد من المدرسة! لا مزيد من التأمين الصحي! العطلات طوال الوقت والشارع مثل أرض المعارض...

وبقي الطفل في الخارج حتى المساء، يركض في الأرجاء .

وكان يرافق الكتائب التي تذهب إلى الأسوار من المنطقة ويختار منها ما كان لديه موسيقى جيدة؛ وفي هذا الموضوع كان «ستين» الصغير مدرباً جيداً جداً. وكان يخبرك بدقة أن موسيقى الكتيبة 96 لم تكن تساوي الكثير، ولكن الكتيبة 55 كانت موسيقاها ممتازة. وفي أحيان أخرى، كان يشاهد الجنود وهم يقومون بالتمرين؛ ثم كانت هناك ذيول...

وكان يحمل سلته تحت ذراعه ويختلط بالطوابير الطويلة التي كانت تتشكل في ظلال الصباحات الشتوية التي لا يوجد فيها غاز، على أبواب الجزارين والخبازين. وهناك، وأقدامهم في الماء، كان الناس يجتمعون ويتحدثون في السياسة، وباعتباره ابن السيد «ستين» كان الجميع يسألونه عن رأيه. ولكن كان أكثر ما كان يستمتع به الجميع هو لعب البوشون، وهي لعبة الغالوتشي الشهيرة التي جعلتها جماعة البريتون موضة خلال الحصار. عندما لم يكن «ستين» الصغير في الأسوار أو المخابز، كان من المؤكد أنك ستجده في لعبة الغالوشون في ساحة دو شاتو دو دو. لم يكن يلعب بالطبع، فهو لا يملك شيئا، لأنها تحتاج إلى الكثير من المال. كان فقط يراقب اللاعبين بعينيه!

أثار إعجابه رجل طويل القامة يرتدي وزرة زرقاء ويراهن بقطع نقدية من فئة المائة سنت فقط. عندما كان يركض، كان بإمكانك سماع رنين العملات المعدنية في أسفل قميصه ...

وفي أحد الأيام، التقط الرجل الطويل قطعة نقدية تدحرجت تحت قدمي «ستين» الصغير، وقال له بصوت منخفض: "إنها تجعلك سعيدا، أليس كذلك؟ حسناً، إذا أردت، سأخبرك أين تجدها .

ولما انتهت اللعبة أخذه إلى زاوية من زوايا الميدان وعرض عليه أن يأتي معه ليبيع الصحف للبروسيين مقابل ثلاثين فرنكاً للرحلة الواحدة. رفض «ستين» في البداية، وكان غاضباً جداً; ولذا لم يعد إلى المباراة لمدة ثلاثة أيام. ثلاثة أيام فظيعة. لم يأكل ولم ينم. في الليل، رأى أكواماً من أكياس المال الجلدية عند أسفل سريره وبنسات مسطحة لامعة .

كان الإغراء قوياً جداً. عاد في اليوم الرابع إلى قصر شاتو دو، ورأى الرجل الضخم مرة أخرى وسمح لنفسه بأن يُغوى...

انطلقا في صباح يوم ثلجي، وقد وضعا حقائب قماشية على كتفيهما، وأخفوا الصحف تحت بلوزتيهما. عندما وصلا إلى بوابة فلاندرز، كان ضوء النهار بالكاد قد أشرق. فأخذ الرجل الطويل القامة بيد «ستين» وصعد إلى الحارس - وكان رجلاً طيباً رزيناً ذا أنف أحمر ووجه طيب - وقال له بصوت رجل فقير: دعنا نعبر أيها الرجل الطيب .

أمنا مريضة وأبونا ميت. أنا وأخي الصغير ذاهبان لقطف البطاطا في الحقل كان يبكي. وطأطأ «ستين» رأسه خجلاً. نظر الحارس إليهما للحظة، وألقى نظرة خاطفة على الطريق الأبيض المهجور ثم قال: "مروا بسرعة"، ثم تنحى جانباً، وها هما على الطريق المؤدي إلى أوبرفيلييه. كان الرجل الطويل يضحك! وبشكل مبهم، كما لو كان في حلم، رأى «ستين» الصغير المصانع وقد تحولت إلى ثكنات، والمتاريس المهجورة المبطنة بالخرق المبللة، والمداخن الطويلة التي تخترق الضباب وترتفع إلى السماء، فارغة ومقطعة. ومن بعيد وبعيد جدا، حراس، وضباط مقنعون يطلون بمناظير تجسس، وخيام صغيرة مبللة بالوحل أمام نيران خمدت. كان طويل القامة يعرف الطريق، وسلكه عبر الحقول لتجنب المراكز

ولكنهما وصلا، دون أن يتمكنا من الفرار، عند حرس كبير من المتطوعين. كانوا هناك بمعاطفهم الصغيرة، رابضين في قاع حفرة مليئة بالماء، على طول خط السكك الحديدية. وفي هذه المرة، ومهما كرر الرجل الطويل قصته، لم يسمح لهم أحد بالمرور. وبينما هو يندب حظه، خرج من بيت البواب إلى الطريق رقيب عجوز، أبيض اللون مجعد، يشبه الأب «ستين»، وقال للأطفال: "هيا يا أطفال، لا تبكوا بعد الآن!" : "سنترككم تكملون عملكم؛ ولكن ادخلوا أولاً إلى الداخل وتدفئوا قليلاً... يبدو هذا الطفل وكأنه يتجمد من البرد !

للأسف! لم يكن «ستين» الصغير يرتجف من البرد، بل كان يرتجف من الخوف والخجل ... وفي المخفر، وجدوا بضعة جنود متجمعين حول نار هزيلة، نار أرملة حقيقية، كانوا يذيبون البسكويت على لهيبها في نهاية حرابهم. تكدسنا في الداخل لإفساح المجال للأطفال. أُعطوا قطرة وقليلًا من القهوة. وبينما هم يشربون، جاء ضابط إلى الباب ونادى الرقيب وتكلم معه بهدوء ثم غادر بسرعة.

يا أولاد!" قال الرقيب عندما دخل وهو يبتهج... سيكون هناك تبغ الليلة... ...لقد سمعنا ملاحظة "البروسيين" أعتقد أننا سنستعيدها منهم هذه المرة، تلك المدينة اللعينة ! كان هناك انفجار من الهتافات والضحك. رقص الناس وغنوا وصقلوا حرابهم واختفى الأطفال مستغلين الصخب. وبعد أن تجاوزوا الخندق لم يبق هناك سوى السهل، وفي الطرف البعيد، حائط أبيض طويل تخترقه ثغرات. اتجهوا نحو هذا الجدار، وتوقفوا في كل خطوة ليتظاهروا بأنهم يقطفون البطاطا .

"لندخل إلى الداخل... دعونا لا نذهب"، ظل «ستين» الصغير يرددها.

رفع الآخر كتفيه وواصل المسير .

وفجأة سمعوا صوت طقطقة بندقية يتم تصويبها .

قال الرجل الطويل وهو يلقي بنفسه على الأرض: "انبطح ."!

وبينما كان مستلقياً، أطلق صفيراً. وأجاب صفير آخر على الثلج. زحفوا إلى الأمام... أمام الحائط، على مستوى الأرض، ظهر شاربان أصفران تحت قبعة قذرة .

قفز الطويل إلى الخندق بجانب البروسي:
قال مشيراً إلى رفيقه: "هذا أخي ."
كان «ستين» هذا صغيراً جداً لدرجة أن البروسي ضحك عندما رآه واضطر إلى أن يأخذه بين ذراعيه ليجذبه إلى الثغرة .
وفي الجانب الآخر من السور كانت هناك سواتر ترابية كبيرة، وأشجار متساقطة، وحفر سوداء في الثلج، وفي كل حفرة نفس القبعات المتسخة، ونفس الشوارب الصفراء التي تضحك مع مرور الأطفال .
في إحدى الزوايا، كان هناك منزل بستاني مغطى بجذوع الأشجار. كان الطابق السفلي مليئاً بالجنود الذين يلعبون الورق ويصنعون الحساء على نار كبيرة ومضيئة. كانت تفوح منه رائحة الملفوف ولحم الخنزير المقدد؛ يا له من فرق عن معسكر الفرنجة! في الطابق العلوي، كان بإمكانك سماع الضباط وهم يعزفون على البيانو ويفتحون سدادة النبيذ.
وعندما دخل الباريسيون استقبلوا بحفاوة وفرح. وناولوهم صحفهم، ثم سكبوا لهم الشراب وأجروا لهم حديثاً. وكان كل الضباط يبدون متكبرين لئيمين، ولكن الرجل الطويل القامة كان يمتعهم بنشاطه القروي ومفرداته السخيفة. فضحكوا ورددوا كلماته من بعده، وتمرغوا في طين باريس الذي أحضره لهم.
وكان «ستين» الصغير يود أن يتكلم أيضاً ليثبت أنه ليس غبياً؛ ولكن شيئاً ما كان يزعجه. وكان يقف مقابله رجل بروسي أكبر سناً، أكثر جدية من الآخرين، وكان يقرأ، أو بالأحرى يتظاهر بذلك، لأن عينيه لم تفارقه أبداً. وكان هناك حنان وعتاب في نظراته، كما لو أن هذا الرجل كان له ابن في نفس عمر «ستين» في الريف، وقال لنفسه: "أفضل الموت على أن أرى ابني يقوم بعمل كهذا . . ."
منذ تلك اللحظة، شعر «ستين» وكأن يدًا كانت تضع يدها على قلبه وتوقفه عن الخفقان. وللهروب من هذا الكرب، بدأ يشرب وسرعان ما دار كل شيء حوله. وكان يسمع في غمرة الضحك الصاخب، وسط ضحكات عالية رفيقه وهو يسخر من

الحرس الوطني وطريقة تمرينهم، مقلداً حمل السلاح هناك في المستنقع، والاستنفار الليلي على الأسوار. ثم خفض الرجل الطويل من صوته، واقترب الضباط من بعضهم، وبدت على وجوههم ملامح الجدية. كان البائس ينذرهم بهجوم المتطوعين ... فوقف «ستين» الصغير غاضباً ومتزناً: "ليس هذا أيها الرجل الضخم... لا أريد ذلك ."

لكن الرجل الآخر ضحك وأكمل كلامه. وقبل أن ينتهي، كان جميع الضباط واقفين على أقدامهم. أرشد أحدهم الأطفال إلى الباب: "اخرجوا من هنا!

وبدأ يتحدثان مع بعضهما البعض بسرعة كبيرة باللغة الألمانية. فخرج الرجل الطويل القامة متكبراً مزهواً كالكلب وهو يجعل نقوده ترن. وتبعه «ستين» مطأطئ الرأس؛ وعندما مر على "البروسي" الذي أزعجته نظراته كثيراً، سمع صوتاً حزيناً يقول: " منخفض تشولي... إلى ذلك السهل... "

اغرورقت الدموع في عينيه...

وبمجرد وصولهم إليه، ركض الأطفال وعادوا بسرعة. كانت أكياسهم مليئة بالبطاطا التي أعطاهم إياها "البروسيون"، واستخدموها للوصول بأمان إلى خندق القناصة . هنا كانوا يستعدون لهجوم الليل. كانت القوات تصل بصمت، محتشدة خلف الجدران. كان الرقيب العجوز هناك مشغولاً بترتيب رجاله ويبدو في غاية السعادة !

عندما مرّ الأطفال بجانبه، تعرّف عليهم وابتسم لهم ابتسامة عريضة...

كم آلمت تلك الابتسامة «ستين» الصغير! لقد أراد للحظة أن يصرخ: "لا تذهب إلى هناك... لقد خناكم ."

لكن الآخر كان قد قال له: "إذا تكلمت سيُطلق علينا النار"، وأمسكه الخوف ...

في "لاكورنوف"، ذهبوا إلى منزل مهجور لاقتسام المال. والحقيقة أن القسمة قد تمت بأمانة وأن «ستين» الصغير لم يجد جريمته فظيعة جداً عندما سمع تلك

الرنات الجميلة تحت بلوزته، وعندما فكر في ألعاب "الڤالوش" التي كانت في انتظاره هناك.

ولكن عندما وجد نفسه وحيدا ذاك الطفل التعيس !

عندما تركه الرجل الطويل بعد البوابات، بدأت جيوبه تثقل، واليد التي كانت تقبض على قلبه تعتصر أشد من أي وقت مضى. لم تعد باريس تبدو كما كانت تبدو له. نظر إليه المارة بصرامة كما لو كانوا يعرفون من أين أتى. كان يستطيع أن يسمع كلمة جاسوس في ضجيج العجلات، وفي قرع الطبول التي كانت تدق على طول القناة. وأخيراً وصل إلى البيت، وسرعان ما صعد إلى غرفة نومه ليخبئ تحت وسادته النقود التي كانت تثقل كاهله، وكان سعيداً إذ رأى والده لم يعد بعد. لم يكن الأب «ستين» لطيفاً ومبتهجاً كما كان عندما عاد في ذلك المساء. كنا قد تلقينا للتو أخباراً من المقاطعات: كان العمل يسير على نحو أفضل. وبينما هو يأكل، نظر الجندي السابق إلى بندقيته المعلقة على الحائط ، وقال للطفل وهو يضحك ضحكة طيبة: أيها الطفل، هل كنت تذهب إلى "البريسيين" لوكنت كبيرا؟ .

حوالي الساعة الثامنة، سُمع صوت المدفع .

"إنها أوبرفيلييه... نحن نقاتل في لو بورجيه"، قال الرجل الطيب الذي كان يعرف كل حصونه. وشحب وجه «ستين» الصغير، وادعى أنه متعب جداً، وذهب إلى الفراش، ولكنه لم ينم. كان المدفع لا يزال يدوي .

وتخيل أن المتطوعين قد وصلوا ليلاً ليفاجئوا "البروسيين" ويقعوا هم أنفسهم في كمين. وتذكر الرقيب الذي ابتسم في وجهه، ورآه مستلقياً على الثلج، وكم كان معه من الجنود! كان ثمن كل تلك الدماء مخبأة هناك، تحت وسادته، وكان هو، ابن السيد «ستين»، ابن الجندي... خنقته الدموع. في الغرفة المجاورة، كان يسمع والده وهو يمشي ويفتح النافذة. وفي الطابق الأسفل، في الساحة، كان جرس الاستدعاء يدق، وكانت كتيبة من الجنود تستعد للمغادرة .

كانت بالتأكيد معركة حقيقية. لم يستطع الرجل التعيس كبح تنهيدة .

"ما الأمر؟" قال الأب «ستين» عندما دخل .

لم يستطع الطفل أن يكتمها أكثر من ذلك، فقفز من السرير وجاء ليلقي بنفسه عند قدمي والده. وبينما كان يفعل ذلك، تدحرجت العملات المعدنية على الأرض.

"ما هذا؟ " قال الرجل العجوز وهو يرتجف: "هل سرقت؟

ثم حكى «ستين» الصغير دفعة واحدة كيف ذهب إلى "البروسيين" وما فعله هناك. وبينما هو يتكلم، شعر قلبه بالحرية أكثر فأكثر، وكان من المريح أن يتهم نفسه... استمع والد «ستين» إلى ولده «ستين» وعلامات الرعب بادية على وجهه. وعندما انتهى الكلام، أخفى رأسه بين يديه وبكى .

أراد الطفل أن يقول: "أبي، أبي ."!

دفعه الرجل العجوز بعيداً دون إجابة، والتقط المال .

"هل هذا كل شيء؟

أومأ «ستين» الصغير أن هذا كل شيء. فخلع الرجل العجوز بندقيته وحزام خرطوشه ووضع النقود في جيبه وقال: "لا بأس، سأعيدها لهم."

وبدون أن يضيف كلمة واحدة، وبدون أن يدير رأسه حتى، نزل ليختلط مع الحركيين الذين كانوا يغادرون في الليل. ولم يره أحد منذ ذلك الحين.

.19.

الأب[78]

ﭬي دي موباسان 1850 ـ 1893

بما أنه كان يسكن "بيتينيول" وكان موظفا في وزارة التربية والتعليم، كان يستقل الحافلة العامة إلى مكتبه وفي كل صباح كان يسافر إلى وسط باريس، مقابل فتاة صغيرة وقع في حبها. كانت تذهب إلى متجرها في نفس الوقت من كل يوم. كانت امرأة سمراء صغيرة الحجم، من تلك السمراوات اللاتي تبدو عيونهن سوداء اللون إلى درجة أنها تبدو كالبقع، وبشرتها ذات لون عاجي. كان يراها دائماً تظهر عند ناصية نفس الشارع، فتبدأ بالركض لتلحق بالسيارة الثقيلة. وكانت تركض بقليل من التسرع والليونة والرشاقة، وتقفز على لوحة الركض قبل أن تتوقف الخيول تماماً. في المرة الأولى التي رآها فيها كانت في السيارة.

في المرة الأولى التي رآها فيها "فرانسوا تيسييه"، شعر أن هذه الشخصية تستهويه بلا حدود. فأنت تلتقي أحياناً بامرأة ترغب في أن تعانقها على الفور دون أن تعرفها. وكانت هذه الفتاة الشابة تشبع رغباته الدفينة، وتطلعاته السرية، ذلك النوع من الحب المثالي الذي تحمله في قلبك دون أن تدري. فحدق فيها رغمًا عنه. خجلت هي من هذا التأمل، أدرك ذلك وحاول أن يشيح بنظره عنها.

وبعد بضعة أيام، تعرفا على بعضهما البعض دون أن يتحدثا. وتخلى عن مقعده لها عندما امتلأت العربة وصعد إلى الطابق الأعلى رغم أنه كان يجد في ذلك ضيقاً.

---

78 Guy de Maupassant, contes du jour et de la nuit.

وكانت هي الآن تحييه بابتسامة صغيرة، وعلى الرغم من أنها كانت دائماً تخفض عينيها تحت نظراته التي كانت تشعر بأنها شديدة الحدة إلا أنها لم تعد تبدو غاضبة من أن يتأملها بهذه الطريقة.

وانتهى بهما الأمر بالحديث. ونشأ بينهما نوع من الحميمية السريعة، حميمية استمرت نصف ساعة في اليوم. وكانت تلك بالتأكيد أكثر نصف ساعة ساحرة في حياته. وكان يفكر فيها طوال الوقت الباقي، ويراها مراراً وتكراراً أثناء جلسات المكتب الطويلة، مسكوناً بها، ممسوساً بها، تغزوه تلك الصورة العائمة العنيدة التي يتركها فينا وجه المرأة المحبوبة. وبدا له أن الاستحواذ الكامل على هذه الصغيرة سيكون بالنسبة له سعادة جنونية، تكاد تفوق ما يمكن أن يحققه الإنسان.

وكانت تصافحه في كل صباح، وكان يحتفظ بإحساس تلك اللمسة حتى المساء، ذكرى في لحمه للضغط الرقيق لتلك الأصابع الصغيرة؛ وبدا له أنه احتفظ ببصمتها على جلده. وكان ينتظر بقية الوقت بفارغ الصبر تلك الرحلة القصيرة في الحافلة العامة. ولا شك أنها كانت تحبه أيضاً، لأنها وافقت ذات يوم سبت من أيام الربيع على الذهاب معه لتناول الغداء وهي كانت أول من انتظرته في المحطة. فوجئ بها، ولكنها قالت له: (قبل أن نغادر، أريد أن أتحدث إليك). إن أمامنا عشرون دقيقة: هذا وقت أكثر من كاف، وكانت ترتجف وهي تتكئ على ذراعه وعيناها منكسرتان ووجنتاها شاحبتان، وتابعت:

- لا يجب أن تخدع نفسك بشأني. أنا فتاة صادقة، ولن أذهب معك إلى هناك إلا إذا وعدتني، إلا إذا أقسمت لي أنك لن تفعل شيئاً... هذا غير لائق... لقد احمرت فجأة أكثر من الخشخاش. صمتت ولم يكن يعرف ماذا يقول، سعيداً ومحبطاً في نفس الوقت. في قرارة نفسه، ربما كان يفضلها على هذا النحو؛ ومع ذلك... ومع ذلك قد سمح لنفسه أن يسترخي الليلة الماضية بأحلامه التي أشعلت النار في عروقه. وكان حتماً سيقبل حبه لها إذا علم أنها كانت خفيفة الظل، ولكنها كانت

ستكون فاتنة جداً ولذيذة جداً بالنسبة له! وكانت كل حسابات الرجال الأنانية في مسائل الحب تعمل في ذهنه، ولما لم يقل شيئاً، بدأت تتكلم مرة أخرى بصوت عاطفي والدموع في زوايا عينيها:

. إذا لم تعدني باحترامي احتراماً كاملاً فسأعود إلى البيت فضغط على ذراعها في حنان وأجابها:

- أعدك بأنك لن تفعلي إلا ما تريدين؛ فبدا عليها الارتياح وسألها مبتسماً:

- هل هذا صحيح حقاً؟ فنظر في عينيها بعمق:

- أقسم لك - قالت:

- لنأخذ التذاكر، قالت:

- لم يستطيعا أن يتحدثا في الطريق، لأن العربة كانت ممتلئة؛ وعندما وصلا إلى (ميزون لافييت) اتجها إلى نهر السين.

كان الهواء الدافئ يلطف الجسد والروح. وكانت الشمس تسقط بكامل قوتها على النهر، وعلى أوراق الشجر والمروج، فتلقي ألف انعكاس من البهجة على الأجساد والأرواح. ومشيا يداً بيد على طول ضفة النهر، وهما يراقبان الأسماك الصغيرة وهي تنزلق في جحافل بين المائين. قالت في النهاية: - لا بد أنك تظنني مجنونة، فسألها:

- لماذا هذا؟ فأكملت: - لماذا؟

- . أليس من الجنون أن تأتي إلى هنا بمفردك هكذا؟

. لا! هذا طبيعي

. لا! لا! ليس طبيعياً. بالنسبة لي

. لأنني لا أريد أن أرتكب الأخطاء

. هكذا ترتكب الأخطاء. لكن لو تعلمون فقط! إنه لأمر محزن للغاية، كل يوم نفس الشيء، كل يوم من أيام الشهر وكل شهر من شهور السنة. أنا وحدي مع أمي. وبما أنها عانت الكثير من وجع القلب، فهي ليست مبتهجة للغاية. أفعل ما بوسعي.

أحاول أن أضحك مع ذلك، لكنني لا أنجح دائماً، كان من الخطأ أن آتي. لن تحملي ذلك ضدي على الأقل. ورداً على ذلك، قبّل أذنها بخفة. ولكنها ابتعدت عنه بحركة مفاجئة ثم قالت غاضبة فجأة:

. آه يا مسيو فرانسوا بعد الذي أقسمت به لي. ثم عادا سيراً على الأقدام نحو ميزون لافيت، وتناولا الغداء في (لو بيتي هافر) وهو منزل منخفض مدفون تحت أربع أشجار حور ضخمة على حافة الماء.

وكان الهواء المنعش والحرارة والنبيذ الأبيض القليل، وعناء الشعور بالقرب من بعضهما البعض قد جعلهما يحمران ويضطربان ويصمتان؛ ولكن بعد القهوة غمرهما فرح مفاجئ، وبعد أن عبرا نهر السين انطلقا مرة أخرى على طول الضفة، نحو قرية لا فريت وفجأة سأل - ما اسمك يا لويز"، كرر ما قاله، ولم يعد يقول أكثر من ذلك، وانحنى النهر حول منعطف طويل، وغسل صفاً من البيوت البيضاء على بعده، وكانت مقلوبة رأساً على عقب في الماء. وكانت الفتاة الصغيرة تقطف زهور الأقحوان وتصنع حزمة كبيرة من الزهور، وكان هو يغني بأعلى صوته، رمادي اللون كحصان صغير قد خرج لتوه إلى المرعى، وإلى يسارهما كان هناك تل مزروع بالكروم يتبع النهر. ولكن فرانسوا توقف فجأة ووقف بلا حراك في دهشة: "أوه، انظروا".

كانت الكروم قد توقفت عن النمو، وكان سفح التل كله مغطى بزهر الليلك. لقد كانت غابة أرجوانية، نوعاً من البساط العظيم الممتد على الأرض يصل إلى القرية على بعد كيلومترين أو ثلاثة كيلومترات، وكانت متأثرة كما كانت دائماً. وغمغمت قائلة: (أوه، كم هذا جميل!) ثم عبرتا حقلاً ثم ركضتا نحو هذا التل الغريب الذي كان كل عام يمد كل الزنبق الذي كانت تبيعه البائعات في عربات الباعة المتجولات في باريس. واختفى طريق ضيق تحت الشجيرات. سلكاه، وبعد أن وصلا إلى فسحة صغيرة، جلسا.

وكانت جحافل من الذباب تطن فوقهم محدثة طنيناً ناعماً متصلاً في الهواء. وكانت الشمس، الشمس العظيمة في يوم عديم النسيم، تضرب على سفح التل الطويل المكشوف فتفوح من هذه الغابة رائحة قوية من باقات الزهور، ونفحة عطر هائلة، وعرق الزهور. رن جرس الكنيسة من بعيد، ثم تعانقا في هدوء، ثم استلقيا على العشب غير مدركين لشيء سوى قبلتهما. كانت قد أغمضت عينيها وكانت ممسكة به بين ذراعيها، ممسكة به بجنون، دون أن تفكر، فاقدة لعقلها، مخدرة من رأسها إلى أخمص قدميها في انتظار عاطفي. وأعطت نفسها بالكامل، دون أن تعرف ما تفعله، دون أن تفهم حتى أنها سلمت نفسها له.

حاول مواساتها. لكنها أرادت أن ترحل مرة أخرى، أن تعود، أن تعود في الحال. وظلَّتْ تُردِّدُ وهي تتقدَّمُ بخطواتٍ حثيثة: "يا إلهي، يا إلهي!" فقال لها: "لويز! كانت عظام وجنتيها الآن حمراء وعيناها غائرتان. وما أن وصلا إلى محطة باريس، حتى تركته دون أن تودعه.

عندما قابلها في اليوم التالي في الحافلة العامة، بدت متغيرة ونحيفة. وبمجرد أن أصبحا بمفردهما على الرصيف قالت: "يجب أن نقول وداعاً. لا يمكنني أن أراك مرة أخرى بعد ما حدث، فتلعثم قائلاً: "ولكن لماذا؟ لأنني لا أستطيع، لقد كنت مذنباً. كنت مذنباً. ولن أكون مذنباً بعد الآن. وهكذا توسل إليها، وتودد إليها متوسلاً، معذباً بالرغبة، مسكوناً بالحاجة إلى أن يستأثر بها لنفسه في هجران مطلق من ليالي الحب. فأجابت بعناد:

- لا، لا أستطيع. لا، لا أستطيع.

لكنه أصبح أكثر حيوية وحماسة. ووعدها بالزواج منها. ولم يرها لمدة ثمانية أيام. ولم يقابلها أبداً، وبما أنه لم يكن يعرف عنوانها، فقد ظن أنها ضاعت إلى الأبد. وفي اليوم التاسع، في المساء، رن جرس الباب. ذهب لفتحه. كانت هي. رمت بنفسها بين ذراعيه ولم تعد تقاومه. لمدة ثلاثة أشهر كانت عشيقته. كان قد بدأ يتعب منها عندما أخبرته أنها سمينة. وبما أنه لم يستطع أن يفعل ذلك، ولم

يعرف كيف، ولم يعرف ماذا يقول، وكان مضطرباً من الهموم، خائفاً من هذا الطفل الذي يكبر، اتخذ قراراً سامياً. لقد رحل ذات ليلة واختفى، وكانت الضربة قاسية لدرجة أنها لم تبحث عن الرجل الذي تخلى عنها. رمت بنفسها على ركبتي أمها معترفة بسوء حظها، وبعد بضعة أشهر أنجبت صبيًا.

مرت السنوات. كبر "فرانسوا تيسييه" دون أي تغيير في حياته. وعاش حياة البيروقراطي الرتيبة المملة الرتيبة، دون أي آمال أو توقعات. كان يستيقظ كل يوم في نفس الوقت، ويمشي في نفس الشوارع، ويمر من نفس الباب أمام نفس البواب، ويدخل نفس المكتب، ويجلس على نفس الكرسي، ويقوم بنفس العمل. وكان وحيداً في هذا العالم، وحيداً في النهار بين زملائه غير المبالين، وحيداً في الليل في مسكنه كنادل. وكان يدخر مائة فرنك شهرياً من أجل الشيخوخة.

وكان يقوم كل يوم أحد برحلة إلى الشانزليزيه ليشاهد الناس الأنيقين والعربات والنساء الجميلات يمرون في كل يوم أحد، وفي اليوم التالي قال لرفيقه: (لقد كانت عودته بالأمس من الغابة رائعة جداً. وفي يوم أحد من أيام الأحد وبالصدفة دخل، بعد أن سلك الشوارع الجديدة، إلى حديقة "مونسو". وكان صباحاً صيفياً صافياً، وكانت الخادمات والأمهات جالسات على طول الطرقات يراقبن الأطفال وهم يلعبون أمامهن.

ولكن فجأة ارتجف فرانسوا تيسييه. كانت هناك امرأة تمشي أمامه، وهي تحمل طفلين: صبي صغير في العاشرة من عمره وطفلة صغيرة في الرابعة من عمرها. كانت هي، فسار مائة خطوة أخرى ثم غاص في كرسي وقد خنقته العاطفة. لم تتعرف عليه. فعاد محاولاً رؤيتها مرة أخرى. كانت جالسة الآن. وظل الصبي هادئاً جداً إلى جانبها، بينما كانت الفتاة الصغيرة تصنع الفطائر. كانت هي، كانت هي حقاً. وكان لها مظهر السيدة الجدية والوقار، وكان ثوبها بسيطاً، ومظهرها واثقاً وقوراً، وكان يراقبها من بعيد، ولم يجرؤ على الاقتراب منها. رفع الفتى الصغير رأسه. فشعر فرانسوا تيسييه بالارتعاش. لا بد أنه كان ابنه. ونظر إليه فظن أنه عرف نفسه كما

كان في صورة التقطت له في الماضي، وظل مختبئاً وراء شجرة ينتظر رحيلها حتى يتمكن من اللحاق بها.

لم ينم الليلة التالية. ظلت فكرة الطفل تزعجه. !ابنه لو كان بإمكانه أن يعرف، لو كان متأكداً! لكن ماذا كان سيفعل؟ لقد رأى منزلها وسأل عنها. وعلم أنها قد تزوجت من أحد جيرانها، وهو رجل شريف ذو أخلاق رفيعة، وقد تأثر بمحنتها. وكان هذا الرجل، وهو يعرف الخطأ ويغفره، قد تعرف حتى على الطفل، طفله فرانسوا تيسييه، وكان يعود إلى بارك مونسو كل يوم أحد. وكان يراها كل يوم أحد، وفي كل مرة كانت تنتابه رغبة مجنونة لا تقاوم في أن يأخذ ابنه بين ذراعيه، وأن يغمره بالقبلات، وأن يأخذه بعيداً، وأن يسرقه. وكان يعاني في عزلته البائسة معاناة رهيبة كرجل عجوز بلا عواطف؛ وكان يعاني عذاباً فظيعاً يمزقه حنان الأبوة المكون من الندم والحسد والغيرة وتلك الحاجة إلى حب صغاره التي أودعتها الطبيعة في أحشاء الكائنات.

وذات يوم، وبينما كانت تدخل الحديقة، إذا به يتقدم نحوها ويقول لها وهو واقف في منتصف الطريق، وقد ارتعدت فرائصه وشفتاه ترتجفان: (ألا تعرفينني؟) فنظرت إليه وأطلقت صرخة خائفة، صرخة رعب، ثم أمسكت طفليها من يديها وهربت وهي تجرهما وراءها.

ذهب إلى المنزل ليبكي، ومرت شهور. لم يعد يراها. لكنه عانى ليلاً ونهاراً مستغرقاً في حنانه كأب. كان يود أن يموت ليلاً ونهاراً ليحتضن ابنه، كان يود أن يموت ويقتل، كان يود أن يقوم بكل عمل، ويتحدى كل خطر، ويحاول كل جرأة. كتب إليها. لم ترد عليه. بعد عشرين رسالة، أدرك أنه لا يمكنه أن يأمل في كسبها. فاتخذ قراراً يائساً، وكان مستعداً لأن يطلق النار على قلبه بمسدس إذا لزم الأمر، فأرسل إلى زوجها رسالة فيها بضع كلمات: (سيدي، لا بد أن اسمي مصدر رعب لك. ولكني في غاية البؤس وعذاب الأسى بحيث لا أمل لي إلا فيك، وقد جئت أطلب منك مقابلة لمدة عشر دقائق فقط، ولي الشرف... الخ." وفي اليوم التالي جاءه

الرد: "سيدي، أتوقع حضورك يوم الثلاثاء الساعة الخامسة. وبينما كان يصعد السلالم، كان فرانسوا تيسييه يتوقف عند كل درجة، وكان قلبه يخفق بشدة. كان هناك صوت متسارع في صدره، مثل صوت ركض حيوان يركض بعنف. في الطابق الثالث، قرع الجرس. جاءت خادمة لتفتح الباب. إنه هنا يا سيدي. ودخل صالوناً برجوازياً. كان وحيداً؛ انتظر مضطرباً وكأنه في خضم كارثة، ففتح الباب. ظهر رجل. كان طويل القامة، جاداً، سميناً بعض الشيء، يرتدي معطفاً أسود. جلس فرانسوا تيسييه، ثم قال بصوت لاهث:

- سيدي... سيدي... سيدي... لا أعرف إن كنت تعرف اسمي... إن كنت تعرف...

قاطعه السيد فلاميل:

- لا فائدة يا سيدي، أعرف. زوجتي أخبرتني عنك وكانت له نبرة الوقار التي يتحلى بها الرجل الصالح الذي يريد أن يكون صارماً، والفخامة البرجوازية التي يتحلى بها الرجل الصادق. وتابع فرانسوا تيسييه: "حسناً يا سيدي، هذا كل شيء. إنني أحتضر من الحزن والندم والخجل، وأود لمرة واحدة فقط، لمرة واحدة فقط، أن أقبل... الطفل... نهض السيد فلاميل وذهب إلى المدفأة وقرع الجرس. وخرجت. وبقيا وجهًا لوجه، صامتين لا يقول كل منهما للآخر شيئًا، ينتظران. ثم فجأة اندفع صبي صغير في العاشرة من عمره إلى غرفة الجلوس وركض إلى الرجل الذي ظن أنه والده. لكنه توقف مرتبكًا عندما رأى شخصًا غريبًا. فقبله السيد فلاميل على جبينه، ثم قال:

- والآن أعط السيد قبلة يا عزيزي. وانصرف الطفل في رفق وهو ينظر إلى هذا الغريب، وكان فرانسوا تيسييه قد نهض. وألقى قبعته وهو على أهبة السقوط، ثم حدق في ابنه. وكان السيد فلاميل قد أشاح بوجهه بعيداً بدافع من الرقة، وكان ينظر من النافذة إلى الشارع، فانتظر الطفل مندهشاً. التقط القبعة وأعادها إلى الغريب. ثم أخذ فرانسوا الطفل بين ذراعيه وراح يقبله بجنون على وجهه كله، على عينيه وخديه وفمه وشعره. وحاول الصبي الذي أخافه هذا الوابل من

القبلات أن يتفاداها، فأدار رأسه بعيداً، وفرد يديه الصغيرتين على شفتي الرجل الدهنيتين، ولكن فرانسوا تيسييه أعاده فجأة إلى الأرض. وصاح: "وداعاً، وداعاً!" وهرب كاللص.

.20.

صائد الفئران[79]

بروسبار ميريماي 1803ـ 1870

منذ سنوات عديدة مضت، كان أهل "هاملن"[80] معذبين بأعداد لا تحصى من الجرذان التي كانت تأتي من الشمال في قوات كثيفة لدرجة أن الأرض كانت كلها سوداء، وأن سائق عربة لم يكن يجرؤ على أن يجعل خيوله تعبر طريقاً تتجول فيه هذه الحيوانات. لقد كان كل شيء يلتهم كل شيء في غمضة عين: وفي الحظيرة كان التهام هذه الجرذان لبرميل من القمح أهون من التهامها لكأس من هذا النبيذ الفاخر...

كانت مصيدة الفئران والفخ والسم كلها عديمة الفائدة. وجيء بمركب محمل بإحدى عشرة مائة قطة من "بريمن"، ولكن لم ينفع شيء. ومقابل كل ألف قتلوه، عاد عشرة آلاف فأر، وعادوا أكثر جوعًا من الأول. وباختصار، لو لم يتم علاج هذا الطاعون لما بقيت حبة قمح في "هاملن"، ولمات جميع السكان من الجوع.

وفي أحد أيام الجمعة ظهر أمام عمدة البلدة رجل طويل القامة جاف البشرة، بعينين واسعتين وفم مشقوق حتى أذنيه، يرتدي ثوباً أحمر اللون وقبعة مدببة

---

79. PROSPER MÉRIMÉE, *Chronique du règne de Charles IX* (Calmann-Lévy, édit.)

80 Hameln : petite ville de Hanovre, sur le Weser

وسروالاً كبيراً مزركشاً بشرائط وجوارب رمادية وحذاءً ذا وردة ملونة بلون النار. كان يحمل حقيبة جلدية صغيرة إلى جانبه. أعتقد أنني ما زلت أستطيع رؤيته.

لقد عرض على رئيس البلدية، مقابل مائة دوقية، أن ينقذ البلدة من الطاعون الذي كان يجتاحها. يمكنكم أن تتخيلوا أن رئيس البلدية ومن معه وافقوا في الحين. وفي الحال استل الغريب مزماراً برونزياً من حقيبته، وبعد أن زرع نفسه في ساحة السوق، أمام الكنيسة، ولكنه أدار ظهره إليها، بدأ يعزف لحناً غريباً لم يعزف مثله أي عازف مزمار ألماني من قبل. وبسماع هذا اللحن، أقبلت إليه الجرذان والفئران، مئات وآلاف منها، تهرول إليه من كل علية، ومن كل ثقب في الجدران، ومن تحت العوارض الخشبية وبلاط السقف. وشق الغريب، وهو لا يزال يرفرف، طريقه نحو نهر "الويزر"؛ وهناك بعد أن انتعل حذاءه، دخل الماء وتبعه كل جرذان هاملن الذين غرقوا في الحال.
... ولكن عندما ذهب الغريب إلى دار البلدية ليأخذ المكافأة الموعودة، لم يخجل رئيس البلدية والسكان، ظناً منهم أنه لم يعد لديهم ما يخشونه من الجرذان، وتصوروا أن بإمكانهم أن يستفيدوا من رجل بلا حماة، لم يخجلوا من أن يقدموا له عشرة دوكات بدلاً من المائة التي وعدوه بها. طلب الأجنبي المزيد، فصرفوه. ثم هددوه. عندذاك حذرهم بأنهم سيدفعون له أكثر من ذلك إذا لم يلتزموا باتفاقهم حرفياً. ضحك المسؤولون بصوت عالٍ على هذا التهديد وطردوه من دار البلدية، ونعتوه بـ "صائد الفئران"، وهي إهانة رددها أطفال البلدة وهم يتبعونه في الشوارع إلى "بورت نوف"[81]. وفي يوم الجمعة التالي، في منتصف النهار، ظهر الغريب مرة أخرى في ساحة السوق، ولكن هذه المرة مرتدياً قبعة أرجوانية اللون مقلوبة بطريقة غريبة جداً. واستخرج من حقيبته مزماراً مختلفاً تماماً عن المزمار الأول،

[81] la Porte-Neuve

وما إن بدأ العزف عليه حتى تبعه جميع الصبيان في البلدة من سن السادسة إلى الخامسة عشرة وغادروا معه البلدة.

وتبعهم أهل "هاملن" إلى جبل "كوبنبرج"[82]، إلى كهف عميق سحيق. دخل عازف الناي وجميع الأطفال معه. سُمع صوت الناي لفترة من الوقت، لكنه خف تدريجياً، وأخيراً لم يُسمع أي شيء. كان الأطفال قد اختفوا، ومنذ ذلك الحين لم يُسمع عنهم شيء مرة أخرى.

82 Koppenberg,

.21.

كان الأمر أشبه بالظهور [83]:

قيستاف فلوبار 1821ـ 1880

كانت جالسة في وسط المقعد، وحيدة؛ أو على الأقل لم يستطع أن يتبين أحداً في وهج عينيها. وعندما مر بها رفعت رأسها؛ فأحنى كتفيه لا إرادياً؛ وعندما ابتعد أكثر من ذلك، إلى نفس الجانب، نظر إليها[84].

كانت ترتدي قبعة عريضة من القش تتدلى خلفها شرائط وردية ترفرف في مهب الريح. وكانت عصبة رأسها السوداء، التي تطوق أطراف حاجبيها الكبيرين، تنسدل منخفضة جداً وتبدو وكأنها تضغط بحنان على بيضاوية وجهها. كان فستانها المصنوع من الشاش الشاحب، المرقط بالبازلاء الصغيرة، منتشرًا في طيات عديدة. كانت تطرز شيئاً ما؛ وكان أنفها المستقيم وذقنها وشخصها كله بارزاً في مواجهة الهواء الأزرق.

---

83 *Flaubert - L'éducation sentimentale - Extrait du chapitre 1 de la première partie*

84 هذا المقتطف من رواية "التعليم العاطفي"، وهي رواية لفلوبير نُشرت عام 1869، في الفصل الأول من الجزء الأول. الشاب فريديريك في طريقه إلى منزله في نوجان. يلتقي على متن القارب بامرأة متزوجة يقع في حبها على الفور. نشهد ولادة الشغف بامرأة متزوجة يعشقها الشاب مباشرة. كما هو الحال دائمًا مع فلوبير، يتم تقديم الوصف من خلال عيون فريدريك. لذلك ليس لدينا أي تركيز، حيث ينزلق الراوي في ملاحظاته...

وبينما كانت تحافظ على نفس الموقف، قام بعدة التفاتات يميناً ويساراً لإخفاء مناورته؛ ثم وضع نفسه بالقرب من مظلته التي كانت مستندة إلى المقعد، وتظاهر بأنه يراقب زورقاً في النهر.
لم يسبق له أن رأى روعة بشرتها السمراء، ولا روعة خصرها المغري، ولا رقة أصابعها التي يسطع الضوء من خلالها. حدّق في سلّة عمله في دهشة، كما لو كانت شيئاً غير عادي. ماذا كان اسمها، بيتها، حياتها، ماضيها؟ لقد أراد أن يعرف أثاث غرفتها، وكل الأثاث الذي كانت ترتديه، وكل الفساتين التي كانت ترتديها، والأشخاص الذين عرفتهم؛ واختفت الرغبة في التملك المادي نفسه تحت رغبة أعمق، في فضول مؤلم لا يعرف حدوداً.
تقدمت امرأة زنجية ترتدي الحجاب وهي تمسك بيد طفلة صغيرة كانت قد كبرت بالفعل. كانت الطفلة التي كانت عيناها تذرفان الدموع قد استيقظت للتو. أخذتها في حضنها. "لم تعد أمها تحبها، فقد كانت متسامحة جداً مع نزواتها." وكان فريدريك مسروراً لسماع هذه الأشياء، كما لو كان قد اكتشف اكتشافاً واكتساباً.
فافترض أنها من أصل أندلسي، وربما كانت من "الكريول"؛ فهل أحضرت هذه الزنجية معها من الجزر؟

غير أن شالاً طويلاً مخططاً بالأرجواني كان مدسوساً خلف ظهرها على اللوح النحاسي. ولا بد أنها في كثير من الأحيان، في وسط البحر، في الأمسيات الرطبة، لا بد أنها كانت تلفه حول خصرها، وتغطي به قدميها، وتنام فيه! ولكنه انزلق شيئاً فشيئاً، وهو يجرها على الأهداب، وكان على وشك السقوط في الماء، فقفز فريدريك وأمسك به. قالت له

-شكراً لك يا سيدي » .

والتقت أعينهما.

- زوجتي، هل أنتِ مستعدة؟ " صرخ السيد أرنو، وهو يظهر في غطاء الدرج.

.22.

حارس المكتبة[85]

ألفونس دوداي 1840ـ 1897

"**بررر**...، يا له من ضباب "! قال الرجل مشمئزا وهو يخطو إلى الشارع. وسرعان ما رفع ياقته وسحب كشكوله على فمه، ثم طأطأ رأسه ووضع يديه في جيوبه، وانطلق إلى المكتب.

ضباب حقيقي بالفعل. في الشوارع، ما زال الضباب لا شيء؛ أما في قلب المدن الكبيرة، فالضباب لا يدوم أكثر من الثلج. تمزقه الأسقف، وتمتصه الجدران، ويختفي في البيوت كلما فتحتها، فيجعل السلالم زلقة والمدارج رطبة. حركة السيارات وذهاب المارة ومجيئهم، هؤلاء المارة المستعجلون والفقراء جداً، تقطّعوا عليه وحملوه بعيداً وبعثروه. لقد تشبث بملابس المكتب الضيقة الرقيقة، وملابس فتيات المتاجر الواقية من الماء، والحجاب الصغير المترهل، وصناديق القماش الزيتية الكبيرة. ولكن على الأرصفة التي لا تزال مهجورة، على الجسور، على ضفة النهر، ضباب ثقيل، معتم، لا حراك فيه، حيث تشرق الشمس، هناك، خلف "نوتردام"[86]، مع بريق ضوء الليل في زجاج بلّوري.

على الرغم من الرّياح، وعلى الرّغم من الضّباب، فإن الرجل المعني يتبع الأرصفة، الأرصفة دائماً، للوصول إلى مكتبه. بإمكانه أن يسلك طريقاً آخر، لكن يبدو أن للنهر جاذبية غامضة بالنسبة له. إنه لمن دواعي سروره أن يسير على طول

[85] Alphonse Daudet, contes du lundi.

[86] Notre-Dame

الحواجز، وأن يتخطى المنحدرات الحجرية التي تتآكلها أكواع المتنزهين. في هذا الوقت من اليوم، وفي هذا الطقس، يندر وجود عربات الأطفال. ومع ذلك، تصادف من وقت لآخر امرأة تحمل حمولة من الغسيل مستندة إلى الحاجز، أو شيطان مسكين يميل نحو الماء في جو من الملل. وفي كل مرة يستدير الرجل وينظر إليهم بفضول، وإلى الماء من بعدهم، كما لو أن فكرة حميمة تربط هؤلاء الأشخاص بالنهر في ذهنه.

النهر ليس مكانًا سعيدًا هذا الصباح. يبدو الضباب الذي يتصاعد بين الأمواج وكأنه يثقله. والأسطح المظلمة على الضفاف، وكل تلك المداخن المائلة غير المستوية التي تنعكس وتتقاطع وتدخن في وسط الماء، تجعلك تفكر في مصنع كئيب يرسل من قاع نهر السين كل دخانه إلى باريس في الضباب. لا يبدو أن رجلنا لا يجد كل هذا الحزن. فالرطوبة تتغلغل فيه في كل مكان، وملابسه لم يجف منها خيط؛ ولكنه يمضي في كل ذلك وهو يصفر بابتسامة سعيدة على زاوية شفتيه. لقد اعتاد على ضباب السين منذ زمن طويل! ثم هو يعلم أنه عندما يصل إلى هناك سيجد غطاء السرير الجيد المحشو جيداً، وموقده الذي يشخر وهو ينتظر، والموقد الصغير الذي يعد فيه فطوره كل صباح. هذه هي ملذات الكاتب، ومباهج السجن التي لا يعرفها إلا أولئك المساكين المنكمشون الذين تدور حياتهم كلها حول زاوية. "يجب ألا أنسى أن أشتري التفاح"، يقول لنفسه بين الحين والآخر، ويصفر ويسرع. لم يسبق لك أن رأيت أحدًا يذهب إلى العمل بهذا القدر من البهجة.

الأرصفة، دائمًا الأرصفة، ثم الجسر. الآن هو خلف نوتردام.[87] في هذه النقطة من الجزيرة، الضباب أكثر كثافة من أي وقت مضى. إنه يأتي من ثلاث جهات في آن واحد، ويغمر الأبراج العالية نصف إغراق، ويتجمع حول زاوية الجسر، كما لو أنه يحاول إخفاء شيء ما. يتوقف الرجل، إنه هناك.

---

[87] Notre-Dame

يمكنك أن تتبين ظلالاً مشؤومة، وأناساً رابضين على الرصيف، يبدون وكأنهم ينتظرون، وكما هو الحال عند أبواب التكايا والساحات، تنتشر الأكشاك التي تحمل صفوفاً من البسكويت والبرتقال والتفاح. آه، التفاح الجميل، الطازج جداً، الأحمر جداً تحت الضباب... يملأ جيوبه بها، ويبتسم لصاحبة الدكان التي ترتجف وقدماها على مدفئتها؛ ثم يدفع باباً مفتوحاً في الضباب، ويعبر فناءً صغيراً حيث تقف عربة يجرها حصان.

"هل لديه أي شيء لنا؟" يسأل وهو يمر من أمامه. فيجيب سائق عربة يقطر منه الماء:

"نعم يا سيدي، وحتى شيء لطيف.

فأسرع إلى مكتبه.

هناك حيث الجو دافئ ومريح! الموقد يشخر في الزاوية. المستشار في مكانها. كرسيه الصغير في انتظاره، في وضح النهار، بالقرب من النافذة. الضباب الذي يكسو النوافذ يخلق ضوءاً خافتاً متساوياً، والدفاتر ذات الظهر الأخضر مرتبة بعناية في فتحات الحمام. مكتب موثق حقيقي.

يمكن للرجل أن يتنفس؛ إنه في المنزل.

وقبل أن يشرع في عمله، يفتح خزانة كبيرة، ويخرج منها زوجاً من أكمام التلميع، ويمرر بعناية طبقاً صغيراً من التراب الأحمر، وبعض مكعبات السكر من المقهى، ويبدأ في تقشير تفاحه، وينظر حوله في ارتياح. والحقيقة أنه لا يمكنك أن تجد مكتبًا أكثر بهجة أو أكثر صفاءً أو أكثر ترتيبًا. من أكثر الأشياء الغريبة فيه، على سبيل المثال، هو صوت الماء الذي يحيط بك من كل جانب، ويغلفك كما لو كنت في غرفة السفينة. في الأسفل، يهدر نهر السين على أقواس الجسر، ويشق تياره الرغوي عند طرف الجزيرة، التي تعجّ دائماً بالألواح الخشبية والأعمدة وحطام السفن. في المنزل نفسه، في كل مكان حول المكتب، إنه ماء يتدفق في أباريق مملوءة، قعقعة ماء عظيم. لا أعرف لماذا يجمدك هذا الماء بمجرد سماعه.

يمكنك أن تشعر به وهو يرتطم بالأرضية الصلبة، ويرتد عن الأحجار العريضة والطاولات الرخامية التي تجعله يبدو أكثر برودة.
ماذا لديهم لغسله في هذا المنزل الغريب؟ أي بقعة لا تمحى؟
في بعض الأحيان، عندما يتوقف السيلان هناك في الخلف، تتساقط القطرات واحدة تلو الأخرى، كما لو كانت بعد ذوبان الجليد أو بعد هطول أمطار غزيرة.
يبدو الأمر كما لو أن الضباب المتراكم على الأسطح والجدران يذوب في حرارة الموقد ويتساقط باستمرار.
لا يلاحظ الرجل أي شيء. إنه مشغول تماماً بتفاحه الذي بدأ يغني في الطبق الأحمر بلمحة من الكراميل؛ وهذا الغناء الجميل يمنعه من سماع صوت الماء، صوت الماء الشرير.
يقول صوت أجش من الغرفة الخلفية: "متى شئت أيها الكاتب!". ألقى نظرة على تفاحه وغادر على مضض. إلى أين ذهب؟ من الباب الموارب لدقيقة يأتي هواء بارد رقيق، بارد تفوح منه رائحة القصب، رائحة المستنقعات ورائحة المستنقعات ورؤية ملابس تجف على الحبال، بلوزات باهتة، برغر، ثوب هندي معلق من أكمامه، يقطر.
انتهى كل شيء الآن. يعود. يضع بعض الأغراض الصغيرة على الطاولة، وكلها مبللة بالماء، ويعود إلى الموقد ليمدّ يديه المحمرتين من البرد.
انتهى كل شيء الآن. ها هو يذهب مرة أخرى. وضع بعض الأغراض الصغيرة على المنضدة، وكلها مبللة بالماء، وعاد إلى الموقد ليمدّ يديه المحمرتين من البرد.
قال لنفسه وهو يرتجف: "لا بد أنك مجنون حقاً في هذا الطقس."
ولما كان قد تدفأ جيداً، وبدأ السكر يتحلب حول حواف الطبق، بدأ يتناول فطوره على زاوية من مكتبه. وبينما كان يأكل، فتح أحد دفاتر دفاتره وتصفح فيها برضا نفس. كان هذا الدفتر محفوظًا جيدًا! خطوط مستقيمة، وعناوين بالحبر الأزرق، وبريق صغير من غبار الذهب، ونشافات على كل صفحة، وعناية وترتيب...

يبدو أن العمل يسير على ما يرام. يتمتع الرجل الطيب بهيئة محاسب راضٍ عن نفسه وهو يواجه جرداً جيداً في نهاية العام. وبينما كان يقلب صفحات دفتره، فُتحت الأبواب في الغرفة المجاورة، وترددت أصداء خطوات حشد من الناس على أحجار العلم؛ وتكلم الناس بأنصاف أصوات كما لو كانوا في كنيسة.
"أوه، كم هي صغيرة... يا للعار!
ويدفع بعضهم بعضًا ويتهامسون...
ما الذي يهمه أنها صغيرة السن؟ بهدوء، بينما كان ينهي تفاحه، يرسم أمامه الأشياء التي أحضرها في وقت سابق. نرد مليء بالرمل، وحافظة نقود بداخلها قرش واحد، ومقص صغير، صدأ لدرجة أنه لن يستعمله مرة أخرى - أوه، أبداً؛ وكتيب عامل صفحاته ملتصقة ببعضها؛ ورسالة رثة باهتة عليها بضع كلمات" :الطفلة... لا مال... شهور مع ممرضة."...
هَزَّ المحاسب كتفيه وكأنه يقول
"أعرف كل شيء عن ذلك."
ثم التقط ريشته، ونفض بحذر فتات الخبز الذي سقط على دفتره، وأومأ بيده ليضعها بحزم، وبيده المستديرة الجميلة كتب الاسم الذي فك رموزه للتو على الدفتر المبلل:
فيليسي [88]رامو، حارقة، في السابعة عشرة من عمرها.

[88] Félicie Rameau, brunisseuse, dix-sept ans.

.23.

الشيء الصّغير[89]

ألفونس دوداي 1840ـ 1897

نُشرت رواية "Le Petit Chose" لألفونس دوداي في مجلد عام 1868. وقد تركت هذه الرواية التي تتحدث عن طفولة بائسة تقترب من نهايتها وصعوبات المراهقة ومعاناة فتى لا ذنب له ما عدا فقره وقلة ذات يد والده أثرًا لا يمحى في نفوس القراء لدقة نبرتها. ووضوح مغازيها في زمن يشبه كل الأزمنة، وهذا جزء منها:

" أول ما لفت انتباهي عند وصولي إلى المدرسة هو أنني كنت الوحيد الذي كان يرتدي "بلوزه" ذاك الثوب الشعبي القصير. في «ليون»، لا يرتدي أبناء الأغنياء هذا الثوب الذي يشبه معاطف المختبر؛ إنهم فقط أبناء الشوارع من يرتديه، "المشردون" كما يقولون. كنت أرتدي "بلوزه" صغيرة قصيرة، وكنت أبدو مثل هؤلاء المشردين... عندما دخلت الفصل، ضحك التلاميذ بسخرية مقيتة وقال بعضهم: "انظروا، إنه يرتدي معطفا! تجهم المدرس وامتعض وكرهني على الفور. ومنذ ذلك الحين، كلما تحدث إليَّ، كان يتحدث إليَّ دائمًا بتعابير ازدراء واشمئزاز. لم يكن يناديني باسمي أبدًا، بل كان يقول دائمًا: "مرحبًا بك أيها الشيء الصغير! ومع ذلك فقد أخبرته أكثر من عشرين مرة أن اسمي "دانيال إيسيت"... وفي

[89] Alphonse Daudet, le petit chose 1868

النهاية، لقبني زملائي في الصف بـ "الشيء الصغير"، والتصق بي هذا اللقب ونسوا اسمي...
لم يكن لباسي فقط هو ما يميزني عن الأطفال الآخرين. كان الآخرون يملكون حقائب جلدية صفراء جميلة، ومحابر من ذلك الخشب طيب الرائحة، وكتب تمارين رياضية ذات غلاف مقوى، وكتب جديدة مع الكثير من الملاحظات في الأسفل؛ أما كتبي فكانت كتباً قديمة اشتريتها من رصيف الميناء، متعفنة، باهتة، تفوح منها رائحة الخشب الفاسد؛ وكانت أغلفتها دائماً رثة، وأحياناً كانت صفحاتها مفقودة. بذل "جاك" قصارى جهده لتجليدها لي باستخدام ورق مقوى سميك وصمغ قوي، لكنه كان يستخدم دائمًا الكثير من الصمغ وكانت رائحته كريهة. كان قد صنع لي أيضًا حقيبة ذات عدد لا يحصى من الجيوب، وكان ذلك عمليًا للغاية، لكن كان هناك دائمًا الكثير من الصمغ وبالطبع الكثير من الرائحة الكريهة. أصبحت حاجة "جاك" إلى الصمغ والورق المقوى عادة لديه مثل حاجته إلى البكاء. كان لديه دائمًا كومة من الأواني الصغيرة من الغراء أمام النار، وبمجرد أن يتمكن من الابتعاد عن المتجر للحظة، كان يلصق ويجلد و يغلف الكرتون. وفي بقية الوقت، كان يحمل الطرود إلى المدينة، ويكتب تحت الإملاء، ويذهب إلى متجر البقالة... التجارة أخيرا !

أما أنا، فقد فهمت أنه إذا كنت من أصحاب المنح الدراسية، وإذا كنت ترتدي ثوباً منقوشاً، وإذا كنت تدعى (الشيء الصغير) فعليك أن تعمل ضعف ما يعمله الآخرون لتكون مساوياً لهم، و يا للهول! استعد أيها الشيء الصغير للعمل بكل شجاعة !

.24.

الأمهات[90]

(ذكرى الحصار)

ألفونس دوداي 1840ـ 1897

في ذلك الصباح، ذهبت إلى "مونت فاليرين" لرؤية صديقنا الرسام ب...، وهو ملازم في وحدة السين المتنقلة. صادف أن الفتى الطيب كان في نوبة حراسة. كان من المستحيل التحرك. كان علينا أن نبقى ونتجول جيئة وذهاباً، مثل بحارة في الحراسة، أمام عمود الحصن، نتحدث عن باريس والحرب وأعزائنا الغائبين... وفجأة توقف الملازم، الذي ظل دائماً، تحت سترته متنقلا، ذلك الصعب الشرس الذي كان في الماضي، وسقط على الأرض وأخذ بذراعي :

»آه، دوميه الجميل"، قالها بهدوء، وبزاوية عينه الرمادية الصغيرة التي أضاءت فجأة مثل عين كلب صيد. أراني صورتين ظليتين جليلتين كانتا قد ظهرتا للتو على هضبة مونت فاليرين.

لوحة دوميه رائعة بالفعل. الرجل ذو المعطف البني الطويل، ذو الياقة المخملية المخضرة التي بدت وكأنها مصنوعة من طحالب الغابة القديمة، نحيف الجسم، صغير الحجم، أحمر الوجه، بجبهة مكتئبة، وعينين مستديرتين وأنف كمنقار البومة. رأس طائر متجعد، وقور وسخيف. وكانت تحمل كيساً من القماش

[90] Alphonse Daudet, Contes du lundi.

المزركش بالورود، تخرج منه عنق زجاجة، وتحت ذراعها الأخرى علبة صفيح، علبة الصفيح الأبدية التي لن يستطيع الباريسيون أن يروها مرة أخرى دون أن يفكروا في شهور الحصار الخمسة... كل ما يمكنك أن تراه من المرأة في البداية هو قبعة الكابريوليه الضخمة وشال قديم يعانقها بإحكام من أعلى إلى أسفل، كما لو كان ذلك لتأكيد بؤسها؛ ثم، من وقت لآخر، و من بين خصلات القلنسوة الباهتة يبدو جزء من أنفها المدبب، وبعض الشعرات الشيبية المسكينة.

عند الوصول إلى الهضبة، توقف الرجل ليلتقط أنفاسه ويمسح جبينه. لم يكن الجو حارًا هناك في ضباب أواخر نوفمبر/تشرين الثاني، لكنهما جاءا بسرعة كبيرة... لم تتوقف المرأة. وسارت مباشرة إلى العمود، ونظرت إلينا بتردد لدقيقة وكأنها تريد أن تتحدث إلينا؛ ولكنها – وقد أرهبتها بلا شك خطوط الضابط – فضلت أن تتحدث إلى الخفير، وسمعتها تطلب على استحياء أن ترى ابنها، وهو من باريس في الصف السادس.

قال رجل الحراسة: "ابق مكانك، سأرسل في طلبه.«

وعادت إلى زوجها بفرح و تنهيدة ارتياح، وذهبا معاً وجلسا على حافة أحد السدود. انتظرا هناك لفترة طويلة. إن مونت فاليرين كبيرة جداً، ومعقدة جداً بساحاتها وجدرانها الجليدية وحصونها وثكناتها وقلاعها! سيصعب عليك أن تجد دافعاً من الدرجة السادسة في هذه المدينة التي لا تنفصم عراها، المعلقة بين الأرض والسماء، العائمة في دوامة بين السحب مثل جزيرة لابوتا. ناهيك عن أنه في هذه الساعة يمتلئ الحصن بالطبول والأبواق والجنود الذين يركضون والعلب التي تدق. إنها الحراسة التي يجري إعفاؤها، والأعمال الروتينية والتوزيع، **والجاسوس الدموي** الذي يجره الفرنجة المتجولون، والفلاحون القادمون من نانتير يشكون إلى الجنرال، والإستافيت القادمون بأقصى سرعة، والرجل المتصبب عرقاً، والخيالة العائدون من الثغور مع الجرحى الذين يتأرجحون من جوانب البغال ويئنّون بهدوء كالحملان المريضة، والبحارة الذين يسحبون مدفعاً جديداً على

صوت الناي و"هسه! هوه!"، وقطيع الحصن يدفعه إلى الأمام راعٍ يرتدي سروالاً أحمر وبيده غولين وعلى كتفه شاسكيت، كل هذا ذهاباً وإياباً يجوب الأفنية ويخترق الساحات ويهرع تحت الثكنة كباب منخفض لخان شرقي.
"وفي هذه الأثناء كانت الأم المسكينة تقول في تلك الأثناء: (أرجو ألا ينسوا ولدي!) وكانت المسكينة تنهض كل خمس دقائق، وتقترب من المدخل في خفاء، وتلقي نظرة خفية إلى الساحة الأمامية، وتشد نفسها إلى الحائط؛ ولكنها لم تعد تجرؤ على أن تسأل عن شيء خشية أن تبدو على طفلها السخرية. وكان الرجل، الذي كان أكثر خجلاً منها، لا يتحرك من زاويته؛ وفي كل مرة كانت تعود لتجلس، بقلب مثقل ونظرات مثبطة على وجهها، ترى أنه كان يوبخها على عدم صبرها ويشرح لها ضرورات الخدمة بإيماءات الأحمق الذي يريد أن يفهمه أحد.
لطالما كانت تستهويني هذه المشاهد الصغيرة الصامتة والحميمية التي نخمنها أكثر مما نراها، هذه المشاهد الإيمائية في الشارع التي ترفق بك وأنت تمشي وبإيماءة واحدة تكشف لك وجوداً كاملاً ; لكن أكثر ما أسرني هنا هو غرابة وسذاجة الشخصيات، وشعرت بانفعال حقيقي وأنا أتابع كل التقلبات والانعطافات في دراما عائلية بديعة من خلال تعابير وجوههم التي كانت معبرة وواضحة مثل أرواح الممثلين في "سرافين...«
كنت أرى الأم تقول لنفسها في صباح أحد الأيام
»لقد مرت ثلاثة أشهر منذ أن رأيت طفلي... أريد أن أذهب وأقبله.«
في البداية، حاول الأب الذي كان خجولاً ومنطوياً على نفسه وخائفاً من فكرة الاضطرار إلى تكبّد عناء الحصول على رخصة قيادة، أن يتفاهم معها في البداية :
"لكنك لا تفكرين في الأمر يا عزيزتي. إن جبل فاليرين ينتمي إلى الشيطان... كيف ستصلين إلى هناك بدون سيارة؟ إلى جانب ذلك، إنها قلعة لا يمكن للنساء دخولها.

- قالت الأم: "سأدخل"؛ وبينما هو يفعل كل ما تريد، انطلق الرجل، ذهب إلى القطاع، إلى دار البلدية، إلى المقر، إلى مكتب الحاكم، يتصبب عرقاً من الخوف، ويتجمد من البرد، ويصطدم بكل شيء، ويذهب إلى الباب الخطأ، ويقف في طابور لمدة ساعتين في مكتب، ثم لم يكن ذلك المكتب. وأخيرًا، في المساء، عاد وفي جيبه تصريح من الوالي... في اليوم التالي، استيقظنا مبكرًا في البرد، على المصباح. كسر الأب قشرة الخبز للتدفئة، لكن الأم لم تكن جائعة. كانت تفضل تناول الإفطار هناك مع ابنها. ولكي يمنحا الجوال المسكين متعة الجوال، سرعان ما كدسا مؤونة الحصار في الكيس: شوكولاتة ومربى ونبيذ مختوم، كل شيء حتى الصفيحة، وهي علبة من ثمانية فرنكات احتفظا بها ثمينة لأيام الشح الشديد. وبذلك، انطلقوا. عندما وصلوا إلى الأسوار، كانت البوابات قد فُتحت للتو. كان عليهم إبراز تصريح. كانت الأم خائفة... لكن لا! يبدو أننا كنا في النظام.

قال الرقيب المناوب: "أفسحوا الطريق.«

عندها فقط تنفست.

»كان ذلك الضابط مهذباً جداً.

وانطلقت خفيفة كالحجل وهي تهرول مسرعة. كان الرجل بالكاد يستطيع مجاراتها.

»أنتِ تسيرين بسرعة كبيرة يا عزيزتي !

لكنها لم تستمع هناك، في الأعلى، في أبخرة الأفق، أومأ إليها مونت فاليرين :

»اذهبي إلى هناك بسرعة... إنه هنا.«

والآن بعد أن وصلوا، هناك كرب جديد.

ماذا لو لم يجدوه! ماذا لو لم يأتِ؟

وفجأة رأيتها تجفل، وتضرب على ذراع العجوز وتقفز على قدميها... من بعيد، تحت قوس العمود، كانت قد تعرفت على خطواته.

لقد كان هو !

عندما ظهر، أضاءت مقدمة الحصن.
كان فتىً طويل القامة، وسيم جميل، حسن القوام، يحمل حقيبته على ظهره وبندقيته في قبضته... اقترب منهما بوجه بشوش وصوت رجولي مرح :
»مرحباً يا أمي.«
وعلى الفور، اختفت الحقيبة والبطانية والبندقية وكل شيء في القبعة الكبيرة المكشوفة. ثم جاء دور الأب، ولكن لم يمض وقت طويل. أرادت السيارة المكشوفة كل شيء لنفسها. كانت نهمة...
»كيف حالك؟ هل أنت مغطى جيداً؟
كيف حال غسيلك؟
ومن تحت غطاء المحرك، كنت أشعر بنظرة الحب الطويلة التي غمرته بها من رأسه إلى أخمص قدميه، في وابل من القبلات والدموع والضحكات الصغيرة؛ حنان الأمومة الذي دام ثلاثة أشهر دفعته له دفعة واحدة. كان الأب متأثرًا جدًا، لكنه لم يشأ أن يبدو كذلك. لقد فهم أننا كنا ننظر إليه وغمز لنا وكأنه يقول:
»اعذروها... إنها امرأة« .
لو أمكنني أن أعذرها !
هبّ نداء البوق فجأة على هذا الفرح الجميل.
إنهم ينادون مرة أخرى..." قال الطفل. يجب أن أذهب
-ألن تتناولي الغداء معنا؟
-ولكن لا! لا! لا أستطيع... أنا في نوبة حراسة لمدة أربع وعشرين ساعة، في أعلى الحصن.
-قالت المرأة المسكينة، ولم تستطع أن تقول أكثر من ذلك.
حدق ثلاثتهم في بعضهم البعض في فزع للحظة. ثم قال الأب
"على الأقل خذي الصندوق معك"، قالها بصوت يدمي القلب، وبتعبير مؤثر وهزلي في آن واحد ينم عن جشع مضحِك. ولكن بعد ذلك، وفي غمرة اضطراب

الوداع وانفعاله، لم يعد الصندوق الملعون موجوداً، وكان من المؤسف أن نرى تلك الأيدي المحمومة المرتعشة تبحث وترتجف؛ وأن نسمع تلك الأصوات التي تتخللها الدموع وهي تسأل: (الصندوق! أين الصندوق!) دون أن يخجلوا من خلط هذه التفاصيل المنزلية الصغيرة بالحزن العظيم... وما أن عثر على الصندوق حتى كان العناق الأخير الطويل، وركض الطفل عائداً إلى الحصن.
وتذكر أنهما قطعا مسافة طويلة من أجل هذا الغداء، وأنهما كانا يتطلعان إليه، وأن الأم لم يغمض لها جفن طوال الليل؛ وأخبرني إن كنت تعرف شيئاً أكثر حسرة من هذه الفرصة الضائعة، هذه اللمحة من الجنة التي أُغلقت على الفور بهذه الوحشية.

انتظرا لبعض الوقت، بلا حراك في نفس المكان، وعيناهما لا تزالان مثبتتين على العمود الذي اختفى فيه طفلهما للتو. وأخيراً انتفض الرجل، واستدار وسعل مرتين أو ثلاثاً في شجاعة شديدة، ثم قال بعد أن اطمأن صوته

"هيا بنا نذهب يا أمي!" قالها بصوت عالٍ ومبتهج. ثم ألقى علينا التحية العسكرية وأخذ بذراع زوجته... تبعتهم حتى منعطف الطريق. بدا الأب غاضباً. كان يلوح بحقيبة التسوق بإيماءات يائسة... أما الأم، من ناحية أخرى، بدت هادئة. كانت تسير بجانبه مطأطئة الرأس، وذراعاها حول جسده. لكن في بعض الأحيان، على كتفيها الضيقين، ظننت أنني أستطيع أن أرى شالها يرتجف بشكل متشنج.

.25.

حصار برلين[91]

ألفونس دوداي 1840 ـ 1897

كنّا نسير في شارع "الشانزليزيه" مع الدكتور ف...، ونسأل الجدران التي ثقبتها القذائف والأرصفة التي مزقتها المدافع الرشاشة عن قصة باريس تحت الحصار، عندما توقف الدكتور قبل أن نصل إلى نقطة "دوار النجمة" بقليل، وأشار إلى أحد المنازل الكبيرة في الزاوية التي تتجمع بشكل بهيّ حول قوس النصر:
قال: "هل ترى تلك النوافذ الأربع المغلقة هناك في الشرفة؟ في الأيام الأولى من شهر أغسطس، ذاك الشهر الرهيب من العام الماضي، ذلك الشهر المليء بالعواصف والكوارث، استدعيت إلى هناك بسبب حالة إصابة صاعقة. كان ذلك في منزل الكولونيل جوف، وهو جندي من جنود الإمبراطورية الأولى، رجل عجوز مخلص للمجد والوطنية بعناد، كان قد جاء منذ بداية الحرب ليعيش في الشانزليزيه، في شقة ذات شرفة، خمن لماذا؟ لمشاهدة العودة المظفرة لقواتنا... مسكين هذا العجوز! وصلته أخبار "ويسمبورغ" بينما كان يغادر الطاولة. عندما قرأ اسم نابليون في أسفل نشرة الهزيمة، صعقته الصاعقة.
"وجدت الجندي السابق ممددًا على سجادة غرفة النوم، ووجهه مدمى وجامد كما لو كان قد ضُرب على رأسه بهراوة. كان يبدو طويلاً جداً وهو واقف، أما وهو مستلقٍ فبدا هائلاً. كانت ملامحه جميلة، وأسنانه رائعة، وشعره الأبيض مجعد

[91] Alphonse Daudet. Contes du lundi.

بالكامل، وكان في الثمانين من عمره، ويبدو في الستين... كانت إلى جانبه حفيدته جاثية على ركبتيها وهي تبكي. كانت تشبهه تمامًا. عند رؤيتهما جنباً إلى جنب، كنت تظن أنهما ميداليتان يونانيتان جميلتان مطبوعتان من نفس البصمة؛ إلا أن إحداهما كانت عتيقة وترابية وباهتة قليلاً حول الأطراف؛ أما الأخرى فكانت متألقة وواضحة بكل تألق ومخملية البصمة الجديدة.

"لقد مسّني ألم هذه الطفلة. لقد كانت ابنة وحفيدة أحد الجنود، وكان والدها من أركان حرب "ماك ماهون"، وصورة هذا الرجل العجوز العظيم الراقد أمامها تستحضر في ذهنها صورة أخرى لا تقل فظاعة عن صورته. طمأنتها بقدر ما استطعت، ولكنني في أعماقي لم أكن أحمل لها أملاً يذكر. لقد كنا نتعامل مع شلل نصفي جيد، وفي الثمانين من العمر، لا يعود المرء من هذا الشلل في كثير من الأحيان. وظلت المريضة لمدة ثلاثة أيام في الواقع في نفس الحالة من الجمود والذهول... وفي هذه الأثناء وصلت أخبار "رايشهوفن" إلى باريس. تتذكرون كم كان الأمر غريباً لقد كنا جميعاً حتى ذلك المساء نؤمن جميعاً بالنصر العظيم، عشرون ألفاً من "البروسيين" قتلوا، وأسر الأمير الملكي... لا أدري أي معجزة، أي تيار مغناطيسي، أي صدى لهذا الفرح القومي الذي أعاد المسكين الأصم الأبكم إلى حالة الشلل؛ ولكن الحقيقة أنني في ذلك المساء، عندما اقتربت من سريره، لم أعد أجد الرجل نفسه. كانت عيناه شبه صافيتين، ولسانه أقل ثقلاً. كانت لديه القوة ليبتسم في وجهي ويتلعثم مرتين:

-"فيك ... أنت ... إعادة!

"نعم أيها العقيد، انتصار عظيم!

"وبينما كنت أخبره بتفاصيل النجاح العظيم الذي حققه "ماك ماهون"، رأيت ملامحه ترتاح، ووجهه يضيء...

"وعندما خرجت كانت الفتاة الصغيرة تنتظرني شاحبة تقف عند الباب. كانت تنتحب.

قلت لها وأنا آخذ بيدها: "لكنه بأمان."
"بالكاد امتلكت الطفلة التعيسة الشجاعة لتجيبني. كنا قد رأينا لتونا "الرايخشوفن" الحقيقي، و"ماك ماهون" هارباً، والجيش كله محطم... نظرنا إلى بعضنا البعض في فزع. كانت حزينة، تفكر في والدها. ارتجفت من التفكير في الرجل العجوز. بالطبع، لن يكون قادراً على مقاومة هذه الصدمة الجديدة... ومع ذلك ماذا يمكننا أن نفعل؟... نترك له بهجته، والأوهام التي أعادته إلى الحياة!... ولكننا سنضطر إلى الكذب...
حسناً، سأكذب!" قالت الفتاة البطلة وهي تمسح دموعها بسرعة، ثم عادت إلى غرفة جدها وهي تبتسم.
"لقد كان عملاً شاقاً تولته. تمكنا من اجتياز الأيام القليلة الأولى. كان عقل الرجل ضعيفًا وترك نفسه ينخدع كالأطفال. ولكن مع تحسن صحته، أصبحت أفكاره أكثر وضوحًا. كان علينا أن نبقيه على علم بتحركات الجيش ونكتب له النشرات العسكرية. ولقد كان من المثير للشفقة حقاً أن نرى هذه الطفلة الجميلة منكبّة على خريطة ألمانيا ليلاً ونهاراً تنتقي الأعلام الصغيرة وتحاول أن تضع حملة كاملة مجيدة: "بازين في برلين، وفرويسارت في بافاريا، وماك ماهون على البلطيق". وكانت تطلب مني المشورة في هذا كله، وكنت أساعدها بقدر ما أستطيع، ولكن جدي بالذات هو الذي خدمنا في هذا الغزو الوهمي. لقد غزا ألمانيا مرات عديدة في عهد الإمبراطورية الأولى! لقد كان يعرف كل التحركات مسبقًا: "الآن ها هي الأماكن التي سيذهبون إليها... هذا ما سنفعله..."؛ وكانت تنبؤاته تتحقق دائمًا، وهو ما جعله فخورًا جدًا.
"لسوء الحظ، بغض النظر عن عدد البلدات التي استولينا عليها أو عدد المعارك التي انتصرنا فيها، لم نكن نذهب بسرعة كافية بالنسبة له. لقد كان نهمًا، ذلك الرجل العجوز! كنت أتعلم كل يوم عندما أصل، إنجازًا جديدًا في السلاح:

يا دكتور، لقد استولينا على "ماينز"، قالت الفتاة الشابة وهي تتقدم نحوي بابتسامة يائسة، وكنت أسمع صوتاً مبهجاً يصرخ من خلال الباب..
"إنها تنجح، إنها تنجح ... في غضون ثمانية أيام سندخل برلين.
"في تلك اللحظة كان "البروسيون" على بعد ثمانية أيام فقط من باريس... في البداية تساءلنا عما إذا كان من الأفضل أن نأخذه إلى الأقاليم؛ ولكن بمجرد خروجه من باريس، كانت حالة فرنسا قد علمته كل شيء، واعتقدت أنه كان لا يزال ضعيفاً جداً، ومخدرا جداً من شدة الصدمة التي أصابته. لذلك قررنا البقاء.
"وفي اليوم الأول من الاستثمار صعدت إلى منزلهما - على ما أذكر - متأثراً جداً، وفي قلبي من الألم ما كان يملأ من أبواب باريس الموصدة، ومن المعركة التي كانت تدور داخل أسوارنا، ومن ضواحينا التي أصبحت حدوداً. وجدت الرجل جالسًا على سريره، مبتهجًا وفخورًا:
قال لي: "حسنًا، "ها قد بدأ الحصار!
"نظرت إليه في دهشة:
"كيف عرفت يا كولونيل؟
"التفتت حفيدته إليّ:
"نعم يا دكتور، هذه هي الأخبار المهمة، لقد بدأ حصار برلين.
"كيف أمكنه أن يشك في أي شيء؟ لم يتمكن من سماع نيران المدافع من الحصون. لم يستطع أن يرى باريس التعيسة، المشؤومة والمضطربة. ما كان يستطيع أن يراه من سريره هو جزء من قوس النصر، وفي غرفته، ومن حوله في غرفته، كل ما كان يراه من حوله، كل ما كان يراه من زخارف الإمبراطورية الأولى، مصممة لإبقاء أوهامه حية. صور المارشالات ونقوش للمعارك، وملك روما في ثوب طفل؛ ثم لوحات عظيمة كلها جامدة، مزينة بالنحاس الأصفر، محملة بالآثار الإمبراطورية: ميداليات، وبرونزيات، وصخرة من سانت هيلانة تحت كرة أرضية، ومنمنمات تصور نفس السيدة ذات الشعر المجعد، في ثوب كرة، في ثوب أصفر،

بأكمام ذات ياقات وعيون شاحبة؛ - وكل هذا، لوحات الكونسولات، ملك روما، والمارشالات والسيدات الصفراوات، بخصورهن العالية، وأحزمتهن العالية، وتلك الصلابة التي كانت نعمة عام 1806 ... أيها العقيد الشجاع! لقد كان هذا الجو من الانتصارات والفتوحات، أكثر من أي شيء يمكن أن نقوله له، هو الذي جعله يؤمن بسذاجة بحصار برلين.

"منذ ذلك اليوم، أصبحت عملياتنا العسكرية أبسط بكثير. كان الاستيلاء على برلين مجرد مسألة صبر. وكنا من وقت لآخر، عندما كان الرجل العجوز يشعر بالملل الشديد، نقرأ له رسالة من ابنه، رسالة وهمية بالطبع، إذ لم يعد يدخل باريس أي شيء بعد ذلك، ومنذ سيدان تم توجيه مساعد ماك ماهون إلى حصن في ألمانيا. فهل لك أن تتخيل يأس هذه الطفلة المسكينة التي لم تجد أخبار أبيها وقد انقطعت أخباره وهو أسير محروم من كل شيء، وربما كان مريضاً، واضطر إلى أن يكتب رسائل مبتهجة قصيرة كالتي يكتبها جندي في الميدان، وهو دائم التقدم في البلاد المحتلة. وفي بعض الأحيان ضعفت قوته وخارت قواه وانقطعت أخباره لأسابيع. لكن الرجل العجوز كان يشعر بالقلق ولا يستطيع النوم. وسرعان ما كانت تصله رسالة من ألمانيا فتقرأها له بمرح بجانب سريره وهي تحبس دموعها. وكان الكولونيل يستمع إليها بإمعان ويبتسم بعلم، ويوافق وينتقد ويشرح لنا المقاطع التي لم تكن واضحة بعض الشيء. ولكنه كان أجمل ما يكون في الأجوبة التي كان يرسلها إلى ابنه: "لا تنسى أبداً أنك فرنسي. لا تجعل الغزو ثقيلاً عليهم...".

وكانت هذه توصيات لا نهاية لها، ومواعظ بديعة عن احترام الممتلكات، والتأدب مع السيدات، وميثاق شرف عسكري حقيقي للفاتحين. كما أنه خلط بعض الاعتبارات العامة في السياسة وشروط السلام التي يجب فرضها على المغلوبين.

في هذه النقطة، يجب أن أقول إنه لم يكن يطالب...

"تعويضات الحرب لا أكثر من ذلك ... ما الفائدة من أخذ الأقاليم منهم ... هل نستطيع أن نجعل فرنسا من ألمانيا؟

"كان يملي ذلك بصوت حازم، وكان المرء يستشعر في كلماته مثل هذه الصراحة، ومثل هذا الإيمان الوطني الجميل، بحيث كان من المستحيل ألا يتأثر المرء عند الاستماع إليه.

"في هذه الأثناء، كان الحصار لا يزال مستمراً، ولكن ليس حصار برلين، للأسف... كان وقت البرد الشديد والقصف والأوبئة والمجاعة. ولكن بفضل رعايتنا وجهودنا وحناننا الدؤوب الذي أحاطه به، لم يعكر صفاء الرجل العجوز لحظة واحدة. حتى النهاية، استطعت أن أحضر له الخبز الأبيض واللحم الطازج. ولا يمكنك أن تتخيل شيئاً أكثر تأثيراً من تلك الغداءات التي كان يتناولها الجد في براءة وأنانية، والرجل العجوز على سريره منتعشاً ضاحكاً ومنديله على ذقنه؛ إلى جانب حفيدته، شاحباً قليلاً من الحرمان يوجه يديه ويسقيه الشراب ويساعده على تناول كل تلك الطيبات المحرمة. ثم استعاد الجندي العجوز، وهو في غرفته الدافئة المريحة، ونسيم الشتاء في الخارج والثلج يحوم حول نوافذه، ذكرى حملاته في الشمال، وحدثنا للمرة المائة عن ذلك الانسحاب المشؤوم من روسيا، حيث لم يكن لدينا ما نأكله سوى البسكويت المجمد ولحم الخيل:

"هل تفهمين ذلك يا طفلتي؟ لقد أكلنا لحم الخيل!

"أعتقد أنها فعلت. لمدة شهرين، لم تأكل أي شيء آخر... ولكن مع اقتراب فترة النقاهة كانت مهمتنا حول المريضة تزداد صعوبة يومًا بعد يوم. كان الخدر في جميع حواسها، وفي جميع أطرافها، الذي كان يخدمنا جيدًا حتى ذلك الحين، قد بدأ يتبدد. وقد قفز مرتين أو ثلاث مرات من قبل من هول ما سمع من قذائف البورتو الرهيبة التي كانت تنهال عليه في بورت مايه وقد وخزته أذناه ككلب صيد، واضطر إلى اختراع نصر أخير لبازين تحت قيادة برلين، وأطلقت القذائف على شرفه في الإنفاليد. وفي يوم آخر، عندما دُفع سريره قريباً من النافذة - وأظن أنه كان يوم خميس بوزينفال - رأى الحرس الوطني يحتشد في شارع الجيش الكبير.

وسأل الرجل الطيب، وكنا نسمعه يتذمر من خلال أسنانه: (ما هذه القوات بحق السماء؟

"زي سيء، زي سيء!

"لم يكن الأمر مختلفاً؛ ولكننا فهمنا أن علينا من الآن فصاعداً أن نتخذ احتياطات كبيرة. وللأسف لم نتخذ الاحتياطات الكافية.

"في إحدى الأمسيات، عندما كنتُ على وشك الوصول، جاءني الطفل منزعجًا: سيأتون غدًا".

"هل كانت غرفة جدي مفتوحة؟ الأمر هو، منذ ذلك الحين، عندما فكرت في الأمر، تذكرت أنه كان لديه فراسة غير عادية في ذلك المساء. ربما كان قد سمعنا. إلا أننا كنا نتحدث عن البروسيين، وكان الرجل الطيب يفكر في الفرنسيين، وفي ذلك الدخول المظفر الذي انتظره طويلاً: ماك ماهون ينزل في الجادة وسط الزهور والأهازيج، وابنه إلى جانب المارشال، وهو، أي الرجل العجوز، في شرفته بكامل أناقته كما في لوتزن، يحيي الأعلام التي بها ثقوب والنسور السوداء بالبارود...

"مسكين الأب جوف! لا شك أنه كان يتصور أنهم أرادوا أن يمنعوه من مشاهدة هذا الاستعراض لقواتنا لتجنيبه الانفعال الشديد. ولكن في اليوم التالي، وبينما كانت الكتائب البروسية تسير على استحياء على طول الطريق المؤدي من بورت مايه إلى التويلري في اليوم التالي، إذا بنافذة الطابق العلوي تفتح بهدوء، وإذا بالعقيد يظهر في الشرفة بخوذته وبطاقته العسكرية العظيمة وبزيه القديم المجيد الذي كان يرتديه ملهاود في جيشه السابق. وما زلت أتساءل أي جهد من جهود الإرادة، وأي هزة من هزات الحياة قد وضعته على قدميه وسخرته. المؤكد أنه كان هناك واقفاً خلف المنحدر مندهشاً إذ وجد الطرقات واسعة جداً، صامتة جداً، ومصاريع المنازل مغلقة، وباريس شريرة كالحظيرة العظيمة، والأعلام في كل

مكان، ولكنها فريدة من نوعها، كلها بيضاء عليها صلبان حمراء، ولا أحد يقابل جنودنا.

"للحظة ظن أنه كان مخطئاً...

"لكن لا! هناك، خلف قوس النصر، كان هناك حفيف مشوش، وخط أسود يتقدم في النهار المشرق... ثم، شيئاً فشيئاً، بدأت إبر الخوذات تلمع شيئاً فشيئاً، وبدأت طبول جينا الصغيرة تقرع، وتحت قوس النجم، وعلى إيقاع الخطى الثقيلة للفصائل، وصليل السيوف، انفجرت مسيرة النصر لشوبيرت!

"ثم سُمع في صمت الميدان الممل صرخة رهيبة: "إلى السلاح!... إلى السلاح!... البروسيون! وكان في استطاعة جنود الطليعة الأربعة أن يروا هناك على الشرفة رجلاً عجوزاً عظيماً يترنح ويلوح بذراعيه ويسقط متصلباً. هذه المرة، كان الكولونيل جوف ميتاً حقاً.

.26.

مشهد تمرّد

ألفونس دوداي 1840 ـ 1897

1 ـ في المستنقعات[92]

في الظلال الرطبة الريفية في تلك الشوارع الطويلة المتعرّجة حيث تفوح رائحة الصيدليات والحطب في الهواء، بين تلك القصور القديمة التي تعود إلى عهد هنري الثاني ولويس الثالث عشر، والتي حولتها الصناعة الحديثة إلى مصانع للمياه الغازية والبرونز والمواد الكيميائية، تلك الحدائق الصغيرة العفنة المليئة بالصناديق، وتحت تلك الشرفات المتضخمة، وتلك المصاريع العالية، وتلك التروس التي أكلتها الديدان، والمختنقة بالدّخان مثل طفايات الكنائس، كان للشغب، خاصة في الأيام الأولى، فراسة خاصة جداً، شيء من حسن الطبع والبدائية. متاريس في كل زاوية شارع، لكن لا أحد يحرسها. لا مدافع ولا رشاشات. أحجار مرصوفة بالحصى مكدسة بلا دهاء، بلا اقتناع، لمجرد متعة اعتراض الطريق، وتكوين برك كبيرة من الماء تتناثر فيها قطعان الأطفال وأساطيل القوارب الورقية... كل المحلات مفتوحة، وأصحاب المحلات على عتباتها، يضحكون ويتبادلون البهجة والمداراة من رصيف إلى آخر. لم يكن هؤلاء الناس هم الذين كانوا يثيرون الشغب؛ ولكنك تشعر أنهم كانوا يشاهدون ذلك بسرور، وكأنهم بإثارتهم لأحجار هذه الأحياء الهادئة قد أيقظوا روح باريس البرجوازية القديمة الصاخبة الثرثارة.

[92] Alphonse Daudet, contes du lundi.

ما كان يسمى بريح "الفروند" كانت تهب عبر المستنقع. وعلى أقواس الفنادق الفخمة، كانت الكآبة المبهجة التي كانت تكسو وجوه الأقنعة الحجرية تبدو وكأنها تقول: (أنا أعرف كل شيء عن ذلك). ورغماً عني، وفي خواطري كنت أرتدي السترات المزركشة والسراويل القصيرة والفساتين القصيرة واللباد الكبير الملفوفة، كل هذا العالم الصغير الشجاع من باعة الأدوية والذهبيات وتجار التوابل الذين كانوا يمسكون أضلاعهم وهم يشاهدون شوارعهم وهي تنظف وتبدو عليهم مظاهر الفخر والاعتزاز بوجود متارس أمام محلاتهم.

وفي نهاية زقاق طويل مظلم، كنت أرى الحراب تلمع في ساحة الإضراب، وفي نهاية الزقاق المظلم الطويل، كان جزء من بيت البلدة القديم قد توشح بالذهب تحت أشعة الشمس. كان الفرسان يركضون في هذه البقعة من الضوء، وكانت معاطفهم الرمادية الطويلة وريشهم يطفو. كان الحشد يركض ويصرخ؛ وكانت القبعات تلوح لهم. هل كانت الآنسة دي مونبنسييه أم الجنرال كريمر؟ ... لقد اختلطت العصور في ذهني. ومن بعيد، وفي ضوء الشمس، كان هناك قميص أحمر يرتديه أحد رجال غاريبالدي ستافيت من غاريبالدي يركض على بطنه مما جعلني أتخيل أنه قميص الكاردينال دي ريتز. لم أستطع أن أتذكر ما إذا كان السيد تييه أو مازارين... تخيلت أنني أعيش قبل ثلاثمائة عام.

2ـ في مونتمارتر[93]

رأيت في شارع ليبيك صباح ذلك اليوم في دكان إسكافي ضابطاً من الحرس الوطني في شارع ليبيك وهو يرتدي ملابسه المخططة حتى مرفقيه وسيفه إلى جانبه وهو

[93] Alphonse Daudet, contes du lundi.

يهيئ زوجاً من الأحذية ومئزره الجلدي أمامه حتى لا تتسخ سترته. تتناسب الصورة الكاملة لمونمارتر المتمردة مع إطار نافذة هذا المتجر.

تخيلوا قرية كبيرة مدججة بالسلاح، ومدافع رشاشة بجانب حوض الشرب، وساحة الكنيسة التي تعج بالحراب، ومتاريس أمام المدرسة، وعلب الرشاشات بجانب علب الحليب، وكل البيوت التي تحولت إلى ثكنات, والسترات النظامية تجف في جميع النوافذ، والكيبيس ينحنون للاستماع إلى الاستدعاء، وأعقاب البنادق ترن في مؤخرة الدكاكين الصغيرة المستعملة، ومن أعلى التل إلى أسفله، كان هناك ركام من العلب والسيوف وعلب الطعام. وعلى الرغم من كل شيء، لم تعد مونمارتر الشرسة التي كانت تسير على طول شارع الإيطاليين، والبندقية مرفوعة عالياً، وحزام الذقن على الذقن، وتحدد الوقت بشراسة وكأنها تقول لنفسها: "النصمد. إن رد الفعل يراقبنا! هنا، المتمردون في بيوتهم، وعلى الرغم من البنادق والمتاريس، يمكنك أن تشعر بشيء من الحرية والسلمية والعائلية يحوم حول ثورتهم.

الشيء الوحيد الذي كان من المؤلم رؤيته هو احتشاد أصحاب السراويل الحمراء، الفارين من جميع الأسلحة: الزواف، واللجنار، والعسكر، والعسكر، الذين كانوا يملأون ساحة العمارة، مستلقين على المقاعد، يتخبطون على الأرصفة، سكارى، قذرين، متسخين، في حالة يرثى لها، بلحى ثمانية أيام... وبينما كنت أمر، كان أحد هؤلاء التعساء، يتسلق شجرة، يزعق الجموع متلعثماً وسط ضحكات وصيحات استهجان. وفي إحدى زوايا الميدان كانت كتيبة تتقدم إلى الأسوار:

"إلى الأمام!" صرخ الضباط ملوحين بسيوفهم. وقرعوا الطبول بالهجوم، واندفع رجال الميلليشيا الطيبون وهم متقدون حماسة في شارع طويل مهجور، وفي نهايته يمكن رؤية بعض الدجاج يهرول في صراخه.

... وفي أعلاه، في مهرب من الحدائق الخضراء والمنحدرات المصفرة، كان مولان دي لا جاليت قد تحول إلى موقع عسكري، حيث كانت ظلال الحرس الوطني

والخيام المصفوفة، والمضارب الصغيرة التي كانت تدخن، تبرز كلها بدقة ودقة، كما لو كانت من خلال منظار بين سماء سوداء ممطرة ومغرة التل المتلألئة.

3ـ في فوبورغ سانت أوتين

ذات ليلة من ليالي شهر يناير، أثناء حصار باريس، كنت في ساحة نانتير، وسط كتيبة من الجنود الفرنسيين. كان العدو قد هاجم للتو حراسنا الكبار، وكنا نتسلح على عجل لنذهب لنجدتهم. وبينما كان الرجال يتلمسون أعدادهم في مهب الريح والثلوج، رأينا دورية تخرج من إحدى زوايا الشارع، تسبقها شعلة.

"توقفوا هناك! من على قيد الحياة؟

-موبيلز دي 48"، أجابنا صوت متمتم.

كانوا رجالًا صغارًا جدًا يرتدون معاطف قصيرة ويضعون الكيبي على آذانهم ويبدو عليهم الشباب. لو كنا على بعد خطوتين لاعتبرناهم أطفال القوات؛ ولكن عندما اقترب الرقيب ليتعرفوا عليه، أضاءت فوانيسنا رجل عجوز صغير، باهت الوجه، مجعد الشعر، بعينين لامعتين ولحية بيضاء. كان عمر الجندي الشاب مائة عام. ولم يكن الآخرون أصغر سناً بكثير. بلهجاتهم الباريسية ولهجاتهم الباريسية وجو المتهور أطفال كبار السن

بعد وصولهم إلى المخافر الأمامية في اليوم السابق، ضاع الجنود التعساء في أول دورية لهم. وسرعان ما أعيدوا إلى طريقهم:

"أسرعوا أيها الرفاق، فالبروسيون يهاجموننا.

-آه! آه!... إن البروسيين يهاجموننا"، قالها العجوزان المسكينان في ذعر، ثم عادا أدراجهما وقد تاهتا في الليل وهما يرقصان في الليل وقد هزهما القصف...

لا أستطيع أن أصف لك مدى الانطباع الرائع الذي تركه في نفسي هؤلاء الأقزام الصغار؛ لقد بدوا في غاية الكبر والضجر والذهول! بدا لي أنهم جاءوا من مكان

بعيد جدًا! تخيلت دورية شبحية تتجول في الحقول منذ عام 1848، تبحث عن طريقها منذ ثلاثة وعشرين عامًا.

ذكّرني المتمردون في فوبور سان أنطوان بهذا الشبح. هناك وجدت قدماء متمردي عام 48، التائهين إلى الأبد، المسنين ولكن غير القابلين للإصلاح، المشاغبون ذوو الشعر الأبيض، ومعهم لعبة المعركة الأهلية القديمة، والمتاريس الكلاسيكية ذات الطابقين والثلاثة طوابق، والعلم الأحمر الذي يرفرف في الأعلى، والوضعيات الميلودرامية على مؤخرات البنادق، و المشمّرة عن الأكمام، والوجوه المنفرة: "تحرّكوا أيها المواطنون!" وفورًا الحربة المتقاطعة...

ويا له من صخب وضجيج في هذه الضاحية العظيمة في بابل! من العرش إلى الباستيل، لا شيء سوى الإنذارات ومصادرة الأسلحة والتفتيش والاعتقالات، والهراوات في الهواء الطلق، والحج إلى العمود، والدوريات التي تطوف في الشوارع وقد فقدت كلمة النظام، والمطاردات التي تغادر من تلقاء نفسها، والفتيات البذيئات اللاتي يؤخذن إلى اللجنة في شارع باسفريد، والاستدعاء، والجنرال، والنفير. آه! التوكسين؛ كيف يهز هؤلاء الناس الغاضبون أجراسهم! ما أن يطلع النهار حتى يجن جنون الأبراج، وترقص أجراسها كأجراس الماروتس. فهناك نغمة السكارى التي تلهث وتضطرب وتتخللها الفواق والهفوات وتضطرب حتى ينقطع الحبل، ثم نغمة السكارى الفاترة التي تتساقط نغماتها الناعسة بثقلها كأنها نغمة حظر التجول...

وفي خضم كل هذا الضجيج، وفي هذا الصخب من الأجراس والأدمغة، استوقفني شيء واحد: هدوء شارع لابي والأزقة والممرات التي تتشعب منه. هناك ما يشبه غيتو أوفيرني هناك حيث يتاجر أبناء منطقة كانتال بسلام في خردة المعادن القديمة، دون أن يقلقهم التمرد أكثر مما لو كان على بعد ألف ميل. وأثناء مروري هناك رأيت كل هؤلاء الشجعان من أبناء ريمونينك مشغولين في دكاكينهم

السوداء. وكانت النساء يثرثرن وهن يحكن على الباب الحجري، وكان الأطفال الصغار يتقلبون في وسط الممر وشعورهم المجعدة مليئة ببرادة الحديد.

.27.

الزواف السيئ[94]

ألفونس دوداي 1840ـ 1897

لم يكن الحداد الكبير لوري من سانت ماري أو ماينز سعيدًا في ذلك المساء.

فعادة ما كان يجلس على مقعد خارج بابه بمجرد إغلاق الحدادة وغروب الشمس، ليشعر بالتعب الذي يصاحب العمل الشاق واليوم الحار، وقبل أن يصرف تلاميذه المتدربين كان يشرب معهم بضع جرعات طويلة من البيرة الباردة وهم يشاهدون عمال المصانع وهم يغادرون. ولكن في ذلك المساء، بقي الرجل الطيب في حدادته حتى حان وقت الجلوس لتناول العشاء، وجاء وكأنه نادم. نظرت العجوز لوري إلى الرجل وفكرت:

»ربما كان لديه بعض الأخبار السيئة من الفوج ولا يريد أن يخبرني بها، ربما كان الشيخ مريضاً؟

ولكنها لم تجرؤ على أن تسأل عن أي شيء وانشغلت فقط بمحاولة إسكات ثلاثة صبية صغار شقر بلون آذان الذرة المحروقة، كانوا يضحكون حول مفرش المائدة وهم يلتهمون سلطة لذيذة من الفجل الأسود مع القشدة.

[94] Alphonse Daudet, contes du lundi.

في النهاية، دفع الحداد صحنه بغضب بعيدًا :

»أيها الشحاذون، أيها الأوغاد !

-من الذي يضايقك يا لوري؟

»لقد شوهد خمسة أو ستة منهم" قال: "لقد شوهدوا منذ الصباح وهم يطوفون في المدينة في زي الجنود الفرنسيين متشابكي الأيدي مع البافاريين... إنهم أكثر من أولئك الذين... كيف يصفون ذلك؟... اختاروا الجنسية البروسية... وإننا نرى كل يوم بعض هؤلاء الألزاسيين المزيفين يعودون !

حاولت الأم الدفاع عنهم

»ماذا تريد يا مسكين، ليس الذنب كله ذنب هؤلاء الأطفال... إنها بعيدة جداً، هذه الجزائر الأفريقية التي أرسلوا إليها... إنهم يحنون إلى الوطن هناك؛ والإغراء قوي جداً بالنسبة لهم لكي يعودوا ولا يعودوا جنوداً.«

ضرب لوري بقبضته على الطاولة.

»اخرسي يا أمي! أنتن يا نساء لا تفهمن أي شيء. إنكم بحكم عيشكم الدائم مع الأطفال ومن أجلهم وحدهم تصغرون كل شيء إلى حجم أطفالكم الأشقياء... حسناً، إنني أقول لكم إن هؤلاء الرجال هم شحاذون ومرتدون وآخر الجبناء، ولو كان مسيحنا المسيحي لسوء حظه قادراً على مثل هذا العار، واسمي جورج لوري وقد خدمت سبع سنوات في سلاح الفرسان الفرنسي، لضربت بسيفي في جسده.

ونهض الحداد، وهو نصف واقف على قدميه، وأظهر خرطوم الصياد الطويل المعلق على الحائط تحت صورة ابنه، وهي صورة الزواف التي رسمت هناك في أفريقيا؛ ولكن رؤية هذا الشكل الألزاسي الصادق وقد اكتسى سواداً كاملاً ولفحته الشمس في البياض والبهتان الذي تفعله الألوان الزاهية في الضوء العظيم، هدأ فجأة وبدأ يضحك.

»كأنما كان يمكن لمسيحنا المسيحي أن يفكر في أن يصبح بروسياً، وهو الذي قتل الكثير من البروسيين أثناء الحرب !

وانتهى الرجل الطيب من عشاءه مبتهجاً بهذه الفكرة، وغادر بعد ذلك مباشرة ليفرغ كوبين في مدينة ستراسبورج.

الآن لوري العجوز وحدها. بعد أن تضع أطفالها الشقر الثلاثة الصغار في الفراش، والذين يمكن سماع زقزقة أصواتهم في الغرفة المجاورة، وكأنهم عش يغفو في النوم، تأخذ عملها وتبدأ في الخياطة أمام الباب، في مواجهة الحدائق. ومن وقت لآخر تتنهد وتفكر في نفسها :
»نعم، أود ذلك. إنهم جبناء، مرتدون... لكن لا يهم! فأمهاتهم سعيدات بعودتهن.
وتذكرت الوقت الذي كان فيه والدها قبل ذهابه إلى الجيش، في مثل هذا الوقت من النهار، يرعى الحديقة الصغيرة. كانت تنظر إلى البئر حيث كان يأتي لملء سقايته، مرتدياً ثوبه وشعره الطويل، شعره الجميل الذي قصه عندما التحق بالزوفي...
وفجأة ارتجفت. انفتح الباب الصغير في الخلف، الباب المطل على الحقول. لم تنبح الكلاب، لكن الكلب الذي دخل للتو كان يتسلل بين الجدران كاللص وينسل بين خلايا النحل...

"مرحبًا يا أمي!
وكان نصرانيها واقفاً أمامها، أشعث الشعر في زيه الرسمي، خجلاً مرتبكاً غليظ اللسان. وكان هذا البائس قد عاد إلى الريف مع الآخرين، وظل ساعة يطوف حول المنزل منتظراً خروج والدها ليدخل. أرادت أن توبخه، لكنها لا تملك الشجاعة. لقد مضى وقت طويل منذ أن رأته، منذ أن قبلته! ثم ساق لها أسباباً وجيهة: أنه ملّ من الريف، ومن الحدادة، ومن العيش بعيداً عنهم طوال الوقت، وأن الانضباط أصبح أكثر صرامة، وأن رفاقه ينادونه (البروسي) بسبب لهجته الألزاسية. إنها تصدق كل ما يقوله. كان عليها فقط أن تنظر إليه لتصدقه. ما زالوا يتحدثون، دخلوا الغرفة السفلية. ركض الصغيران، وقد استيقظا تماماً، بأقدام حافية وأكمام قمصان ليحتضنا أخاهما الكبير. أرادوه أن يأكل، لكنه لم يكن جائعاً. كان عطشاناً فقط، عطشان دائماً، وكان يشرب جرعات كبيرة من الماء فوق كل جولات البيرة والنبيذ الأبيض التي اشتراها لنفسه منذ الصباح في الملهى.
لكن شخص ما يمشي في الفناء. إنه الحداد عائد إلى المنزل.
»كريستيان، ها هو والدك. أسرع، اختبئ حتى أستطيع أن أتحدث إليه وأشرح له..." ودفعت به خلف الموقد الكبير المبلط، ثم عادت إلى الخياطة ويدها ترتجف. ولسوء الحظ، بقي طربوش الزواف على المنضدة، وكان أول ما رأته لوري عندما دخلت. شحوب الأم، وإحراجها... لقد فهم كل شيء.
»كريستيان هنا!" قالها بصوت رهيب، ثم نزع سيفه بحركة مجنونة وأسرع نحو الموقد حيث كان الزواف متكئاً شاحباً متكئاً على الحائط خوفاً من السقوط.
ألقت الأم بنفسها بينهما.
»لوري، لوري، لا تقتله... أنا التي كتبت له أن يعود، وأنك بحاجة إليه في الحدادة » ...

تشبثت بذراعه، وجرّت نفسها وهي تنتحب. في ظلام غرفة نومهم يصرخ الأطفال وهم يسمعون هذه الأصوات المليئة بالغضب والدموع، وقد تغيرت حتى أنهم لم يعودوا يتعرفوا عليها... توقف الحداد، ونظر إلى زوجته قائلاً:

»آه، أنت من جعله يعود ... لذا لا بأس، دعه يذهب إلى الفراش. سأرى ما يجب أن أفعله غدًا.

في صباح اليوم التالي، استيقظ كريستيان من نوم ثقيل مليء بالكوابيس والرعب دون سبب، ووجد نفسه في غرفة نوم طفولته. من خلال النوافذ الصغيرة ذات الأطر الرصاصية، التي كانت تتقاطع مع القفزات المزهرة، كانت الشمس حارة ومرتفعة بالفعل. وفي الطابق السفلي، كانت المطارق تدق على السندان... وكانت أمه إلى جانب سريره؛ ولم تتركه طوال الليل، فقد كانت خائفة جداً من غضب رجلها. لم يذهب الرجل العجوز إلى الفراش أيضًا. وظل حتى الصباح يتجول في البيت يبكي ويتنهد ويفتح الدواليب ويغلقها؛ والآن يدخل غرفة ابنه في وقار، مرتدياً ثياباً كأنما هو في سفر، يرتدي جزمة عالية وقبعة عريضة وعصا جبلية متينة في نهايتها حديد. وصعد مباشرة إلى السرير وقال: (هيا، انهض !)

أراد الصبي، وهو مرتبك بعض الشيء، أن يحصل على مؤثرات الزواف.

قال الأب بصرامة: "لا، ليس هذا.« ...

فقالت الأم خائفة: "ولكن يا صديقي، ليس لديه غيرها.

- أعطه خاصتي... لم أعد بحاجة إليها بعد الآن.

وبينما كان الطفل يرتدي ثيابه، طوى لوري بعناية الزي الرسمي والسترة الصغيرة والضفائر الحمراء الكبيرة، وبعد أن حزم أمتعته وضع حول عنقه العلبة الصفيح التي تحتوي على خريطة الطريق...

ثم قال: "لننزل الآن إلى الطابق السفلي"، ونزل ثلاثتهم إلى السقيفة دون أن يتحدثوا مع بعضهم البعض... كان صوت المنافيخ يطن، وكان الجميع في العمل.

وإذ رأى الزواف تلك السقيفة مفتوحة على مصراعيها مرة أخرى، والتي كان يفكر فيها كثيراً هناك، تذكر طفولته، وكيف كان يلعب هناك لفترة طويلة بين حرارة الطريق والشرر المتطاير من الحدادة، وهو يلمع في الغبار الأسود. وشعر بفيض من الحنان، ورغبة عارمة في أن ينال غفران أبيه؛ ولكنه كان كلما نظر إلى أعلى، قابلته دائماً نظرة لا ترحم.

وأخيراً قرر الحداد أن يتكلم.

يقول » :يا فتى... ها هو السندان والأدوات... كل هذا لك... وكل هذا أيضاً « ! ويضيف وهو يريه الحديقة الصغيرة التي تنفتح في الخلف، المليئة بالشمس والنحل، في إطار الباب الدخاني » ...خلايا النحل، الكرم، البيت، كل شيء ملك لك... بما أنك ضحيت بشرفك من أجل هذه الأشياء، فهذا أقل ما يمكنك فعله للحفاظ عليها... أنت سيد هنا. خلايا النحل، الكرم، البيت، كل شيء ملك لك... بما أنك ضحيت بشرفك من أجل هذه الأشياء، فهذا أقل ما يمكنك فعله للحفاظ عليها... أنت السيد هنا... أنا راحل... أنت مدين لفرنسا بخمس سنوات، سأدفعها لك.

» -لوري، لوري، إلى أين أنت ذاهبة؟ « صرخت العجوز المسكينة

-أبي « وتوسلت الطفلة... لكن الحداد كان قد غادر بالفعل، وانطلق دون أن يلتفت إلى الوراء...

في مستودع الزواف الثالث، في سيدي بلعباس، كان هناك متطوع في الخامسة والخمسين من عمره منذ بضعة أيام.

.28.

في البحث عن الزمن الضائع [95]

مارسال بروست 1871 ـ 1922

كان ذلك منذ سنوات عديدة مضت، في "كومبراي"، كل ما لم يكن مسرحاً ودراما في وقت نومي لم يعد موجوداً بالنسبة لي، عندما اقترحت عليَّ أمي ذات يوم شتوي، وأنا عائد إلى البيت، عندما رأت وأنني أشعر بالبرد، أن أتناول بعض الشاي، على غير عادتي. في البداية رفضت، ولكن بعد ذلك، لا أعرف لماذا، غيرت رأيي. فأرسلت في طلب واحدة من تلك الكعكات القصيرة الممتلئة التي تسمى "بيتيت مادلين" والتي تبدو كما لو كانت مصبوبة من صمام مخدد من قشرة صدفة الإسكالوب. وسرعان ما أثقلني اليوم الكئيب واحتمالات الغد الحزين، فرفعت إلى شفتي ملعقة من الشاي الذي تركت فيه قطعة من كعكة "المادلين"، لتلين. ولكن في نفس اللحظة التي لامست فيها الرشفة الممزوجة بفتات الكعكة حنكي، ارتجفت، منتبهة إلى الشيء الاستثنائي الذي كان يحدث بداخلي. كانت لذة لذيذة قد غزتني، منعزلة، دون أي فكرة عن سببها. لقد جعلت تقلبات الحياة في الحال تقلباتها غير مبالية، وكوارثها غير مؤذية، وقصرها وهمي، بنفس الطريقة التي يفعلها الحب، إذ يملأني بجوهر ثمين: أو بالأحرى لم يكن هذا الجوهر فيّ، بل كان أنا .

كنت قد توقفت عن الشعور بأنني متواضع، طارئ، فاني. من أين أتت هذه البهجة القوية؟ لقد أحسست أنه كان مرتبطًا بمذاق الشاي والكعك، لكنه كان أبعد من

[95] Marcel Proust, A la recherche du Temps perdu1913

ذلك بكثير، ولا بد أنه لم يكن من نفس الطبيعة. من أين أتت؟ ماذا يعني ذلك؟ أين يمكنني العثور عليه؟ أخذت رشفة ثانية، فلم أجد شيئاً أكثر مما وجدته في الأولى، وثالثة لم أجد فيها شيئاً أكثر من الأولى، وثالثة لم أجد فيها شيئاً أقل من الثانية. لقد حان الوقت للتوقف، يبدو أن فضيلة المشروب تتضاءل. من الواضح أن الحقيقة التي أبحث عنها ليست فيه، بل فيّ أنا.

وضعت الكوب جانبًا والتفت إلى عقلي. الأمر متروك له للعثور على الحقيقة. ولكن كيف؟ حيرة خطيرة، عندما يشعر العقل بأنه مغلوب على أمره، عندما يكون هو، أي الباحث، في البلاد المظلمة التي يجب أن يبحث فيها وحيث لا تنفعه كل أمتعته. يبحث؟ ليس فقط يبحث: يخلق. إنه يواجه شيئًا لم يكن موجودًا بعد، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يدركه ثم يخرجه إلى النور .

وأبدأ أتساءل مرة أخرى عن ماهية هذه الحالة المجهولة التي لم تقدم دليلاً منطقياً سوى الدليل على نعيمها، على حقيقتها، التي اختفت أمامها الحالات الأخرى. أريد أن أحاول أن أجعلها تظهر مرة أخرى. أعود بذاكرتي إلى اللحظة التي تناولت فيها أول ملعقة من الشاي. أجد نفسي في نفس الحالة، دون أي صفاء جديد. أطلب من عقلي أن أبذل جهدًا إضافيًا، لأعيد الإحساس الذي اختفى. ولكي لا يكسر أي شيء الزخم الذي سيحاول به استعادته، أدفع كل عائق، كل فكرة غريبة، أحمي أذني وانتباهي من ضوضاء الغرفة المجاورة. ولكني أشعر أن عقلي يتعب دون أن أنجح في ذلك، فأجبره بدلاً من ذلك على أن يأخذ هذا الإلهاء الذي كنت أرفضه عنه، أن يفكر في شيء آخر، أن ينعش نفسه قبل المحاولة العليا. ثم مرة ثانية أفرغ الهواء أمامه، وأعيد أمامه مذاق تلك الرشفة الأولى التي لا تزال طازجة، فأشعر بشيء يتحرّك في داخلي، شيء يريد أن يرتفع، شيء قد أُخرج من مكانه إلى عمق كبير؛ لا أدري ما هو، ولكنه يرتفع رويداً رويداً؛ أشعر بالمقاومة وأسمع إشاعة المسافات التي عبرت.

لا شك أن ما ينبض بداخلي لا بد أن يكون الصورة، الذاكرة البصرية التي، هي مرتبطة بهذه النكهة، تحاول أن تتبعها إليّ. لكنها تجاهد بعيداً، مشوشة جداً: بالكاد أستطيع أن أتبين الانعكاس المحايد حيث تندمج دوامة الألوان المتقلبة المراوغة؛ لكنني لا أستطيع أن أتبين الشكل، أطلب منها، كما لو أنها المترجم الوحيد الممكن، أن تترجم لي شهادة معاصرها، رفيقها الذي لا ينفصل، النكهة، أطلب منها أن تخبرني عن الظرف المحدد، عن الفترة التي تشير إليها من الماضي.

هل ستصل إلى سطح وعيي الصافي، هذه الذاكرة، هذه اللحظة القديمة التي أتت جاذبية اللحظة المماثلة من بعيد لتستنجد، لتحرّك، لتثير في أعماقي؟ لا أدري. الآن لا أشعر بشيء، لم أعد أشعر بشيء، لقد توقفت، ربما انحدرت مرة أخرى، من يدري إن كانت ستعود من ليلها ؟ عشر مرات يجب أن أبدأ من جديد، أميل نحوه. وفي كل مرة نصحني الجبن الذي يصرفنا عن أي مهمة صعبة، أي عمل مهم، أن أترك الأمر عند هذا الحد، أن أشرب الشاي وأفكر ببساطة في مشاكلي اليوم، في رغباتي للغد، التي يمكن مضغها دون صعوبة.

وفجأة خطرت لي الذكرى. كان مذاقها هو مذاق قطعة المادلين الصغيرة التي كانت عمتي ليوني تقدمها لي في صباحات الأحد في كومبراي (لأنني لم أكن أخرج في ذلك اليوم حتى يحين موعد القداس)، عندما كنت أذهب لألقي عليها التحية في غرفتها، بعد أن تنقعها في الشاي أو منقوع الزيزفون. لم يذكّرني منظر حلوى المادلين الصغيرة بشيء حتى تذوقتها؛ ربما لأنني كثيراً ما رأيتها منذ ذلك الحين، دون أن آكلها، على رفوف الحلوانيين، فغادرت صورتها تلك الأيام في كومبراي لترتبط بأيام أخرى أحدث عهداً؛ ربما لأن هذه الذكريات التي هُجرت طويلاً خارج الذاكرة، لم يبق منها شيء على قيد الحياة، فقد تفكك كل شيء; إن الأشكال - وكذلك قشرة المعجنات الصغيرة، الحسية الغنية جداً تحت طيها الشديد والورع - قد ألغيت، أو فقدت قوة التمدد التي كانت ستسمح لها بالوصول إلى الوعي. لا يبقى من ماضٍ قديم، بعد موت الكائنات، بعد دمار الأشياء، سوى الرائحة والنكهة، الأكثر ضعفاً

لكن الأكثر حيوية، الأكثر ثباتاً، الأكثر إخلاصاً، تبقى لفترة طويلة قادمة، مثل الأرواح، للتذكر، للانتظار، للأمل، على خراب كل ما تبقى، لتحمل دون أن تنحني، على قطراتها التي تكاد لا تتخلخل، صرح الذاكرة الهائل أن يعود المرء عن قراره: أن يغير رأيه، أن يراجع أفكاره .

.29.

البارون العجوز[96]

قي دي موباسان 1850 ـ 1893

كان البارون دي رافو ملك الصيادين في مقاطعته لمدة أربعين عاماً. ولكن في السنوات الخمس أو الست الأخيرة، أقعده الشلل في ساقيه على كرسيه بذراعين، وكل ما كان يستطيع فعله هو صيد الحمام من نافذة غرفة معيشته أو من أعلى منبره العالي.

أما بقية الوقت فكان يقرأ.

وكان رجلاً تجارياً لطيفاً يحتفظ بكثير من الروح الأدبية التي كانت سائدة في القرن الماضي. وكان يحب القصص الخرافية والحكايات الصغيرة الشقية والقصص الواقعية التي حدثت لمن حوله. وما أن يدخل أحد أصدقائه منزله حتى كان يسأل "حسنًا، ما الجديد؟

وكان يعرف كيف يستجوب مثل قاضي التحقيق.

وفي الأيام المشمسة، كان يدحرج كرسيه العريض الذي يشبه السرير أمام الباب. وكان خادم خلف ظهره يحمل البنادق ويحملها ويمررها إلى سيده، وخادم آخر مختبئ في كتلة من الأشجار يطلق حمامة من وقت لآخر، على فترات غير منتظمة حتى لا ينبه البارون ويبقى متيقظاً.

[96] Guy de Maupassant (1850-1893) , touslescontes.com

وكان من الصباح إلى المساء يصطاد الطيور السريعة ويطلقها من الصباح إلى المساء، وينوح عندما يمسك بها، ويضحك حتى البكاء عندما يسقط الوحش على وجهه أو يقوم بشقلبة غير متوقعة ومضحكة. وكان يلتفت بعد ذلك إلى الصبي الذي كان يعبئ الأسلحة، ويسأل وهو يختنق من الفرح:" هل هو هناك يا "جوزيف هل رأيت كيف نزل؟

وكان جوزيف يجيب دائماً

"أوه، إن السيد البارون لا يفتقدهم.

في الخريف، في وقت الصيد، كان يدعو أصدقاءه كما في الأيام الخوالي، وكان يحب أن يسمع طلقات الرصاص من بعيد. كان يعدها وهو سعيد عندما تأتي بسرعة. وفي المساء، كان يطلب من الجميع أن يقدموا سردًا أمينًا لأحداث اليوم.

وكنا نجلس على الطاولة لمدة ثلاث ساعات نتحدث عن الطلقات النارية.

كانت هذه مغامرات غريبة وغير محتملة، كان الصيادون يستمتعون بها. كان بعضهم قد صنع لنفسه اسماً مميزاً وكان يعود بانتظام. وكانت قصة الأرنب الذي افتقده الفيكونت دي بوريل الصغير في دهليزه، تجعلهم يتلوّون كل عام بنفس الطريقة. كل خمس دقائق كان متحدث جديد يقول: "أسمع: "بَرّ! بَرّ!" ورفقة رائعة على بعد عشر خطوات. عدّلتُ تصويبي: "بَرّ! بَرّ!" رأيتُ المطر، مطرًا حقيقيًا. كان هناك سبعة منهم!

والجميع، مندهشون، لكن باندهاش متبادل، دخلوا في نشوة.

ولكن كانت هناك عادة قديمة في البيت، تسمى "حكاية الغراب."

فعندما كانت تمر ملكة الطرائد هذه، كانت تتكرر نفس المراسم في كل عشاء.

وبما أنه كان يعشق هذا الطائر الذي لا يضاهى، كان يؤكل في كل مساء طائر واحد لكل ضيف، ولكن كانت تترك كل الرؤوس في طبق.

ثم كان البارون، الذي كان يقوم مقام الأسقف، يؤتى إليه بقليل من الدهن على طبق، ويدهن الرؤوس الثمينة بعناية، ممسكاً بها من طرف الإبرة الرفيعة التي

تقوم مقام المنقار. وكان يوضع بجانبه شمعة مضاءة، فيصمت الجميع في قلق الترقب. ثم يأخذ إحدى الجماجم التي أعدها على هذا النحو، ويعلقها بدبوس، ثم يثبتها في فلينة، ويحافظ على توازنها بواسطة عصي صغيرة متقاطعة كالبندولات، ويضع هذا الجهاز بعناية على عنق الزجاجة على طريقة الباب الدوار.

كان جميع الضيوف يعدون معًا بصوت مرتفع:

"واحد، - اثنان، - ثلاثة.

ثم قام البارون، بنقرة من إصبعه، بتأرجح اللعبة دورة ودورة.

وأياً كان الضيوف الذين أشار إليهم المنقار الطويل المدبب عند توقفه أصبح سيد كل الرؤوس، وكان ذلك متعة رائعة جعلت جيرانه يحدقون.

كان يلتقطهم واحداً تلو الآخر ويشويهم على الشمعة. كان الدهن يتشقق والجلد المحمر يتصاعد منه الدخان، وكان المختار يقضم الجمجمة المشوية ويمسكها من أنفها ويطلق صيحات التعجب من اللذة.

وفي كل مرة كان الجالسون يرفعون كؤوسهم ويشربون نخباً لصحته.

ثم لما انتهى من آخر كأس، أمره البارون أن يقصّ قصة يعوض بها المحرومين من الشراب.

.30.

الطفل الضائع [97]

شارل فيليب 1810ـ 1899

"نعم، بالتأكيد،" قالت أديلايد، الخادمة السمينة الرمادية التي أعادت فيليب الصغير إلى سان سانت سانتان، "لا بد أنه حتماً من الحزن القاسي للأم المسكينة أن تفكر أن طفلها محكوم عليه أن يعيش مع المحتالين, أو مع بائعي الدببة، أو مع صانعي الأواني، أو مع الشحاذين المتجولين، وأنه سيصبح شريراً ووغداً وفاسقاً وفاسقاً وأنه ربما أعيد بعد عشرين سنة ليموت على المقصلة حيث كان يمكن أن يكون نجاراً جيداً أو معلماً جيداً.

لحسن الحظ، لا يزال هناك بعض الذين لم يعد يحسب لهم حساب، وهنا على سبيل المثال شماس كنيسة ڤي دو لا شاين، الذي فُقد وهو طفل، والذي ظهر مع والديه عندما كادا أن ييأسوا من الحداد. أخبرتني أمي هذه القصة عدة مرات.

كان ذلك هو العام الذي مر فيه أول إمبراطور على بيلسمي. كل القدماء يتذكرون ذلك. كانت البلاد قد انقلبت رأساً على عقب. فقد كان الإمبراطور عائداً لتوه من رؤية الموانئ البحرية؛ وبينما كان يمر في الغابة قال إن أشجار السنديان المستقيمة كالحور ستصنع له سفناً جيدة؛ وبينما كان يمر في المدينة نظر من منظاره إلى النسور القديمة التي تزيّن بوابة الكنيسة والتي تعود إلى عهد هنري الرابع؛ وترك الجميع متأثراً إلى درجة أن عمدة ذلك الوقت أراد أن يبقى ذكره في الذاكرة الحية

---

[97] Charles-Philippe de Chennevières-Pointel (1820-1899) , touslescontes.com

عندما جاء يوم عيده، فأمر بإحضار منطاد ومنطاده من باريس. ولم يكن أحد قد رأى بالوناً في بيلسم من قبل، ومنذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا لم ير أحد بالوناً من قبل.

وكان الرجل الذي كان من المقرر أن يغادر في المنطاد قد اختار البقعة الواقعة عند سفح القلعة القديمة ليعدّ فيها عملية اختطافه. استغرق الأمر عدة ساعات لإشعال ناره وإعداد مطبخه. انتفخ البالون ثم انكمش. كان كل أطفال البلدة والمنطقة المحيطة بها موجودين هناك، يتدافعون ويسحقون الرجل المسكين. وعندما طاردهم من جهة، ضغطوا عليه من جهة أخرى. كان الجو حارًا، وكان مبللًا تمامًا. وكان الناس من أهل الريف قد جاءوا من عشرة فراسخ حوله، وكانت الساعة الخامسة؛ وكانت النساء الطيبات يردن العودة إلى مزارعهن لإعداد عشائهن؛ وكان صبرهن قد نفد كما نفد صبرهن اليوم. كان العمدة قد أخبر الرجل الذي كان يحمل المنطاد أربع مرات أن عليه أن يغادر وإلا لن يحصل على أجره. وأخيراً رأى هذا الرجل الشجاع، وهو خائف تماماً، المنطاد منتفخاً إلى حد ما، فوقف فوق قاربه الصغير، وأشار إلى طبال البلدة أن يترك الحبال التي تمسك به، وأقلع بسرعة كبيرة وسط تصفيق جميع الحاضرين. وما إن تجاوز المنطاد مستوى الأبراج القديمة حتى دفعته الرياح نحو واميرس، وبعد نصف ساعة كان الجميع عائدين إلى بيوتهم وهم يتساءلون عما إذا كان المنطاد سيسقط في القمر، أم أنه سيتعلق بأشجار فونواز أو شيريرين.

وعاد الجميع إلى بيوتهم، ما عدا مسكينين من آل برونو من سكان غي دي لا شاين الذين كانوا يركضون في البلدة يسألون الجميع إن كانوا قد رأوا ولدهم يوسف، وكانت أم المرأة الطيبة التعيسة قد جن جنونها لدرجة أنه في صباح اليوم التالي كان لا بد من إعادتها بالقوة إلى غي دي لا شاين؛ فهي لم تكن تريد أن تترك بيلسم. لا أحد، لا الطبال، ولا رجال الإطفاء، ولا مأمور القرية، ولا أحد رأى جوزيفها.

كان يوسف صبيًا ذكيًا جدًا وكان قد بلغ الحادية عشرة من عمره ولم يكن بحاجة إلى مشذب منذ فترة طويلة. وفي الأيام القليلة التالية لم يعثر عليه في أي من آبار البلدة أو أحواض الشرب أو المغاسل. وكان الناظر يطوف به في كل بلدة وقرية مجاورة في أيام السوق، حيث كان يطوف في كل بلدة وقرية مجاورة في أيام السوق، حيث فقد لغته اللاتينية. وقد أقلق ذلك السكان المحليين الذين كان لديهم أطفال.

وهل تعرف أين كان يوسف؟ لقد كان في المنطاد. وبينما كان رفاقه يضايقون سائق المنطاد المسكين، كان هو قد غاص في السلة تحت حزمة ملابس هذا الرجل، وعندما أخرج رأسه من تحت الملابس كان على مد البصر في الهواء، وكانا يمران للتو فوق (غيه دي لا شاين). - قال الرجل الذي كان يقود المنطاد: (وا أسفاه!) قال الرجل الذي يقود المنطاد: (ماذا تفعل هنا أيها الوغد، وماذا سأفعل بك؟ لا تتحرك، وإلا هبطنا ستمائة قدم في نصف دقيقة؛ ولكنك إذا بقيت ساكناً، فسوف ننزل على بعد فرسخ من هنا، وسأعيدك إلى أهلك لتنام في هدوء.

ولكن في الوقت نفسه، أدرك الرجل سيئ الحظ أنه في عجلته للصعود إلى السلة بنفسه، نسي ثقله ومظلته وكل شيء آخر. وجرفتهم الرياح بعنف جعل الرجل في المنطاد شاحباً. احكموا لو أن يوسف كان مطمئنًا. - لقد ضللنا الطريق"، ظل مرشده التعيس يرددها وهو يلوي ذراعيه وينوح، وجوزيف دون أن يجرؤ على رفع نفسه على مرفقه يندب بصوت أعلى مما يستطيع. وظلّت الريح تسوقهما بغضب شديد، فطارا، كما قال يوسف فيما بعد، بسرعة الطيور والغيوم. جاء الليل ولم يكن هناك راحة. وبالإضافة إلى خوفهم، أصيبوا بالبرد الذي جعل أسنانهم تصطك. وفي فجر اليوم التالي أدركوا في فجر اليوم التالي أنهم يشرفون على بلاد تكسوها غابات طويلة مظلمة، وأن البحر يقع على بعد قليل إلى اليمين. ولا يسعنا أن نعبر عن الخوف الذي استولى عليهم من فكرة أنهم قد يجدون أنفسهم فوق البحر الذي لا حد له فيسقطون فيه، ولحسن الحظ أنهم استمروا في الالتفاف

حوله على مسافة خمسة عشر فرسخاً تقريباً. ومروا فوق بلدة كبيرة، ومزق الرجل، وقد تأثر بالقلق الذي كان والدا هذا الطفل، ورقة من دفتره وكتب بقلم الرصاص هذه الكلمات البسيطة: "يوسف معي، إن المنطاد يغادر في محنة. قذف بالورقة في الهواء، ولكن عندما سقطت في الحظيرة مزقها ديك بمنقاره إلى أشلاء، ثم جاءت الخادمة بمكنستها التي دفعت القطع إلى السماد. وقال رجل فيما بعد إنه التقطها لكنه لم يكن يعرف معنى ذلك.

وكان الجوع قد استولى على الرجل الذي كان في المنقار، وبينما كان يتحدث إلى نفسه بصوت عالٍ بسبب الحيرة التي وضعته فيها حالته، سمع يوسف وهو يقول لنفسه: (لم آكل منذ صباح الأمس؛ كنت أعول على تناول العشاء ذلك المساء في الحصان الأبيض! ماذا سآكل؟ لكن لا يجب أن أتخلى عن قوتي بالكامل. ثم دخل في صمت رهيب استمر حتى المساء. وأخيراً، وبينما كانت الشمس تغرب أمامهم، التفت الرجل إلى يوسف وقال - يا طفلي المسكين، لا يسعني إلا أن أشفق عليك لسوء الحظ الذي دفعك إلى سلتي؛ ولكن بما أن الطبيعة تأبى عليَّ أن أجوع نفسي حتى الموت، وليس في هذه البلاد غيرنا نحن الاثنين، فأنا مضطر أن آكل قطعة منك، وهذه المرة لن أتذوق منك إلا الجزء الأكثر لحماً؛ ففك بعض الأزرار بينما أذهب أنا وأشحذ سكيني. ففعل ما قال إنه سيفعل، ولذلك كان يبدو أن أحد كتفيه أعلى من الآخر وهو جالس؛ ولكنه يزعم أنه إما بسبب نفوره من اللحم البشري أو لأن اللقمة لم تنظف كما ينبغي، فتمسك الرجل باللقمة الأولى، وناموا ليلة أخرى وقد أنهكتهم عواطفهم.

استيقظوا قبل شروق الشمس على ضجة عظيمة من بعيد، ورأوا على بعد فرسخ تقريباً الخطر الهائل، واللحظة الرهيبة التي بدت لهم في اليوم السابق. كان البحر هناك، بهديره، وأمواجه المتلاطمة التي تتكسر على الصخور. ففقد الرجل صوابه تماماً، وفتح سكينه مرة أخرى، ولكن هذه المرة ليقطع قماش المنطاد بضربة واحدة عظيمة. ومنذ تلك اللحظة، بدأ المنطاد في الهبوط بسرعة مخيفة. رأى

جوزيف أن الرجل، الذي كان مذهولاً أكثر فأكثر من الخوف، كان يربط حبلاً حول جسده، وبعد أن ربطه بالمنطاد، كان هو نفسه يندفع إلى الخارج؛ أو بالأحرى، منذ تلك اللحظة، لم ير جوزيف شيئاً. وعندما استعاد عافيته وجد نفسه عند سفح شجرة، والرجل الذي كان يحمل المنطاد وقد انكسر ظهره ممددًا بجانبه، وتجمع حوله عدد كبير من المتوحشين.

وعندما أقول متوحشين، أعني أناساً يرتدون ملابس لم يرهم من قبل، ويتكلمون لغة لم يسمع كلمة منها. كانوا يرتدون قبعات كبيرة وشعرهم كثيف وسراويل قماشية واسعة، وكان بعضهم يرتدي جلوداً من القماش على ظهورهم، وكانت النساء يرتدين تنانير وبلوزات لامعة جداً. وأُحضر كاهن نظر إلى الغريبين بفضول وأدار أنقاض المنطاد جولة وجولة، وإن كان بحذر شديد، كما يتعامل المرء مع آلة خطيرة وشيطانية؛ ولكن الكاهن كان يتكلم نفس لغة المتوحشين، ولم يستطع يوسف أن يخبره بقصته. فأخذوه إلى الكاهن، وعولج جرحه المشهور، وأُجبر على أكل عصيدة الحنطة السوداء. أما الرجل صاحب المنطاد فقد دُفن عند باب المقبرة. لكن يوسف المسكين، كيف يمكنه العودة إلى والديه؟ لم يكن يعرف أين هو، ولم يستطع أن يجعل الآخرين يفهمون من أين أتى. أعطاه كاهن الرعية، الذي كان رجلاً محبًا للخير، بقرته ليرعاها وجعله يفهم أشياء كثيرة بالإشارات، كما يتحدث المرء إلى شخص أصم وأبكم.

وفي إحدى الأمسيات عندما عاد يوسف من الحقول، بدأ ينشد بأعلى صوته الترنيمة التي ينشدها الحصادون في هذه البلاد عند عودتهم إلى بيوتهم في المساء:

عَلَى طُولِ الْغَابَةِ رَأَيْتُ الْقَمَرَ يَطْلُعُ...

فأفهمه الكاهن الذي كان يسمعه من بعيد، عندما دخل الفناء أن عليه أن يبدأ الغناء من جديد؛ ولما حان وقت الحساء غنى الفتى اللحن الآخر

هلا تناولنا العشاء بعد قليل يا سيدتي، قولي نعم.

ولما سمع الكاهن كلمة (نعم) عرف الكاهن أن يوسف من فرنسا، وأقلقه ذلك كثيراً، لأنه عندما رآه يسقط من السماء مع رجل غريب الملبس ومنطاد مثقوب، كان قد تخيل أنه ربما كان يتعامل مع إنجليز، ولم يكن في ذلك الوقت سوى إنجليز على طول الساحل. ولهذا السبب أمر الكاهن بدفن الرجل عند باب المقبرة، لأنه سواء أكان ساحراً أم إنجليزياً فقد ظن أن موتى القرية لن يقبلوه جاراً لهم.

ولكن يجب أن تعلموا أن المنطاد سقط في نهاية بريتاني، على بعد نحو عشرين فرسخاً من كويمبر كورنتان. وكان كاهن الرعية يعرف اللاتينية كما يعرفها الأسقف؛ ولكن بما أنه من أهل الريف، وبما أنه لم يكن قد تحدث إلى أبناء رعيته بغير اللغة البريتونية التي علمها له أبوه وأمه، لم يكن يستطيع أن يسمع الفرنسية، ولم يكن هناك من سبيل إلى أن يجيبه جوزيف بلغة البريتون. لذلك خطر بباله أن يتعلم لغة جوزيف، وقال لنفسه إن هذه فرصة عظيمة له لتعلم الفرنسية، وأن الفرنسية قد لا تكون عديمة الفائدة بالنسبة له إذا أراد أن يصبح كاهن رعية إحدى كنائس كيمبر. ولكن خمن ماذا حدث. وكان جوزيف - وأنت تعرف كيف يكون الأطفال قروداً - أسرع إلى تعلم اللغة البريتونية التي كان يسمع جميع النساء الصالحات في الرعية يتحدثن بها، من تعلم الكاهن للفرنسية. ولكن الفرنسية التي كان يتعلمها من الفتى كانت فرنسية رديئة جداً؛ ولك أن تتصور أنها كانت لهجة أهل بلادنا، وبعد خمسة أشهر من التلمذة على يد الكاهن كان يتكلم كما يتكلم أولاد المزارع في (غي دي لا شاين).

ومع ذلك فقد كان يعتقد أنه يعرف ما يكفي ليكتب إلى حاكم كومبر كورنتان. وفي هذه الرسالة أعلمه فيها أن كيساً كبيراً سقط في الثامن عشر من أغسطس من الأرض في رعيته مصنوعاً من القماش من جميع الألوان، وفيه رجل يرتدي فراشاً من القش في أرض المعارض، وقد قتل نفسه في السقوط، وفلاح صغير بدا عليه الغضب الشديد لأنه ترك أباه وأمه، وهو من بلدة يسميها غيه دي لا شين. وعلى الرغم من أن الناس كانوا معتادين في تلك الأيام على أشياء عجيبة في تلك الأيام،

إلا أن والي كويمبر كورنتان فرك عينيه عندما تلقى رسالة القسيس. فلم يسبق له أن رأى مثل هذه اللغة الفرنسية الغريبة، أو مثل هذه الهجاء الغريب، أو مثل هذه القصة الغريبة. فذهب ليعرض الرسالة على الأسقف، فلم يتمالك الأسقف نفسه من الضحك من الرسالة رغم أنه أكد له أن الكاهن رجل صادق جداً لا يعرف الكذب. - فقال مونسينيور: (هناك شيء واحد فقط يدهشني هو أن الكاهن يعرف كلمة من الفرنسية؛ ولكن أرسلوا اثنين من رجال الدرك، وسيوضحان الأمر: إن كان قد ضحك عليكما فسيعيدان الجاني؛ وإن كان الكاهن يقول الحقيقة فسيعيدان الطفل. - وبالفعل غادر رجال الدرك، وبعد أربعة أيام، ولأن الطرق لم تكن جيدة، أحضر الكاهن يوسف والبالون في عربة إلى الوالي.
- قال الوالي للفتى: "من أين أنت؟ - أجاب يوسف: "من غي دو لا شاين". - ثم نظر الوالي في جميع دفاتر المحافظة: "لا يوجد في جيبي أكثر من غي دو لا شاين.
- فسأل المحافظ: "من أي قسم؟ لكن الرجل لم يكن يعرف ما هو القسم. كان جميع الكتبة مشغولين بتصفح أوراقهم ولافتاتهم المرسومة التي تبين المدن والمقاطعات. اقترب منهم وقال: - إنها بجوار الغابة مباشرة. لم يعرف المحافظ كيف يخرجه من هناك. سأله إن كان للعمدة منزل جميل. فقال الرجل: - لم أره، إنه في سان مارتان. - ولكن هناك الكثير من السان مارتان في هذا العالم، ولم يكن العمدة متقدماً كثيراً؛ وأخيراً فكر في أن يسأله: - هل يوجد هنا معارض جميلة؟ - فأجابه جوزيف: - أجملها هو سان سيمون في بيلسمي. بحثوا عن بيلسمي في الكتب ووجدوه. لكن الوالي لم يستطع أن يفهم كيف يمكن أن يكون الطفل قد قطع كل هذه المسافة في منطاد. لقد كان جوزيف يتنقل من لواء إلى لواء، في عربة خلف دركي، من كويمبر كورنتان إلى بيلسم. - وهي مسافة مائة فرسخ عبر البلاد - وبدلاً من أن يصل عن طريق ماميرس، سلك الطريق إلى لومان. ومع ذلك فقد تعرف على كنيسة سان سوفور وبقايا القلعة القديمة التي أقلع منها قبل ستة أشهر؛ ولما أعلن العمدة أنه سيقرع له الطبول في الشوارع كالكلب الضائع، قال له

الفتى: - لا فائدة، سأجد طريق العودة هذه المرة; فقط أنا خائف، لأن أبي سيضربني ضرب الشيطان لبقائي بعيدًا عن المنزل لفترة طويلة. - فقال العمدة ضاحكاً من أعماق قلبه: (حسناً، سأوصلك إلى المنزل حتى لا تتعرض للضرب المبرح). - وعلى الرغم من ذلك، عندما هبطوا من بيلسم ووصلوا إلى قمة التل الصغير المطل على نهر غيه دي لا شاين، بدأ جوزيف يشحب لونه مرة أخرى ويرتعد من الخوف بقدر ما يرتجف من السرور. وبدأ الأطفال الأوائل في القرية الذين تعرفوا عليه يتبعونه هو والعمدة وهم يصيحون ببعضهم البعض بفتور: - حسناً، ها هو يوسف مرة أخرى. وبدأ كبار السن أيضاً يتبعونهما عن بعد بدافع الفضول. وبينما هو يمضي، تغيّر لونه من الأبيض إلى الأحمر، ومن الأحمر إلى الأبيض. وكان والداه المسكينان منذ فقدوه يقضيان النهار كله على عتبة بابهما ينظران إلى طرفي الطريق لعلّه يعود، وقد استهلكا عيونهما في ذلك وبكيا. كانا يسكنان في أعلى القرية، حيث ينعطف الطريق. فقال أحد الجيران، وكان قد رأى العمدة ويوسف من قبلهم للمرأة الصالحة: - ولكن انظر يا برونو، إنه هو حقاً هذه المرة، إنه يوسفك. - قالت: (يا إلهي! نعم، إنه هو حقاً، البائس!) - حسناً، برونو، ها هو ذا ولم تكن لديها القوة للنهوض. وعندما تقدم إليهم الفتى، بإلحاح من العمدة، أخذوا جميعاً في النحيب والبكاء، وأخذوا يقلبونه في كل مكان حتى ظنوا أن المرأة المسكينة ستموت من الفرح. لم يفكروا حتى في إجلاس العمدة. لكنه كان لا يزال يتمتع بساقين جيدتين في تلك الأيام، وعاد سعيدًا. وبعد أيام قليلة أبلغ العمدة أسرة برونو بعنوان القسيس الشجاع القادم من بريتاني الذي أنقذ يوسف، والذي كان الوالي قد أخبره به. فكتب إليه كاهن غيه دي لا شاين رسالة شكر طويلة كتبها له كاهن غيه دي لا شاين؛ وأعلنوا أنه سيرسل إليه زوجاً جيداً من الدجاج؛ ولكن يبدو أن المسافة بعيدة جداً، والطرق سيئة جداً، بحيث لم يتمكن الدجاج من الوصول أبداً؛ وتلقى يوسف بعد سنتين أو ثلاث، أي في سنة تثبيته كتاباً جيداً أرسل إليه من كيمبر: كان كتاباً لتعليم اللغة الفرنسية لرجال

الدين في بريتون السفلى في المعاهد الدينية الكبرى؛ ولكن أسقف غيه دي لا شاين لم يكن يرى أن هذه الفرنسية جيدة جداً، وأشار على عائلة برونو بأن الكتاب لم يوافق عليه أسقف كيمبر. وعلى الرغم من أن جوزيف كان بالفعل فتى مذبح، وكان الأب برونو طيباً جداً مع الكاهن، إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من القول له: "آه، يا سيدي الدير، ربما لن تكون جيداً في بريتون!

.31.

مقدمة[98]

شارل فيليب 1820ـ 1899

في حديقة المنزل الصغير المسمى سان سانت سانتان، الذي يقع خارج بيلسمي إن بيرش، كانت هناك مجموعة كبيرة من الأطفال من جميع الأعمار، من الأطفال الصغار إلى أولئك الذين يعرفون القراءة والكتابة بشكل جيد للغاية، وحتى أولئك الذين كانوا يذهبون إلى مدرسة الأحد. كان ذلك بمناسبة مهرجان أقيم في البلدة تكريماً للسكان المحليين الذين أحضروا أفضل ما لديهم من أبقار وخيول وأغنام إلى ساحة المعرض. ويسمى هذا المهرجان بالمعرض الزراعي، وغالباً ما تقام هذه المهرجانات اليوم في الريف؛ ولكن هذا المهرجان كان الأول من نوعه الذي يقام في بلدة بيلسمي، وقد بذل العمدة ونواب العمدة ونائب الدائرة قصارى جهدهم لضمان أن يتذكره أهالي البلدة والمزارعون لسنوات عديدة قادمة. كانت الشوارع مصفوفة بأكاليل من أوراق الشجر، وعندما يأتي الليل، كانت هناك أكاليل من الزجاج الملون. وكان من المقرر أن تطلق الألعاب النارية في المساء؛ ولكن لكي يبقى الفضوليون مشغولين حتى ذلك الحين، ولكي لا يبقى السكارى في الملاهي طوال النهار، كان من المقرر أن يحمل رجل في منطاد في فترة ما بعد الظهر؛ ومن بين كل الناس الذين جاءوا إلى بيلسم في ذلك اليوم، من عشرة فراسخ حولها، أقسم أنه

98 Charles-Philippe de Chennevières-Pointel (1820-1899), touslescontes.com

لم يكن هناك عشرة أشخاص قد رأوا منطاداً محمولاً في حياتهم. احكموا كم كانت حفلة رائعة! أما الآن، ومن حديقة سان سانت سانتان فمن السهل على العيون التي لا تحتاج بعد إلى نظارات أن ترى من وراء الطريق الجديد كل ما يجري في أرض المعارض، بل حتى الغابة، دون أن تتعرض لاندفاع الخيول أو قرون الثيران، أو أن يخنقها الزحام, وكان كثير من الأطفال قد أحضرهم آباؤهم إلى الحديقة، وأطلقوا العنان لأنفسهم في الركض في الممرات صعوداً ونزولاً، ولعب الغميضة في العرائش وخلف الأسيجة والعريشة، في انتظار أن ينتفخ البالون ويغادر الأرض. وأخذت جواريهم اللاتي كن يعتنين بهم هناك يركضن ويلعبن معهم، ولم يكن أقلهم ضحكاً وصياحاً. وربما كن يفضلن أن يقدن الأطفال إلى الشجار ويذهبن يثرثرن مع ثرثارات البلدة اللاتي كن يأتين في الطريق في فرق، ويريهم قلنسواتهن ذات الأشرطة العريضة وأطواقهن المطرزة، وفساتينهن الأورليانية الجميلة الضيقة عند الخصر، مما كان سيجعل الآخرين ينفجرون من الغيرة، لأن هذه الفساتين وهذه الأطواق وهذه القلنسوات كلها تقريباً جاءت من باريس، أو على الأقل من كاين أو ألنسون; ولكن كان عليهن أن يبقين في سان سانت سانتان ويمرحن مع الأطفال. ولكن كان عليهن أن يبقين في سان سانت - سانتان ويستمتعن مع الأطفال؛ وكانا سعيدات بذلك، ولا سيما أن كل واحدة منهن كانت تحب أطفالها حباً عظيماً، بل يجب أن يقال إن ذلك كان أكثر من القلنسوات والفساتين.

تم إعداد وجبة خفيفة موسمية: خوخ وخوخ وغاليت حلو على الطريقة الأرجنتينية. وُضعت الأطباق والصحون على المقاعد الريفية، وجلسنا على الأرض تحت مجموعة من أشجار التنوب.

- قالت ماري البستانية: "لم يعد الناس يجتمعون في ساحة الشاتو ولم يعودوا يجتمعون في ساحة المارشيه بعد الآن، لم يعد هناك الكثير من الناس في بيلسم اليوم يا سيدي! لم يكن هناك الكثير العام الماضي في يوم القديس سيمون، على

الرغم من أن الشمس كانت مشرقة بنفس السطوع وكان المعرض أفضل ما كان عليه منذ سنوات عديدة. الكثير من الناس يأتون ويذهبون! إذا لم تكن هناك تقارير عن أطفال مفقودين غداً، فنحن محظوظون. لقد ضاع طفل السيدة ماسارد الصغير مثل ذلك العام الماضي، في يوم السباق في مورتاني. وكان الطحان من أوناي يأخذه إلى أمه في لا ميناردير، وظلت تطارده من باب إلى باب حتى الساعة العاشرة ليلاً: قالت الممرضة: (لو فقدت هذا الصبي الصغير هنري لألقيت بنفسي من فوق برج سان سوفور). ما الذي يمكن أن تقوله لأم مسكينة لتشرح لها أنك فقدت طفلك؟

.32.

ما تقوله الزهور[99]

جورج صاند 1804ـ 1876

عندما كنت طفلاً، عزيزتي أورور، كنت أتعذب كثيراً من حقيقة أنني لم أستطع فهم ما تقوله الزهور لبعضها البعض. أكد لي أستاذي في علم النبات أنها لا تقول شيئًا؛ إما لأنه كان أصمًا أو لأنه لم يكن يريد أن يخبرني بالحقيقة، وأقسم أنها لا تقول شيئًا على الإطلاق.

كنت أعرف العكس. فقد كنت أسمعهما يثرثران باضطراب، ولا سيما في ندى المساء؛ ولكنهما كانا يتحدثان بصوت منخفض جداً بحيث لم أستطع أن أفهم ما يقولان؛ ثم كانا يرتابان في الأمر، وعندما كنت أمر بالقرب من أحواض الحديقة أو في طريق المرج، كانا ينذران بعضهما بعضاً بنوع من الصمت الذي كان يجري من أحدهما إلى الآخر. كان الأمر كما لو أن أحدهم قال لي: "انتبه، التزمي الصمت، هناك طفل فضولي يستمع".

أصررت على ذلك. وتمرنت على المشي بهدوء شديد، دون أن أحتك بأصغر نصل من العشب، حتى لم يعدن يسمعنني واستطعت أن أقترب منهن أكثر فأكثر، ثم تواريت تحت ظلال الأشجار حتى لا يراني، وأخيراً التقطت بعض الكلمات المفهومة.

---

99 George Sand (1804-1876), contesdumonde.com

لقد كانت أصواتاً خافتة، ناعمة جداً وناعمة جداً ودقيقة جداً، حتى أن أقل نسيم هبّ من السماء، فغطى عليها أزيز الخنافس والخنافس النونية تماماً.
لا أعرف ما هي اللغة التي كانوا يتحدثون بها. لم تكن الفرنسية أو اللاتينية التي كنت أتعلمها في ذلك الوقت، ولكن صادف أنني كنت أفهمها جيداً. حتى أنه بدا لي أنني فهمت هذه اللغة أفضل من أي شيء سمعته من قبل.
في إحدى الأمسيات، تمكنت من الاستلقاء على الرمال دون أن يفوتني أي شيء مما كان يقال بالقرب مني في زاوية محمية من أحواض الزهور. وبما أن الجميع كانوا يتحدثون في جميع أنحاء الحديقة، لم يكن من المفيد محاولة التقاط أكثر من سر واحد في كل مرة. لذلك وقفت هناك ساكنًا تمامًا، وهذا ما سمعته في الخشخاش:
-سيداتي وسادتي، لقد حان الوقت لوضع حد لهذا الابتذال. إن جميع النباتات متساوية في النبل؛ وعائلتنا لا تشبه غيرها، وإنني إذ أقبل من يريد أن يكون ملكاً للورد، أعلن أنني اكتفيت من هذا الكلام، وأنني لا أعترف لأحد بحق الادعاء بأنه أفضل مني مولداً وأرفع مني لقباً.
فأجابت الأقحوانات جميعًا بأن المتحدثة عن الخشخاش كانت على حق. وطلبت إحداهن، وكانت أطول من الأخريات وأجمل منهن، أن تتكلم وقالت: - لم أفهم أبدًا المظاهر والنعم التي تتجمل بها عائلة الورد. لماذا، أسألكم، لماذا الوردة أجمل وأجمل مني؟ لقد عملت الطبيعة والفن معًا على مضاعفة عدد بتلاتنا وتألق ألواننا. بل نحن أغنى بكثير، لأن أجمل وردة لا يكاد يزيد عدد بتلاتها عن مائتي بتلة، بينما نحن لدينا ما يصل إلى خمسمائة بتلة. أما بالنسبة للألوان، فلدينا اللون البنفسجي والأزرق النقي تقريباً الذي لن تجده الوردة أبداً - أنا، كما يقول قبرة معمرة كبيرة، أنا الأمير دلفينيوم، لديّ لازوردية السماء في كورولاي، ولدى أقاربي الكثيرين كل درجات اللون الوردي. إن ما يسمى بملكة الزهور لديها الكثير مما تحسدنا عليه، أما عطرها الذي يتباهى به كثيراً...

- لا تتحدثي عن ذلك"، قالت الخشخاش بحدة. ضجة العطر تثير أعصابي. ما هو العطر؟ اصطلاح وضعه البستانيون والفراشات. أعتقد أن رائحة الوردة كريهة وأنني أنا الذي أتعطر - نحن لا نشم شيئاً، تقول زهرة الأقحوان، وأعتقد أن هذا يدل على حسن الخلق والذوق الرفيع. الروائح طيش أو تفاخر. النبتة التي تحترم نفسها لا تعلن عن نفسها بالانبعاثات. لا أوافقك الرأي"، صرخ خشخاش كبير ذو رائحة قوية جدًا. الروائح تعلن عن الروح والصحة.

غطى الضحك صوت الخشخاش الكبير. وأمسك القرنفل بأضلاعه وأغمي على الريسيدا. ولكنه بدلاً من أن يغضب، عاد إلى انتقاد شكل ولون الوردة، التي لم تكن قادرة على الرد، فقد كانت كل شجيرات الورد قد شذبت للتو ولم يكن في البراعم الجديدة سوى براعم صغيرة ملفوفة بإحكام في ثيابها الخضراء. وكانت هناك زهرة زهرية غنية جداً كانت تنتقد بمرارة الزهور المزدوجة، وبما أن هذه الزهور كانت هي الأكثرية في فراش الزهور، فقد بدأ الناس يغضبون. ولكن كان هناك الكثير من الغيرة على الوردة لدرجة أنهم اجتمعوا جميعًا للسخرية منها وتشويه سمعتها. حتى أن الفكرة نجحت بعض النجاح عندما قارنوا بين الوردة والملفوف الكبير، مفضلين الأخيرة بسبب حجمها وفائدتها. أغضبني هذا الهراء الذي كنت أسمعه، وفجأة أصبحت أتحدث بلغتهم : - اخرس"، صرخت وأنا أركل الزهور السخيفة. أنت لا تقولين شيئاً ذا قيمة. كنت أظن أنني سأسمع أعاجيب الشعر هنا، ولكن يا لخيبة الأمل التي تسببونها لي بخصوماتكم وغروركم وحسدكم الدنيء!

ساد صمت عميق وغادرت الروضة.

- قلت في نفسي: لنرى إن كانت النباتات الريفية أكثر فطنة من هذه النباتات المعمرة المزروعة التي يبدو أنها قد أخذت عنا جمالاً مستعاراً من جمالنا الذي يبدو أنه قد أخذ عنا تحيزاتنا ونقائصنا. تسللت من خلال ظل السياج الكثيف متجهاً نحو المرج، أردت أن أكتشف ما إذا كانت زهرة السبيريا التي نسميها ملكة

المروج هي الأخرى تملك الفخر والحسد. لكني توقفت بجانب وردة كلب كبيرة كانت أزهارها كلها تتحدث مع بعضها البعض.

-فقلت في نفسي: لنكتشف ما إذا كانت الوردة البرية تستخف بالوردة ذات المائة ورقة وتحتقر وردة البومبون.

ولا بد لي أن أخبرك أنه عندما كنت طفلاً لم يكن أحد قد ابتكر كل أصناف الورود التي نجح البستانيون الأذكياء منذ ذلك الحين في إنتاجها بالتطعيم والبذر. لم تكن الطبيعة أكثر فقراً بسبب ذلك. فقد كانت شجيراتنا مليئة بأصناف عديدة من الورود القوية: وردة الكانينا، التي سميت بهذا الاسم لأنه كان يُعتقد أنها علاج ضد عضة الكلاب المسعورة في الحدائق، كان لدينا أيضًا بعض الأنواع الساحرة التي كادت أن تضيع اليوم، مثل وردة متنوعة باللونين الأحمر والأبيض ذات بتلات قليلة، ولكنها أظهرت تاجها من الأسدية. ثم، في الحدائق، كان لدينا أيضًا بعض الأنواع الساحرة التي كادت أن تضيع اليوم، مثل وردة متنوعة باللونين الأحمر والأبيض لا تحتوي على الكثير من البتلات ولكنها أظهرت تاجها من الأسدية الصفراء الزاهية ولها رائحة البرغموت. كانت وردة البومبون الكبيرة والصغيرة، التي أصبحت نادرة للغاية; ووردة مايو الصغيرة، وهي أبكرها وربما أكثرها عطراً على الإطلاق، وهي الآن غير مطلوبة عبثاً في التجارة؛ ووردة دمشق أو بروفانس التي عرفنا كيف نستعملها والتي نضطر الآن إلى طلبها في جنوب فرنسا؛ وأخيراً الوردة ذات المائة ورقة أو بعبارة أفضل، ذات المائة بتلة التي لا يعرف موطنها والتي تنسب إلى الزراعة عموماً.

كانت الوردة هذه هي التي كانت يومئذ، بالنسبة لي كما هو الحال بالنسبة للجميع، المثل الأعلى للوردة، ولم أكن مقتنعاً كما كان محدثي مقتنعاً بأنها وحش يرجع إلى علم البستانيين. قرأت في شعرائي أن الوردة كانت دائماً مثالاً للجمال والعطر. بالطبع، لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ورود الشاي التي لم تعد رائحتها كالورود، ولا عن كل الأصناف الساحرة التي تنوعت في أيامنا هذه تنوعاً لا متناهياً ولكنها غيرت

أساساً النوع الحقيقي من الورد. كنت أدرس علم النبات في ذلك الوقت. لم أتعمق فيه إلا بطريقتي الخاصة. كانت لدي حاسة شم قوية وكنت أريد أن يكون العطر من الخصائص الأساسية للنبات، أما أستاذي الذي كان يتعاطى التبغ فلم يكن يمنحني هذا المعيار في التصنيف. فقد كان لا يشم إلا رائحة التبغ، وعندما كان يشم رائحة نبتة أخرى كان يعطيها خصائص صارمة مهينة تماماً. فأصغيتُ بكل أذني إلى ما تقوله شجيرات الورد فوق رأسي، لأني رأيت من أول الكلمات التي استطعت أن أفهمها أنها تتحدث عن أصول الورد.

- قالتا: "ابق هنا يا زفير الحلو"، نحن في مرحلة التفتح. الورود الجميلة في فراش الزهور لا تزال نائمة في براعمها الخضراء. انظري، نحن في نضارة وبهجة، وإذا هززتنا قليلاً، فسوف ننشر عبيراً زكياً كعطر ملكتنا اللامعة.

ثم سمعت الزفير يقول

-اصمتوا، ما أنتم إلا أبناء الشمال. أنا لا أمانع أن أتحدث معكم لحظة، ولكن لا تتكبروا على ملكة الزهور، ولكن لا تتكبروا على ملكة الزهور، فأجابت زهور وردة الكلب: نحن نحترمها ونعشقها يا زفير؛ ونحن نعلم كم تغار منها الزهور الأخرى في الحديقة. يزعمون أنها ليست أكثر منا، وأنها ابنة وردة الكلب ولا تدين بجمالها إلا للتطعيم والزراعة. نحن جاهلون ولا نعرف كيف نرد عليهم. أخبرونا يا من أنتم أقدم منا على الأرض إن كنتم تعرفون الأصل الحقيقي للورد - سأخبركم أنا، لأنها قصتي أنا، اسمعوا هذا ولا تنسوه أبداً.

وقال الزفير هذا - في زمن كانت الكائنات والأشياء في الكون لا تزال تتكلم لغة الآلهة، كنتُ الابن الأكبر لملك العواصف. كان جناحاي الأسودان يلامسان طرفي الآفاق الشاسعة، وشعري الهائل متشابكًا مع السحب. كان مظهري مخيفًا وساميًا؛ كانت لي القدرة على جمع غيوم الشمس الغاربة ونشرها مثل حجاب منيع بين الأرض والشمس.

لفترة طويلة، حكمت أنا وأبي وإخوتي لفترة طويلة على هذا الكوكب العقيم. كانت مهمتنا هي التدمير والإزعاج. أنا وإخوتي، أطلقنا العنان لنا في كل ركن من أركان هذا العالم الصغير البائس، وبدا أننا لم نسمح أبدًا بظهور الحياة على هذا الخبث الذي لا شكل له والذي نسميه الآن أرض الأحياء. كنت الأكثر قسوة وغضبًا بينهم جميعًا. وعندما كان الملك، أبي، يتعب، كان يتمدد على قمة السحاب ويستريح عليَّ ليواصل عمل التدمير العنيد. ولكن في هذه الأرض، التي كانت لا تزال جامدة، كانت روح تتحرك، روح لاهوتية قوية، روح الحياة التي أرادت أن تكون، والتي بدأت تظهر من كل جانب، وتحطم الجبال، وتملأ البحار، وتكدس الغبار.

ضاعفنا جهودنا ولم نفلح إلا في التعجيل بظهور مجموعة من الكائنات التي استعصت علينا لصغر حجمها أو قاومتنا لضعفها الشديد؛ نباتات مرنة متواضعة وأصداف طافية رقيقة أخذت مكانها على القشرة الأرضية التي لا تزال دافئة في القشرة الأرضية وفي الطمي وفي المياه وفي المخلفات على اختلاف أنواعها. وعبثاً دحرجنا الأمواج الهائجة فوق هذه المخلوقات الهائجة. كانت الحياة تولد باستمرار وتظهر في أشكال جديدة، كما لو أن عبقرية الخلق الصبورة والمبتكرة قد عزمت على تكييف أعضاء جميع الكائنات واحتياجاتها مع البيئة المعذبة التي كنا نخلقها لها.

لقد بدأنا نتعب من هذه المقاومة التي تبدو سلبية، والتي كانت غير قابلة للاختزال في الواقع. لقد كنا ندمر أجناسًا كاملة من الكائنات الحية، وبدا أن هناك أجناسًا أخرى منظمة لتعاني منا دون أن تموت. كنا منهكين من الغضب. انسحبنا إلى قمم السحب لنتشاور ونطلب من أبينا قوة جديدة.

"وبينما كان يعطينا أوامر جديدة، كانت الأرض، للحظة تحررت للحظة من غضبنا، مغطاة بنباتات لا حصر لها حيث كان عدد لا يحصى من الحيوانات المتناسقة ببراعة في أنواعها المختلفة، تبحث عن مأواها وغذائها في الغابات الهائلة أو على سفوح الجبال القوية، وكذلك في المياه النقية للبحيرات الهائلة.

- تعال، "يقول أبي، ملك العواصف، "ها هي الأرض تتزين كالعروس للزواج من الشمس. قف بينهما. ركب السحب الهائلة، وازأر، ودع أنفاسك تقلب الغابات، وتسوي الجبال بالأرض، وتطلق البحار. اذهبي ولا تعودي، ما دام هناك كائن حي، نبتة واقفة على هذه الساحة الملعونة التي تتظاهر فيها الحياة بأنها تثبت نفسها رغماً عنا. وتناثرنا كبذرة الموت على نصفي الكرة الأرضية، وانقضضت أنا، مخترقاً ستار الغيوم كالنسر، على الأراضي القديمة في الشرق الأقصى، حيث المنخفضات العميقة في الهضبة الآسيوية، التي تنحدر نحو البحر تحت سماء من نار، فتلد نباتات عملاقة وحيوانات مخيفة وسط رطوبة نشطة. كنت قد استرحت من التعب الذي عانيت منه، وشعرت بأنني قد وهبت قوة لا حدود لها، وكنت فخورًا بجلب الفوضى والموت لكل هؤلاء الضعفاء الذين بدوا وكأنهم يتحدونني. وبمسحة واحدة من جناحيّ سويت منطقة بأكملها بالأرض، وبنفس واحد قطعت غابة بأكملها، وشعرت ببهجة عمياء مسكرة في داخلي، بهجة كوني أقوى من كل قوى الطبيعة. وفجأة سرت فيَّ رائحة عطرة كأنها شذى مجهول لأعضائي، وفوجئت بهذا الإحساس الجديد فتوقفت لأستوعبها. ورأيت لأول مرة كائناً ظهر على الأرض في غيابي، كائناً طازجاً رقيقاً غير محسوس - الوردة!

"انقضضت لأسفل لأسحقها. فانطوت واستلقت على العشب وقالت لي

"أشفِقْ عليَّ، أنا في غاية الجمال والحلاوة، تنفَّسْني فتنفسني.

"تنفَّستُها، فأخمدتْ سكرةٌ مفاجئةٌ غضبي. استلقيت على العشب ونمت بجانبها.

"وعندما استيقظت كانت الوردة قد نهضت وكانت تتمايل بلطف، وقد هدأتها أنفاسي الهادئة.

قالت: "كن صديقي. لا تتركني مرة أخرى. عندما تُطوى أجنحتك الرهيبة أحبك وأجدك جميلاً. أنت بلا شك ملك الغابة. أنفاسك الناعمة أغنية لذيذة. ابق معي، أو خذني معك، أو خذني معك حتى أتمكن من إلقاء نظرة فاحصة على الشمس

والغيوم. وَضَعْتُ الْوَرْدَةَ فِي حِضْنِي وَطِرْتُ بِهَا. ولكن سرعان ما بدا لي أنها ذبلت؛ فبدا لي أنها ذبلت؛ ثم ما لبثت أن ذبلت؛ ولم تعد قادرة على مخاطبتي؛ ولكن عطرها ظل يسحرني، وخشيت أن أتلفها فحلقت برفق وداعبتها بين قمم الأشجار وتجنبت أدنى تأثير. وبهذه الطريقة شققت طريقي بحذر إلى قصر السحب الداكنة حيث كان أبي ينتظرني.

قال لي: (ماذا تريد، ولماذا تركت هذه الغابة التي ما زلت أراها على شواطئ الهند قائمة؟ ارجع فأبيدها بأسرع ما يمكن" - فأجبته وأنا أريه الوردة: "نعم" - "نعم"، فأجبته وأنا أريه الوردة: "ولكن دعني أستودعك هذا الكنز الذي أريد أن أنقذه" - "أنقذ!" فصاح وهو يضج بالغضب: "أتريد أن تنقذ شيئاً؟

وبنَفَسٍ واحد انتزع الوردة من يدي، فاختفت في الفضاء ناثرة بتلاتها الذابلة.

"ولكن الملك، غاضباً وعنيداً، أمسكني بدوري، وأضجعني وصدري على ركبتي، ومزق بعنف جناحيّ اللذين ذهب ريشهما في الفضاء لينضم إلى أوراق الوردة المتناثرة.

قال: "أيها الطفل البائس، لقد عرفت الشفقة، أنت لم تعد ابني. انزل إلى الأرض وانضم إلى روح الحياة الشريرة التي تتحداني؛ وسنرى إن كان يستطيع أن يفعل بك شيئاً الآن بعد أن أصبحت بفضلي لا شيء.

"وقذف بي إلى هاوية الفراغ، ونسيني إلى الأبد,

"تدحرجت إلى الفسحة ووجدت نفسي فانيًا بجانب الوردة، أكثر جمالًا وعبقًا من أي وقت مضى.

-ما هذا العجب؟ ظننتك قد مت وبكيت عليك. فأجابت: "نعم، مثل كل المخلوقات التي تبعث فيها روح الحياة؛ هل لديك موهبة أن تولد من جديد بعد الموت؟ انظري إلى هذه الأزرار حولي الليلة سأكون قد فقدت بريقي الليلة وسأعمل على تجديد نفسي، بينما أخواتي سيسحرنك بجمالهن ويسكبن عليك عطور يوم عيدهن. ابقي معنا ألستِ رفيقتنا وصديقتنا؟

"خَشَعْتُ مِنْ ذُلِّي حَتَّى سَقَيْتُ بِدُمُوعِي الأَرْضَ الَّتِي ... تَعَلَّقْتُ بِهَا إِلَى الأَبَدِ بِدُمُوعِي شَعَرَ رُوحُ الْحَيَاةِ بِدُمُوعِي فَتَأَثَّرَ بِهَا. فظهر لي في صورة ملاك مشع وقال لي "لقد عرفت الشفقة، لقد أشفقت على الوردة، وأنا أريد أن أشفق عليك. إن أباك قوي، ولكنني أقوى منه، لأنه قادر على التدمير وأنا قادر على الخلق.
وبينما كنت أتحدث، لمسني الكائن الرائع وأصبح جسدي كجسد طفلة جميلة ذات وجه كلون الوردة. انبثقت أجنحة الفراشات من على كتفي وبدأت أرفرف ببهجة.

قالت الجنيّة: "ابقَ مع الزهور، تحت ملجأ الغابة البارد". الآن، هذه القباب الخضراء ستخفيك وتحميك. وفي وقت لاحق، عندما أقهر غضب العناصر، ستتمكنين من التجول في الأرض، حيث سيباركك الناس ويتغنى بك الشعراء. - أما أنتِ أيتها الوردة الساحرة، أول من ينزع سلاح الغضب بالجمال، فكوني علامة المصالحة المستقبلية بين قوى الطبيعة التي هي أعداء اليوم. ستكونين أيضاً معلمة الأجناس المستقبلية، لأن هذه الأجناس المتحضرة ستريد كل شيء لخدمة احتياجاتها. قد تبدو أثمن مواهبي الثمينة، النعمة والوداعة والجمال، أقل قيمة بالنسبة لهم من الثروة والقوة.
علِّميهم أيتها الوردة اللطيفة أن أعظم قوة وأكثرها شرعية هي تلك التي تسحر وتصلح. أعطيك هنا لقبًا لن تجرؤ القرون القادمة على سلبه منك. أعلنك ملكة الزهور، إن الممالك التي أؤسسها هي ممالك إلهية ليس لها إلا وسيلة واحدة للعمل، هي السحر.
"ومنذ ذلك اليوم وأنا أعيش في سلام مع السماء، معتزة بالإنسان والحيوان والنبات؛ إن أصلي الحر الإلهي يمنحني حرية الاختيار في العيش حيثما شئت، ولكني أكثر من أن أكون صديقة الأرض وخادمة الحياة التي تساهم فيها أنفاسي

النافعة أن أترك هذه الأرض الحبيبة التي يحملني إليها حبي الأول والأبدي. نعم، يا أعزائي الصغار، أنا حبيب الوردة المخلص، وبالتالي أنا أخوكم وصديقكم.

-في هذه الحالة، صاحت كل الورود الصغيرة على وردة الورد: (أعطونا الكرة ودعونا نبتهج ونفرح وننشد مدائح الملكة، وردة الشرق ذات المائة ورقة.

ولوح الزفير بجناحيه الجميلين ودارت فوق رأسي رقصة مسعورة مصحوبة بحفيف الأغصان وخشخشة الأوراق كأنها الطنبور والصنوج: ومزقت بعض الحمقاوات الصغيرات أثوابهن الكروية ونثرن بتلاتها في شعري، ولكنهن لم يكترثن بذلك بل رقصن وهن يغنين:

-عاش الوردُ الجميلُ الذي غلبتْ عذوبتُه ... ابنَ العواصفِ عاش الزفيرُ الطيبُ الذي ظلَّ صديقَ الزهورِ

عندما أخبرت معلمي بما سمعت، قال لي إنني مريض وأحتاج إلى مطهر. لكن جدتي أنقذتني بقولها له

- أشفق عليك إن كنتَ لم تسمع ما يقوله الورد. أما بالنسبة لي، فأنا أشتاق إلى الوقت الذي سمعت فيه. إنها إحدى كليات الطفولة. حذار من الخلط بين الكليات والأمراض!

.33.

حكاية البيض [100]

مارسال شووب 1867ـ 1905

كان يا ما كان في قديم الزمان ملك صغير صالح (لا تبحثوا أكثر من ذلك – فقد ضاع النوع) ترك شعبه يعيش كما يحلو له: كان يعتقد أنها طريقة جيدة لإسعادهم. وكان هو نفسه يعيش على طريقته الخاصة، تقياً متديناً متبجحاً، لا يستمع إلى وزرائه، إذ لم يكن له وزراء، ولا يعقد مجلسه إلا مع طباخه، وهو رجل ذو فضل عظيم، ومع ساحر عجوز كان يسحب أوراقه ليشغله. كان يأكل قليلاً، ولكن بشكل جيد، وكان رعيته يفعلون نفس الشيء، ولا شيء يعكر صفاءهم، وكان كل واحد منهم حرًا في أن يقطع قمحه، أو أن يتركه ينضج، أو أن يحتفظ بالحبوب للبذر التالي.

لقد كان بحق ملكاً فيلسوفاً، مارس الفلسفة دون أن يعرفها؛ ومما يدل بوضوح على أنه كان حكيماً دون أن يتعلم الحكمة تلك الحالة العجيبة التي ظن فيها أنه سيخسر نفسه وشعبه معه لأنه حاول أن يرشد نفسه إلى أقوال سديدة. ففي إحدى السنوات، في أواخر الصوم الكبير، استدعى هذا الملك الصالح خادمه الذي كان اسمه فريبسولسيتوس أو ما يشبهه ليستشيره في أمر خطير.

كان السؤال عما سيأكله جلالته في عيد الفصح.

---

[100] Marcel Schwob (1867-1905), contesdumonde.com

-فقال وزير داخلية الملك: "يا مولاي، لا يمكنك أن تفعل غير أكل البيض.

كانت بطون أساقفة ذلك الزمان أفضل من أساقفة اليوم، حتى أن الصوم الكبير كان صارماً جداً في جميع أبرشيات المملكة. فكان الملك الصالح لا يكاد يأكل شيئاً سوى البيض لمدة أربعين يوماً. فعبس وقال: "أفضل شيئًا آخر".
- ولكن يا مولاي"، قال الطباخ الذي كان يحمل شهادة البكالوريوس في الأدب، "البيض طعام إلهي. هل تدرك أن بيضة واحدة تحتوي على مادة العمر كله؟ حتى أن اللاتين كانوا يعتقدون أنها خلاصة العالم. لم يعودوا إلى الطوفان – لكنهم تحدثوا عن إرجاع الأشياء إلى البيضة على أنها بيضة. وقال الإغريق إن الكون ولد من بيضة وضعها الليل الأسود الجناحين؛ وخرجت مينرفا بكامل سلاحها من جمجمة المشتري، كدجاجة تنقر قشرة بيضة كانت متقدمة جداً. ولطالما تساءلت مراراً عما إذا لم تكن أرضنا مجرد بيضة كبيرة، قشرتها التي نسكنها نحن؛ وتأملوا كيف تتلاءم هذه النظرية مع معطيات العلم الحديث: فصفار هذه البيضة العملاقة لن يكون سوى النار المركزية، حياة الكرة الأرضية.
- قال الملك: "أنا لا أهتم بالعلم الحديث"، قال الملك: "ولكني أود أن أنوع في وجباتي – قال الوزير فريبسولسيتوس: "يا مولاي، لا شيء أسهل من ذلك. يجب عليك أن تأكل البيض في عيد الفصح: إنها طريقة ترمز إلى قيامة ربنا. – ولكننا نعرف كيف نذهب الحبة. هل تريدونه مسلوقاً، أو مخفوقاً، في سلطة، في عجة الروم، مع الكمأة، مع القشور، مع الأعشاب، مع أطراف الهليون، مع الفاصوليا الخضراء، مع المربى، في القشرة، مطهياً، مسلوقاً، مسلوقاً ناعماً، مخفوقاً، في الثلج، في الصلصة البيضاء، مقلياً، في المايونيز، مرقوقاً، محشواً؟ هل ترغب في بيض الدجاج أو البط أو الدراج أو الأورتولان أو دجاج غينيا أو الديك الرومي أو بيض السلاحف؟ هل ترغب في بيض السمك أو الكافيار بالزيت أو بالخل؟ هل ستطلب بيض النعام (إنها وجبة السلطان) أو بيض الصخور (إنها

وليمة لعباقرة ألف ليلة وليلة)، أو مجرد بيض صغير جيد مقلي في مقلاة؛ أو في كعكة ذات قشرة ذهبية، مفرومة فرماً ناعماً بالبقدونس والبصل الأخضر؛ أو مربوطاً بالسبانخ النضرة؟ هل تفضل أن تشم رائحته نيئاً دافئاً جداً؟ - أو هل تتفضلين بتذوق طعم جديد من تركيبي الخاص، حيث طعم البيض لذيذ جداً بحيث لا تستطيعين التفريق بين البيض والبيض، - إنه رقيق جداً، أثيري جداً، - دانتيل حقيقي... – لا شيء، لا شيء، يقول الملك. يبدو لي أنك أخبرتني، إن لم أكن مخطئاً، بأربعين طريقة لإعداد البيض. ولكني أعرفها، يا عزيزي فريبسولسيتوس – لقد جعلتني أتذوقها طوال فترة الصوم الكبير. ابحث لي عن شيء آخر.

كان الوزير يائساً، وقد رأى أن الأمور الداخلية تسير على غير ما يرام، فضرب جبينه بحثاً عن فكرة – ولكنه لم يصل إلى شيء.

فأرسل الملك المتجهم في طلب ساحره. وكان اسم هذا العالم نيبولونيست، إن لم تخني ذاكرتي؛ ولكن الاسم لا يفيد في شيء. لقد كان تلميذًا لمجوس الفرس؛ وكان قد هضم كل تعاليم زرادشت وشاكياموني، وعاد إلى مهد الديانات كلها، وتشرب الأخلاق السامية للرياضيين. ولكن كل ما كان يفعله عادةً للملك هو سحب أوراقه.

- قال نيبولونيست: (يا مولاي) قال الملك: (لا يجب أن تهيئ بيضك بأي طريقة من الطرق التي قيلت لك، ولكن يمكنك أن تحضنه – فأجاب الملك: (والله يا مولاي!) قال نيبولونيست: (هذه فكرة جيدة: على الأقل لن آكله) قال الملك نيبولونيست: (أيها الملك العظيم، اسمح لي أن أروي لك اعتذاراً. – فأجاب الملك: (إني أحب القصص، ولكني أحبها واضحة. إذا كنت لا أفهم، بما أنك ساحر، فيمكنك أن تشرح لي. لذا ابدأ.

- كان لملك من ملوك نيبول، معروف باسم نيبولونيست، ثلاث بنات. الأولى كانت جميلة كالملاك، والثانية بارعة كالشيطان؛ أما الثالثة فكانت تمتلك حكمة

حقيقية. وذات يوم، في طريقهن إلى السوق لشراء الكاشميرات، تركن الطريق الرئيسي وسلكن طريقًا فرعيًا عبر حقول الأرز التي تصطف على ضفاف النهر.
"كانت الشمس تمر بشكل غير مباشر بين آذان الذرة المائلة والبعوض يرقص دائرة بين أشعتها. وفي أماكن أخرى كانت الأعشاب الطويلة المتشابكة تشكل بساتين يطفو فيها ظل لذيذ. لم تستطع الأميرات الثلاث مقاومة متعة التعشيش في إحداها؛ فتعانقن وتجاذبن أطراف الحديث لبعض الوقت وضحكن، وأخيراً غلب النوم ثلاثتهن بعد أن أضناهن الحر. وبما أنهن كن من ذوات الدم الملكي، فقد حرصت التماسيح التي كانت تغطس في الماء البارد، تحت السيوف الملوّحة من آذان الذرة المبللة في النهر، على عدم إزعاجهن. كانت تأتي فقط لتنظر إليهما من وقت لآخر وتضع خطومها البنية القرنية إلى الأمام لتراقبهما وهما نائمان. وفجأة غطسوا مرة أخرى تحت الماء الأزرق مع طرطشة عالية، مما أيقظ الشقيقات الثلاث ببداية.
"ثم رأوا أمامهم امرأة عجوزاً صغيرة السن، ذابلة ومتجعدة ومكسورة، كانت تهرول متكئة على عكاز. كانت تحمل سلة مغطاة بقماش أبيض. – قالت بصوت مرتعش: "أيتها الأميرات"، "لقد جئت لأعطيكن هدية. هاك ثلاث بيضات متشابهات كلهن متشابهات؛ كل واحدة منهن تحتوي على السعادة التي ادخرت لكما في حياتكما، وكل واحدة منهن تحتوي على كمية متساوية؛ والأمر الصعب هو أن تخرجاها من هناك".
»بينما كانت تقول هذه الكلمات، كشفت عن سلتها، وانحنت الأميرات الثلاث ليروا ثلاث بيضات كبيرة بيضاء ناصعة البياض تستقر على سرير من القش المعطر. عندما نظرن إلى أعلى، كانت المرأة العجوز قد اختفت.
»لم يتفاجأن كثيراً، لأن الهند أرض التعاويذ. فأخذت كل واحدة منهما بيضتها وعادت إلى القصر تحملها بحذر في الجزء المرتفع من حجابها وهي تفكر فيما ستفعله بها.

"فذهبت الأولى مباشرة إلى المطبخ حيث أخذت قدراً من الفضة. فقالت لنفسها: "لا أستطيع أن أفعل شيئاً أفضل من أكل بيضتي. يجب أن يكون ممتازاً". فأعدته وفقًا لوصفة هندية وتذوقته في أعماق شقتها. لقد كانت لحظة رائعة؛ لم يسبق لها أن تذوقت شيئاً بهذه اللذة الإلهية؛ ولم تنسَ ذلك أبداً.
"أخذت الثانية دبوساً ذهبياً طويلاً من شعرها وثقبت ثقبين صغيرين في طرفي البيضة. ثم نفخت فيها نفخاً جيداً حتى أفرغتها وعلقتها على حبل من الحرير. وأشرقت الشمس من خلال الصدفة الشفافة فجعلتها تتلألأ بألوانها السبعة؛ وكانت تتلألأ وتتلألأ باستمرار؛ وفي كل ثانية يتغير لونها ويصبح أمام أعيننا منظر جديد. تاهت الأميرة في هذا التأمل ووجدت فيه متعة عميقة.
»لكن الثالثة تذكرت أن لديها دجاجة دراج كانت تحضن للتو. فذهبت إلى الحظيرة ودسّت بيضتها برفق بين البيوض الأخرى، وعندما انقضى العدد المطلوب من الأيام، خرج طائر غير عادي، له هدهد عملاق وأجنحة ملونة وذيل منقط ببقع متلألئة. وسرعان ما وضعت بيضاً مشابهاً للبيض الذي ولدت منه. وهكذا ضاعفت الأميرة الحكيمة ملذاتها، لأنها عرفت كيف تنتظر.

"لم تكن العجوز تكذب أيضًا. وقعت أكبر الأخوات الثلاث في حب أمير وسيم وتزوجته. وسرعان ما مات، لكنها كانت راضية لأنها وجدت لحظة من السعادة في هذه الحياة.
»كانت الابنة الصغرى تسعى وراء ملذاتها في الفنون الجميلة وأعمال الفكر. فنظمت القصائد ونحتت التماثيل؛ وهكذا كانت سعادتها أمامها باستمرار، واستطاعت أن تستمتع بها حتى يوم وفاتها.
»كانت الصغرى قديسةً ضحَّت بكل ملهيات هذه الحياة من أجل مباهج الفردوس. لم تحقق شيئًا من آمالها في هذا العالم الزائل لكي تدعها تزدهر في الوجود المستقبلي الذي هو، كما تعلم، أبدي.«

وبذلك، صمت نيبولونيست. فكر الملك لفترة طويلة. ثم أشرق وجهه وهتف بفرح: - هذا أمر رائع، ولكن الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أنني أصبت في المرة الأولى. هذا يعني أن بيضي يجب أن يفقس.

وانحنى الساحر العظيم لحكمة الملك، وصفق جميع رجال البلاط الملكي. وأثنت الصحف على دهاء جلالته الذي كشف بذلك عن مغزى الاعتذار العميق.

وكانت النتيجة أن الملك الطيب لم يشأ أن يكون السعيد الوحيد. فاعتزل نفسه لمدة ثلاث ساعات، وأوضح أول مرسوم في عهده. كان ممنوعًا من الآن فصاعدًا أكل البيض في أي مكان في المملكة. سيتم تحضينها. وسيضمن حتمًا سعادة رعاياه بهذه الطريقة. وستُفرض عقوبات صارمة في حالة مخالفة القانون.

وكان أول عيب في النظام الجديد أن الملك، المشغول كعادته بشؤون المملكة، قد غفل عن نفسه ونسي أن يأمر بغدائه في أحد الفصح. وقد ندم على ذلك كثيرًا في ذلك اليوم.

ثم كان هناك السياسيون الذين علقوا على المرسوم. وكان الاعتذار النيبولوني قد انتشر في الصحف، ورأوا في قانون الأمير أسطورة عبقرية تأمر الناس أن يعيشوا كالنوبيين. وهكذا وجد الملك المسكين نفسه قد أسس دين الدولة دون أن يدري. أدى هذا إلى مشاحنات كبيرة في المملكة. ففضّل كثير من الرجال أن يجدوا سعادتهم في هذا العالم على أن يجدوها في العالم الآخر؛ فشنوا حربًا على أولئك الذين أرادوا أن يفقسوا بيضهم. وسالت الدماء في البلاد، ومزق الملك الصالح شعره.

.34.

اسطورة توران[101]

ألفونس دوداي 1840ـ 1897

كان كاهن رعية شيميلليه في طريقه لإحضار الرب الصالح إلى رجل مريض.
لقد كان من المثير للشفقة حقاً التفكير في أن شخصاً ما يمكن أن يموت في مثل هذا اليوم الصيفي الجميل، في منتصف صلاة التبشير الملائكي، لحظة الحياة والنور.
وكان من المثير للشفقة أيضاً التفكير في أن هذا الكاهن المسكين قد اضطر إلى الانطلاق مباشرة من المائدة، في الوقت الذي كان يذهب فيه عادة - وهو يحمل الكتاب المقدس في يده - ليأخذ قيلولة تحت عريشة العنب الصغيرة، في راحة باردة في حديقة جميلة مليئة بالخوخ الناضج والأزهار المقدسة.
كان كاهن رعية شيميلليه في طريقه لإحضار الرب الصالح إلى رجل مريض.
لقد كان من المثير للشفقة حقاً التفكير في أن شخصاً ما يمكن أن يموت في مثل هذا اليوم الصيفي الجميل، في منتصف صلاة التبشير الملائكي، لحظة الحياة والنور.

[101] Alphonse Daudet (1840-1897), contesdumonde.com

من وقت لآخر، كان الفلاحون يمرون في الطريق ويتوقفون قليلاً لإفساح الطريق أمام الكاهن الطيب، مع تلك الحيلة الخاصة بفلاحي تورين؛ العين الذكية والتحية المحترمة، تلك النظرة التي تبدو وكأنها سخرية من الإيماءة.

كان كاهن الرعية يحيي كل واحد منهم نيابة عن الرب الطيب، بأدب جم، ولكن دون أن يعرف حقًا ما الذي كان يفعله، ولكنه بلا شك بدأ يشعر بالنعاس.

كان الطقس دافئاً، والطريق أبيض. وفي أسفل سفح التل، خلف أشجار الحور، بدت جداول نهر اللوار الصغيرة مثل قشور فضية مبهرة. كل هذا الضوء، وأزيز النحل وهو يركل غبار الأزهار على الطريق، وأغنية طائر الطائر في الكروم، وأغنية حيوان صغير جشع وشبعان، كل هذا جعل الكاهن الذي كان قد أصيب بالدوار من جراء غداء جيد من النبيذ الأبيض والدرليت، يشعر بالنعاس.

وبينما كان يجتاز فيلاندري، حيث الصخرة تصبح أعلى والواد أضيق، أيقظ كاهن رعية شيميلليه من سباته صوت سائق عربة قادم نحوه بعربة قش كبيرة تتمايل بشدة مع كل دورة للعجلة.

كانت اللحظة حرجة. حتى لو عانقنا الصخرة بأكبر قدر ممكن، لم يكن هناك متسع لشخصين في الطريق...

العودة إلى الطريق الرئيسي؟ لم يستطع الكاهن أن يفعل ذلك، بعد أن سلك هذا الطريق ليسير بسرعة أكبر، وبعد أن علم أن مريضه قد وصل إلى نهاية الطريق. هذا ما حاول أن يشرحه لسائق العربة، لكن الأخرق لم يكن لديه أي شيء من ذلك. قال دون أن ينزع غليونه: (أنا آسف لذلك يا مسيو لو كيور) ثم قال دون أن ينزع غليونه: (إن اليوم حار جداً ولا يمكنني أن أرجع إلى أزاي. هنيئاً لك، لأنك سترحل بهدوء على حمارك...

-ولكن، أيها البائس، ألم تر ما لدي هنا؟ أنا من فيلاندري"، فسخر سائق العربة... "إله شيميلليه الطيب ليس من شأني... ضيا! هوى!" واندفع الوثني بعربته

ليجعلها تتقدم إلى الأمام، مخاطراً بإرسال الحمار وكل ما عليه يتدحرج على سفح التل إلى المرعى.
كان كاهن رعيتنا صبورًا فقط.
-هكذا هو الأمر. حسناً، انتظر!
وقفز من على دابته، ثم قفز من على دابته، ووضع بعناية (بون ديو دي شيميلليه) على جانب الطريق، على كتلة من الزعتر البري، بين المكنسة الذهبية والليكنس الأبيض، قماش مذبح حقيقي، مليء بالزهور والعطر، لن تجد مثله حتى في كاتدرائية سان مارتان في تور.
ثم ركع الرجل المقدس على ركبتيه وصلى هذه الصلاة القصيرة: "يا إله شيميلليه، أنت ترى ما يحدث لي وأن هذا الفاجر سيجبرني على أن أضعه في مكانه الصحيح. لا أحتاج في ذلك إلى أحد، لأن معصمي قوي جداً وأنا في الجانب الأيمن... فاجلس هناك وشاهد معركتنا ولا تكن مع أو ضد. سيتم تسوية قضيته قريبًا. وما إن انتهى من صلاته حتى نهض واقفاً وبدأ يشمّر عن ساعديه كاشفاً عن يديه، يديه الكهنوتيتين الجميلتين اللتين صقلتهما البركة، وهما معصمان خبازتان صلبتان كعقدة الرماد...
كسرت الضربة الأولى غليون الخباز بين أسنانه. وبالضربة الثانية وجد نفسه ملقى في قاع الحفرة خجلاً مطموراً على الأرض بلا حراك. ثم أرجع الكاهن العربة إلى الوراء، وأوقفها بحذر على طول الجسر، ورأس الحصان في ظل شجرة توت، وانطلق في هرولة بطيئة نحو مريضه الذي وجده جالساً في ستائره الهندية وقد تعافى من الحمى بأعجوبة وفتح زجاجة فوفري قديمة لينعش نفسه. وأترك لكم أن تتساءلوا عما إذا كان كاهن الرعية قد ساعده في عمليته.
ومنذ ذلك الوقت، أصبح إله "بون ديو دي شيميلليه" شائعًا جدًا في تورين وهو الذي كان التورانجيون يستحضرونه في جميع نزاعاتهم: "بون ديو دي شيميلليه، لا تكونوا مع ولا ضد...". إنه إله المعارك الحقيقي، إله شيمييه، الذي لا يحابي

أحدًا ولا يحابي أحدًا ويترك كل واحد ينتصر حسب قوته وحقه. لذلك عندما يأتي فجر اليوم - وأنتم تعرفون يا أصدقائي ما أعنيه - لن يكون إلى ساباوث العجوز، صديق أوغستا وويليام المتعطش للدماء، ذلك الساباوث الذي نتوجه إليه بالقداس الذي يعزف على أنغام الموسيقى، كلا، لن يكون إليه يجب أن نتوجه بصلواتنا، بل إلى إله شيميلليه الصالح، وإليكم ما سنقوله له

الصلاة

يا إله شيميلليه، الفرنسيون يصلون إليك أنت تعلم ما فعله هؤلاء القوم هناك بنا ... والآن حان وقت الانتقام ... لننتقم، لا نحتاج إليك ولا إلى غيرك، هذه المرة لدينا مدافع جيدة وأزرار على كل ما لدينا من قذائف، والقانون إلى جانبنا. لذا اجلسوا وشاهدوا معركتنا ولا تكونوا مع أو ضدها. لن يمر وقت طويل قبل أن يتم التعامل مع هؤلاء المتسولين.

فلتكن كذلك

.35.

العبارة [102]

ألفونس دوداي 1840ـ 1897

كانت العبّارة قبل الحرب جسراً معلقاً جميلاً، ورصيفين من الحجر الأبيض المرتفع، وحبالاً من القار تدور في آفاق نهر السين بذلك المظهر الهوائي الذي يجعل المناطيد والسفن في غاية الجمال. وتحت القوسين الكبيرين في الوسط، كانت السلسلة تمر مرتين في اليوم في دوامات من الدخان، دون أن تحتاج حتى إلى خفض أنابيبها؛ وعلى الجانبين كانت تحتمي به المضارب وسلالم الغسالات وقوارب الصيد الصغيرة المثبتة في مكانها بحلقات .

وكانت هناك جادة من أشجار الحور الممتدة بين المروج كستارة خضراء عظيمة تهزها برودة الماء تؤدي إلى الجسر. كان ساحراً. هذا العام، تغير كل شيء. أشجار الحور التي لا تزال قائمة تؤدي إلى الفراغ. لم يعد هناك جسر. انهار الرصيفان، وتناثرت الحجارة التي كانت متبقية في كل مكان. أما الرصيفان تبدو دار الرسوم البيضاء التي دمرت نصفها الهزة وكأنها خراب جديد أو متراس أو هدم جديد. الحبال والأسلاك مبللة بشكل محزن، وسطح الجسر المترهل في الرمال يبدو كحطام عظيم في وسط الماء، تعلوه راية حمراء لتحذير رجال المراكب، وكل الحشائش المقطوعة والألواح الخشبية العفنة التي يحملها نهر السين تتوقف هناك في سد مليء بالدوامات والدوامات.

---

102 Alphonse Daudet, contes du lundi.

هناك تمزق في المشهد، شيء مفتوح تفوح منه رائحة الكارثة. ولجعل الأفق أكثر كآبةً، أصبح الطريق المؤدي إلى الجسر أخف وزناً. كل تلك أشجار الحور الجميلة والكثيفة التي تلتهمها اليرقات حتى التاج - وللأشجار غزواتها أيضًا - تنشر أغصانها الخالية من البراعم، وقد ضعفت وتمزقت؛ وفي الجادة الكبيرة، التي لا فائدة منها ومهجورة، تطير الفراشات البيضاء الكبيرة بكثافة...

وأثناء انتظار إعادة بناء الجسر، تم إنشاء عبّارة في مكان قريب، وهي إحدى تلك العبارات الضخمة التي تحمل السيارات المحملة بالكامل، وخيول المحراث بمحاريثها والأبقار بعيونها المدورة. مشهد وحركة الماء .

الدواب والعربات في الوسط؛ وعلى الجانبين، الركاب والمزارعون والأطفال الذاهبون إلى المدرسة في القرية، والباريسيون في عطلة. كانت الأشرعة والأشرطة تطفو على ظهر الخيول. بدت وكأنها طوافة غارقة. تتحرك العبارة ببطء إلى الأمام. يبدو نهر السين، الذي طال عبوره، أوسع بكثير مما كان عليه، وخلف أنقاض الجسر المنهار، بين هاتين الضفتين اللتين تكادان تكونان غريبتين عن بعضهما البعض، يتسع الأفق بنوع من الجدية الحزينة.

في ذلك الصباح، وصلت في وقت مبكر جدًا لعبور المياه. لم يكن هناك أحد على الشاطئ بعد. كان منزل العبّارة الصغير، وهو عبارة عن عربة قديمة عالقة في الرمال الرطبة، مغلقًا يقطر ضبابًا، وفي الداخل، كان بإمكاننا سماع سعال الأطفال .

"أوجين ! - هناك ، هناك!" قالها البحار الذي جاء متثاقلاً. إنه بحار وسيم، لا يزال شاباً في مقتبل العمر، ولكنه خدم كجندي مدفعية في الحرب الأخيرة، وعاد مصاباً بـ 151 روماتيزم وشظية في ساقه وندبة في وجهه. ابتسم الرجل الطيب عندما رآني وقال لي: "لن يزعجنا هذا الصباح يا سيدي.

وبالفعل، كنت وحدي على متن العبّارة؛ ولكن قبل أن تفك رباطها وصل الناس. في البداية كانت هناك فتاة زراعية سمينة مشرقة العينين، في طريقها إلى السوق في كوربيل، تحمل سلتين كبيرتين تحت ذراعيها، مما جعل قامتها الريفية تبرز

قوامها الريفي وتجعل مشيتها ثابتة ومستقيمة؛ ثم خلفها، في الطريق الغائر، مسافرون آخرون يمكن رؤيتهم بشكل غامض من خلال الضباب، ويمكننا سماع أصواتهم. كان صوت امرأة، ناعم ومليء بالدموع:" أوه، سيد شاشينيو، أرجوك لا تعطينا أي حزن... يمكنك أن ترى أنه يعمل الآن... ...امنحه الوقت ليدفع هذا كل ما يطلبه

- لقد أعطيتُ ما يكفي من الوقت... لن أعطي المزيد"، أجابني صوت فلاح عجوز، بلا أسنان وقاسي. سيفعل ما يحلو له... !مرحباً أوجين!

-إنه ذلك الشحاذ شاشينيو"، قالها السمسار بصوت منخفض... !ها هو ها هو ذا "!

في تلك اللحظة، رأيت رجلاً عجوزاً طويل القامة يصل إلى الشاطئ، مرتدياً معطفاً قماشياً ثقيلاً وقبعة حريرية جديدة. وبدا هذا الفلاح المتشقق الذي شوهت يداه المشقوقتان بفعل المعول أكثر سواداً واحتراقاً في ملابسه الرجولية. وكانت جبهته العنيدة، وأنفه الهندي الأباتشي الكبير المعقوف، وفمه المقروص، وتجاعيد وجهه المليئة بالحقد، قد أعطته فراسة شرسة تتناسب مع اسم شاشينوت.

قال وهو يقفز في المعدية وصوته يرتجف من الغضب: "هيا يا أوجين، انزل من هنا ."

اقترب منه المزارع عندما انطلق سائق العبّارة: "لمن هذه العبّارة يا أبت شاشينو؟

- هل هذا أنت، لا بلانش؟ أخبرني عن ذلك... أنا غاضب... إنهم أولئك الأوغاد من مازيلييه! وأشار بقبضة يده إلى ظل صغير ضئيل كان قادماً من الطريق الغارق وهو ينتحب.

"ماذا فعل هؤلاء الناس بك؟

-لقد فعلوا بي أنهم مدينون لي بأربعة شروط وبكل ما أملك من نبيذ، وأنني لا أستطيع الحصول على فلس واحد منها! لذلك أنا ذاهب إلى الحاجب الآن لأطرد كل هؤلاء المتسولين إلى الشارع .

-مازيلير رجل طيب، على الرغم من ذلك .
قد لا يكون خطأه إذا لم يدفع لك... لقد خسر الكثير من الناس في هذه الحرب .
شهق الفلاح العجوز "إنه وحش كان بإمكانه أن يجني ثروته مع البروسيين. ...هو الذي لم يرغب في ذلك
...بمجرد وصولهم أغلق ملاهيه وأزال لافتته أصحاب المقاهي الأخرى جنى ثروة طائلة خلال الحرب ...أما هو فلم يبعه مقابل فلس واحد بل الأسوأ من ذلك لقد وضع في السجن بسبب وقاحته... ...إنه أحمق، أقول لكم هل كان له علاقة بكل هذه الأشياء؟
هل كان جندياً؟ كل ما كان عليه فعله هو إمداد الممارسة بالنبيذ والبراندي، والآن يمكنه أن يدفع لي... !أيها الوغد سأعلمك أن تكون وطنياً !
واحمرّ وجهه من السخط، وراح يصارع وهو يرتدي معطفه الكبير الذي يرتديه، بحركات خرقاء من حركات الريفيين المعتادين على البورجيرون. وبينما كان يتكلم، كانت عينا الفلاح الشاحبتان اللتان كانتا مليئتين بالشفقة على آل مازيلييه قد أصبحتا جافتين وتكادان تكونان محتقرتين. لقد كانت هي أيضاً فلاحة، وأمثالها من الفلاحين لا يفكرون كثيراً فيمن يرفضون كسب المال. في البداية كانت تقول: "إنه لأمر مؤسف حقًا بالنسبة للمرأة"، ثم بعد لحظة: "هذا صحيح... لا يجب أن تدير ظهرك للحظ...". كان استنتاجها هو "أنت على حق، أيها الأب العجوز، عندما تكون مدينًا، عليك أن تدفع. أما بالنسبة لشاشينيو، فقد ظل يردد من خلال أسنانه المصرة: "إنه هراء! إنه هراء ."..."!
أما رجل العبّارة، الذي كان يستمع إليهما بينما كان يناور بعصاه على جانب العبّارة، فقد رأى أن عليه أن يتدخل: "لا تكن وغدًا يا أبت شاشينيو... ما الفائدة من ذهابك إلى الحاجب؟ ستكون متقدماً جداً عندما تبيع هؤلاء المساكين
انتظر قليلاً، بما أنك تملك الوسائل للقيام بذلك .

التفت الرجل العجوز كما لو كان قد تعرض للعض: "أنصحك أن تتكلم أيها العجوز الذي لا خير فيه !

أنت واحد آخر من أولئك الوطنيين... إن لم يجعلك هذا تشعر بالأسف على نفسك! خمسة أطفال، لا يملكون قرشاً واحداً، وهم يطلقون المدافع دون أن يجبروا على ذلك... ودعني أسألك يا سيدي (وأظنه كان يخاطبني أنا، أيها البائس!) ماذا أفادنا كل ذلك؟ لقد استفاد هو مثلاً من تحطيم وجهه، وفقدانه مركزاً جيداً كان يتمتع به ... والآن ها هو ذا يعيش كالغجري في كوخ مكشوف للريح، وأطفاله يعانون من صعوبة في الاغتسال وزوجته تعاني من صعوبة في الاغتسال؟ أليس وحشًا أيضًا؟ ."

انتابت المراكبي ومضة من الغضب، ورأيت في وسط وجهه الشاحب غصةً عميقةً وابيضّ لونه؛ ولكنه كان يملك من القوة ما يكبح به نفسه ويصبّ جام غضبه على العمود الذي دفعه في الرمال حتى التوى. كلمة واحدة يمكن أن يجعله يفقد هذا المنصب مرة أخرى، لأن السيد شاشينيو له سلطة في البلاد

إنه عضو في مجلس المدينة.

.36.

بثلاثمائة ألف فرنك التي وعدني بها جيراردان! [103]

ألفونس دوداي 1840ـ 1897

ألم يحدث لك من قبل أن تغادر بيتك وأنت خفيف الحركة، خفيف الحركة، سعيد النفس، وبعد ساعتين من الركض في باريس، تعود وقد أصابك حزن لا سبب له، وضيق لا يمكن فهمه؟ تقول لنفسك

"ما خطبي؟ لكنك مهما بحثت كثيرًا، لا يمكنك العثور على أي شيء. كل ما تتسوقه كان جيدًا، والرصيف جاف، والشمس دافئة؛ ومع ذلك تشعر بحسرة مؤلمة في قلبك، مثل انطباع حزن محسوس. في هذه باريس العظيمة، حيث تشعر بأن الحشود غير مرصودة وحرة لا يمكنك أن تخطو خطوة دون أن تصادف بعض المصائب التي تتناثر عليك وتترك بصماتها عليك أثناء مرورك. أنا لا أتحدث عن المصائب فقط إنني أتحدث عن أحزان الأصدقاء التي تشبه أحزاننا قليلاً، والتي يستولي لقاؤها المفاجئ على قلبك كالندم؛ أو حتى أحزان غير المبالين التي لا تصغي إليها إلا بأذن واحدة وتؤلمك دون أن تشك في ذلك. أنا أتحدث عن تلك الأحزان الغريبة تمامًا التي لا تلمحها إلا بشكل عابر، في دقيقة واحدة، في نشاط الركض وارتباك الشارع.

إنها شذرات من حوار متشنج في قطار السيارات، وانشغالات صماء عمياء تتكلم وحدها وبصوت عال جداً، وأكتاف مرهقة، وإيماءات مجنونة، وعيون محمومة، ووجوه شاحبة متورمة بالدموع، وحداد حديث يمسح بضعف عن حجاب أسود.

[103] Alphonse Daudet, contes du lundi.

ثم تفاصيل ماكرة، وخفيفة جداً! ياقةُ حُلَّةٍ، مصقولةٌ مهترئةٌ مهترئةٌ، تبحث عن الظل, سيرينيت لا صوت لها تدور بلا حراك على الشرفة، وشريط مخملي حول عنق حدباء مربوطة بقسوة بين كتفيها المزيفة... كل هذه الرؤى من المصائب المجهولة تمر سريعاً، وتنساها وأنت تمشي، ولكنك قد أحسست بريق حزنها، وتشربت ثيابك من في نهاية المطاف، تشعر في نهاية المطاف بكل ما يجيش في نفسك من مشاعر وألم، لأنك دون أن تدرك ذلك علقت على ناصية شارع أو عتبة باب الخيط الخفي الذي يربط كل المصائب ببعضها البعض ويهزها هزة واحدة.
كنت أفكر في هذا الأمر في صباح ذلك اليوم - لأن باريس تظهر مآسيها في الصباح خاصة - عندما رأيت شيطاناً مسكيناً يسير أمامي، وقد غطاه معطف رقيق جداً جعل خطواته تبدو أطول من اللازم، وبالغ في كل إيماءاته بشراسة. كان هذا الرجل منحنياً إلى نصفين وملتوياً كشجرة في مهب الريح، وكان يسير بسرعة كبيرة. من وقت لآخر، كانت يده تغمس في أحد جيوبه الخلفية وتكسر لفة خبز يلتهمها في خفية، وكأنه يخجل من الأكل في الشارع.
يفتح البناؤون شهيتي عندما أراهم جالسين على الأرصفة يقضمون أرغفتهم الطازجة. ويثير حسدي أيضاً الكتبة الصغار عندما يعودون راكضين من المخبز إلى المكتب، والريشة في آذانهم وأفواههم ممتلئة وهم فرحون بهذه الوجبة في الهواء الطلق. ولكنك هنا كنت تشعر بخجل الجوع الحقيقي، وكان من المثير للشفقة أن ترى هذا الرجل التعيس لا يجرؤ على تناول فتات الخبز الذي كان يطحنه في جيبه. كنت أتبعه منذ برهة من الزمن، عندما قام فجأة، كما يحدث كثيراً في هذه الوجود الحائر، بتغيير اتجاهه وفكرته فجأة، والتفت فوجد نفسه وجهاً لوجه معي .
"ها أنت ذا! بالصدفة، كنت أعرفه قليلاً. لقد كان من رجال الأعمال الذين نشأوا على أرصفة باريس، وكان من رجال الأعمال الذين نشأوا على أرصفة باريس، رجل مخترع، مؤسس جرائد مستحيلة، وقد كثر حوله منذ مدة ضجيج الدعاية

والضجيج المطبوع، وقد اختفى منذ ثلاثة أشهر في سقطة هائلة. بعد بضعة أيام في في المكان الذي سقط فيه، كان الفيضان قد هدأ ولم يعد هناك حديث عنه. وعندما رآني ارتبك، ولكي يقطع أي سؤال، ولا شك أيضاً لكي يصرف نظري عن ملابسه الدنيئة وفلس خبزه الدنيء، بدأ يتحدث إليّ بسرعة كبيرة وبنبرة مبتهجة كاذبة... كان عمله يسير على ما يرام، جيد جدًا... لقد كان مجرد توقف مؤقت. في هذه اللحظة، كان يدير عملاً رائعاً... ...صحيفة صناعية كبيرة مع الصور الكثير من المال، وأطروحة عن الإعلانات الرائعة! وأصبح وجهه أكثر حيوية وهو يتحدث. واستقام خصره. وشيئاً فشيئاً أخذت لهجته تتسم بلهجة وقائية، كما لو كان بالفعل في مكتب تحريره، بل لقد طلب مني مقالات: "وأنت تعلم" وأضاف، وهو في جو من الانتصار، "إنه شيء مؤكد... إنني أبدأ بثلاثمائة ألف فرنك وعدني بها جيراردان!

هذا هو الاسم الذي يتردد دائمًا على ألسنة أصحاب الرؤى. عندما يُذكر لي هذا الاسم، يبدو لي أنني أرى مناطق جديدة، ومباني كبيرة غير مكتملة، وصحفاً مطبوعة حديثاً بقوائم المساهمين والمديرين. في كثير من الأحيان لقد سمعته يقول، فيما يتعلق بالمشاريع المجنونة: "عليك أن تتحدث مع جيراردان عن ذلك ."!

وكان هو أيضاً، ذلك الشيطان المسكين، قد راودته فكرة التحدث مع جيراردان في هذا الشأن. وكان عليه طوال الليل أن يعد خطته ويضع خطته ويضع الأرقام؛ ثم خرج، وبينما هو يمضي في طريقه مهيجاً كان العمل قد أصبح جيداً إلى درجة أنه بدا له وقت لقائنا أنه من المستحيل أن يرفض جيراردان الثلاثمائة ألف فرنك. وعندما قال إنه وعده بها، لم يكن الرجل التعيس يكذب، بل كان ببساطة يواصل حلمه. وبينما كان يتحدث إليّ كان الناس يتدافعون ويدفعوننا إلى الحائط. وكان ذلك على رصيف أحد تلك الشوارع المزدحمة التي تؤدي من البورصة إلى البنك،

مليئة بالناس المستعجلين اللاهين عن أعمالهم، وأصحاب المتاجر المتلهفين على سحب أوراقهم النقدية، وسماسرة البورصة الصغار ذوي الأرقام المنخفضة يلقون الأرقام في آذان بعضهم بعضاً أثناء مرورهم. وسماع كل هذه المشاريع الجميلة في وسط هذا الزحام، في هذا الحي من المضاربين حيث تشعر بالعجلة وحمى المقامرة، جعلني أشعر كما لو كنت على حافة مقعدى. إثارة قصة غرق السفينة التي تروى في عرض البحر. لقد كنت أرى حقاً كل ما كان يحكيه لي هذا الرجل، أرى كوارثه في وجوه أخرى وآماله المشرقة في عيون أخرى حائرة. لقد تركني فجأة، كما اقترب مني تماماً، وقذف بي في زوبعة من الجنون والأحلام والأكاذيب، ما يسميه هؤلاء الناس بكل جدية: "الأعمال".

كنت قد نسيته بعد خمس دقائق، ولكني في المساء، عندما عدت إلى البيت ونفضت عن نفسي كآبة النهار وغبار الشوارع، رأيت مرة أخرى ذلك الوجه الشاحب المعذب، وكعكة القرش والإشارة التي كانت تسطر تلك الكلمات الفخمة: (بثلاثمائة ألف فرنك وعدني بها جيراردان. . .)

.37.

نزوة الفتاة العابرة [104]

ادموند ابوت 1828ـ 1885

كان لدى "«كليمنتين»" قلب صغير جداً. فقبل أن تلتقي بـ "«ليون»"، لم تكن تحب سوى شخص واحد: أمها. لم يكن أبناء العم، ولا الأعمام، ولا الأخوال، ولا العمات، ولا الأجداد، ولا الجدات، قد نثروا بمشاركتها ذلك الكنز الصغير من المودة الذي يجلبه الأطفال المولودون الجدد إلى هذا العالم. وكانت جدته، قد توفيت بعد ثلاثة أشهر في ضواحي تولون، عقب ولادتها. وكان جدها السيد لانجفين، مراقب عسكري من الدرجة الأولى، وهو أرمل وله ابنة في المهد، وقد كرس نفسه لتعليم هذه الطفلة. وفي سنة 1835، وهبها لرجل جليل وساحر هو السيد «سامبوكو»، وهو من أصول إيطالية ولد في فرنسا وكان مدعياً ملكياً في بلاط مرسيليا. وفي سنة 1838، كان السيد «سامبوكو» يتمتع بقليل من الاستقلالية لأنه كان يملك القليل من المال، فقد تحمل بشرف كبير خزي وزير العدل. وعين محامياً عاماً في "المارتينيك"، بعد أيام قليلة من التردد قبل هذه النقلة البعيدة. ولكن العجوز "لانجفين" لم يكن من السهل عليه أن يعزى برحيل ابنته: فقد توفي بعد ذلك بسنتين دون أن يقبل الصغيرة "«كليمنتين»" التي كان من المفروض أن يكون الأب الروحي لها. وتوفي صهره السيد «سامبوكو» في زلزال

---

[104] fr.wikisource.org/wiki/L’Homme_à_l’oreille_cassée.

Edmond About 1876 (p 51 – 56)

عام 1843، وتناقلت الصحف في المستعمرة وفي فرنسا خبر وفاته. وعلى إثر هذه المحنة الرهيبة، أسرعت الأرملة الشابة بالعودة عبر البحار مع ابنتها. واستقرت في "فونتنبلو" حتى تستطيع الطفلة أن تعيش في الهواء الطلق، ف"فونتنبلو" من أصح مدن فرنسا وأنقاها. ولو كانت السيدة «سامبوكو» مديرة جيدة كما كانت أماً جيدة لتركت ل"كليمنتين" ثروة محترمة، ولكنها أساءت إدارة شؤونها وأوقعت نفسها في ورطة كبيرة. فقد أخذ منها أحد المحامين المحليين مبلغاً كبيراً إلى حد ما، كما أن مزرعتين كانت قد دفعت فيهما الكثير من المال لم تعودا عليها بشيء تقريباً. وباختصار، لم تعد تعرف أين تقف وكانت قد بدأت تفقد صوابها، عندما أبدت إحدى أخوات زوجها، وهي عجوز متدينة وضيقة الأفق، رغبتها في العيش معها ومشاركتها في كل شيء. كان قدوم هذه "الشمطاء" ذات الأسنان الطويلة قد أخاف الصغيرة "«كليمنتين»" التي كانت تختبئ تحت الأثاث أو تتشبث بثياب أمها الداخلية؛ ولكنها كانت خلاص البيت. ولم تكن الآنسة «سامبوكو» أذكى أو أكثرهم كآبة، ولكنها كانت تجسد النظام. فقد خفضت النفقات، وجمعت الدخل بنفسها، وباعت المزرعتين في عام 1847، واشترت ثلاثة في المائة في عام 1848، وأوجدت رصيداً ثابتاً في الميزانية. وبفضل مواهب ونشاط هذه المرأة الخادمة لم يكن على هذه الأرملة اللطيفة التي لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها سوى أن تدلل طفلها. تعلمت "«كليمنتين»" أن تحترم فضائل عمتها، لكنها كانت تعشق أمها. وعندما شاء حظها العاثر أن تفقدها وجدت نفسها وحيدة في هذا العالم، متكئة على الآنسة «سامبوكو» كنبتة صغيرة على وتد من الخشب الجاف. وفي ذلك الحين تلونت صداقتها مع "«ليون»" ببصيص غامض من الحب، واستغل ابن السيد "رينو" الحاجة إلى التوسع التي ملأت هذه النفس الشابة.

وخلال السنوات الثلاث الطويلة التي قضاها "«ليون»" بعيداً عنها، كانت "كليمانتين" لا تكاد تشعر بالوحدة. كانت تحب، وكانت تعلم أنها محبوبة، وكانت

تؤمن بالمستقبل؛ وكانت تعيش على الحنان الداخلي والأمل الرصين، ولم يكن هذا القلب النبيل الرقيق يطلب أكثر من ذلك.

ولكن الذي أدهش خطيبها وخالتها ونفسها، والذي حير كل النظريات المعتمدة في قلب الأنثى، والذي كان العقل يرفض تصديقه لو لم تكن الحقائق موجودة، هو أنها في اليوم الذي رأت فيه الزوج الذي اختارته مرة أخرى، وبعد ساعة من إلقائها بنفسها بين ذراعي «ليون» بتلك النعمة المذهولة، شعرت «كليمنتين» فجأة بشعور جديد لم يكن حباً ولا صداقة ولا خوفاً، ولكنه كان مهيمناً على كل ذلك ومتحدثاً باسمها في قلبها. ومنذ اللحظة التي أراها فيها «ليون» وجه العقيد، شعرت بشغف حقيقي تجاه هذه المومياء المجهولة. لم يكن شعوراً يشبه ما كانت تشعر به تجاه ابن السيد رينو، ولكنه كان مزيجاً من الاهتمام والشفقة والتعاطف المحترم.

ولو أن أحداً ما أخبرها عن عمل عظيم من أعمال السلاح، أو قصة رومانسية كان الكولونيل بطلها، لكان لهذا الانطباع ما يبرره أو على الأقل ما يفسره. ولكن كلا، فهي لم تكن تعرف عنه شيئاً سوى أنه أدين كجاسوس من قبل مجلس الحرب، ومع ذلك فقد حلمت به في الليلة التي تلت عودة «ليون».

وقد تجلى هذا الانشغال المذهل أولاً في شكل ديني. فقد أقامت قداساً لراحة روح الكولونيل؛ وحثت «ليون» على إعداد جنازته؛ واختارت بنفسها القبر الذي سيدفن فيه. كل هذه العناية لم تسمح لها أبدًا أن تنسى زيارتها اليومية لصندوق الجوز، أو الانحناءة المحترمة بجانب الرجل الميت، أو القبلة الأخوية التي كانت تضعها بانتظام على جبينه. وبدأت عائلة رينو في النهاية تشعر بالقلق من هذه الأعراض الغريبة، وعجلت بدفن الغريب الوسيم لكي تتخلص منه في أقرب وقت ممكن. ولكن في عشية اليوم المحدد للمراسم، غيرت «كليمنتين» رأيها. "فأي حق لها في أن تسجن في القبر رجلاً قد لا يكون ميتاً أصلاً؟ لم تكن نظريات الدكتور مايزر المتعلم من النظريات التي لا يمكن رفضها من تلقاء نفسها. كان الأمر

يستحق على الأقل بضعة أيام من التفكير. ألم يكن من الممكن إخضاع جثة الكولونيل لبعض التجارب؟ وكان الأستاذ "هرتز" القادم من برلين قد وعد أن يرسل إلى «ليون» بعض الوثائق الثمينة عن حياة هذا الضابط التعيس وموته؛ ولم يكن بالإمكان عمل شيء قبل أن نتسلمها، وكان علينا أن نكتب إلى برلين لنعجل بإرسال هذه الوثائق". تنهد «ليون»، ولكنه أطاع هذه النزوة الجديدة مطيعاً. كتب إلى السيد هيرتز. وجدت «كليمنتين» حليفًا في هذه الحملة الثانية: لم يكن السيد مارتوت طبيباً متواضعاً في ممارسته العملية ومحتقراً لزبائنه إلى حد بعيد، ولكنه لم يكن ينقصه شيء من العلم. فقد كان يدرس منذ زمن طويل خمس أو ست مسائل رئيسية في علم وظائف الأعضاء، كالإحياء والتوليد التلقائي وكل ما يتصل بهما. وكانت له مراسلات منتظمة تبقيه على علم بكل الاكتشافات الحديثة؛ وكان صديقاً لمستر بوشيه، من روان؛ وكان يعرف كارل نيبور الشهير الذي أوصل استخدام المجهر إلى هذا الحد البعيد والعالي. وكان مستر مارتوت قد جفف وأحيا آلافاً من الأنجيليات والروتيفات والدودات؛ وكان يعتقد أن الحياة ليست شيئاً آخر غير التنظيم في العمل، وأن فكرة إحياء إنسان جف في حد ذاتها ليست سخيفة. وظل يتأمل طويلاً عندما أرسل إليه المستر هرتز القطعة التالية من برلين، وأصلها محفوظ في مخطوطات مجموعة هومبولت.

.38.

أريحيّة التقاعد وكرامة الشخصية[105]

نيكولاص شامفور 1741 ـ 1794

الفيلسوف ينظر إلى ما يسمى دولة في العالم كما ينظر التتار إلى المدن، أي أنه ينظر إليها على أنها سجن. إنها دائرة تضيق فيها الأفكار وتتركز، فتسلب الروح والعقل اتساعهما ونموهما. فالرجل الذي له مكانة كبيرة في العالم يكون سجنه أكبر وأشد زخرفة. أما من له مكانة صغيرة فهو في زنزانة. والإنسان الذي ليس له مكانة هو الإنسان الحرّ الوحيد شريطة أن يكون ميسور الحال، أو على الأقل ليس له حاجة إلى الناس.

إن أكثر الناس تواضعاً في الحياة الدنيا يجب أن يكون، إذا كان فقيراً، على قدر من التواضع، وعلى قدر من السهولة التي تمنع أحداً من أن يستغلّه. وفي هذه الحالة، يجب أن يزين التواضعَ عزةُ النفس.

إن ضعف الشخصية أو قلة الأفكار، وبكلمة واحدة كل ما يمكن أن يمنعنا من العيش مع أنفسنا، هي الأشياء التي تنقذ كثيراً من الناس من سوء الخلق.

نحن أكثر سعادة في العزلة منا في العالم. أليس هذا لأنك في العزلة تفكر في الأشياء، بينما في العالم أنت مجبر على التفكير في الناس؟

---

105 Maximes Pensées Caractères et Anecdotes.fr.wikisource.org

Nicolas Chamfort 1741 - 1794

إن أفكار الرجل العاقل المنفرد، حتى لو كان متوسط العقل، لن تكون ذات قيمة تذكر إذا لم تكن ذات قيمة لما يقال ويفعل في العالم.

إن الرجل الذي يصر على ألا يسمح لعقله ولا لاستقامته، أو على الأقل لرقته، أن ينحني تحت وطأة أي من التقاليد السخيفة أو غير النزيهة للمجتمع، والذي لا ينحني أبدًا في المناسبات التي يكون من مصلحته أن ينحني فيها، ينتهي به الأمر حتمًا إلى أن يبقى بلا سند، ولا صديق له سوى كائن مجرد يسمى الفضيلة، التي تتركك تموت جوعًا.

يقال أحياناً عن الرجل الذي يعيش وحيداً إنه لا يحب المجتمع. وكثيراً ما يكون الأمر كما لو قيل عن رجل إنه لا يحب المشي، بحجة أنه لا يحب المشي في المساء في غابة مخيفة.

فهل من المؤكد على الإطلاق أن الرجل الذي يتمتع بعقل مستقيم تماماً، وحس أخلاقي رائع تماماً، يستطيع أن يعيش مع شخص ما؟ ولا أعني بالعيش أن يعيشا معاً دون شجار: أعني أن يستمتع كل منهما بالآخر، ويحب كل منهما الآخر، ويتبادلان المسرة و السرور.

يضيع رجل الروح إذا لم يجمع بين الروح وطاقة الشخصية. عندما يكون لديك مصباح علاء الدين يجب أن يكون لديك عصاه.

يجب ألا نعرف كيف نعيش فقط مع أولئك الذين يستطيعون أن يقدروننا: فذلك من شأنه أن يكون حاجة إلى حب ذاتي أرق وأصعب من أن يرضى، بل يجب أن نضع جوهر حياتنا المعتادة فقط مع أولئك الذين يستطيعون أن يشعروا بما نستحقه. حتى الفيلسوف لا ينتقد هذا النوع من حب الذات.

لا يوجد أحد له أعداء في الدنيا أكثر من الرجل المستقيم المتكبر الحساس، المائل إلى ترك الناس والأشياء على ما هي عليه، لا إلى حملها على غير ما هي عليه.

العالم يقسّي قلوب معظم الناس. ولكن أولئك الذين هم أقل قابلية للقسوة يضطرون إلى أن يخلقوا لأنفسهم نوعاً من التبلد الزائف حتى لا ينخدعوا بالرجال

أو النساء. فالشعور الذي يصطحب الرجل الصادق بعد أن يسلم نفسه للمجتمع لبضعة أيام عادة ما يكون مؤلماً ومحزناً. والميزة الوحيدة التي ستنتج عنه هي أن الاعتزال سيجد فيه الإنسان نفسه محبوباً.

إن أفكار العامة دائمًا ما تكون دنيئة وخسيسة. وبما أنهم لا يسمعون إلا بالفضائح والأفعال المشينة الملحوظة، فإنهم يلصقون نفس الألوان بكل ما يمر في طريقهم من وقائع وأحاديث تقريباً. وهل يرى علاقة من أنبل ما يكون بين سيد عظيم ورجل من ذوي الفضائل، أو بين رجل في منصب ورجل من ذوي المناصب، أو بين رجل في منصب وفرد من الأفراد، فلا يرى في الحالة الأولى إلا حامياً وعميلاً، ولا يرى في الثانية إلا مكيدة وتجسساً. وغالباً ما يرى في عمل من أعمال الكرم، ممزوجاً بظروف نبيلة ومثيرة للاهتمام، لا يرى إلا مالاً يقرضه رجل ذكي لرجل من قبل مغرور. وفي الواقع الذي يعطي دعاية لعاطفة مثيرة للاهتمام في بعض الأحيان لامرأة شريفة ورجل يستحق أن يكون محبوبًا، لا يرى إلا قطعية أو تحررًا، وذلك لأن أحكامه تتحدد مسبقا بكثرة القضايا التي اضطر فيها إلى الاستنكار والاستهجان. ويترتب على هذه الملاحظات أن أفضل ما يمكن أن يحدث للصادقين هو أن يهربوا منه.

إن الطبيعة لم تقل لي: لا تكن فقيراً، ولا تقول لي: كن غنياً، ولكنها تناديني: كن مستقلاً.

أما الفيلسوف الذي لا يعطي الإنسان إلا قيمته الحقيقية، فمن البساطة بمكان أن هذه الطريقة في الحكم لا ترضي أحدًا.

رجل العالم، وصديق الحظ، وحتى عاشق المجد، كلهم يرسمون أمامهم خطًا مباشرًا يقودهم إلى نهاية مجهولة. أما الرجل الحكيم، صديق نفسه، فيرسم خطًا دائريًا تقوده نهايته إلى نفسه.

لا ينبغي أن نندهش من ذوق جان جاك روسو في العزلة؛ فمثل هذه النفوس معرضة لأن ترى نفسها وحدها، وأن تعيش في عزلة مثل النسر؛ ولكن مثله، فإن اتساع نظرها وارتفاع تحليقها، هو سحر عزلتها.

كل من لا شخصية له ليس رجلاً، بل هو شيء من الماضي.

وقد أسميه غرورا مهذبا بالسمو، ولكن من لا يستطيع أن يعبر عنه في كل حوادث الحياة فهو قليل جداً، أو بالأحرى لا شيء.

إنك لا تعرف رجلاً على الإطلاق إذا لم تعرفه حق المعرفة؛ ولكن قلة من الرجال هم الذين يستحقون الدراسة. ومن ثم فالرجل ذو الجدارة الحقيقية لا بد أن يكون عموماً في عجلة من أمره لكي يعرفه الناس. فهو يعلم أن قلة من الناس هم الذين يستطيعون تقديره، وأن لكل واحد من هذا العدد القليل علاقاته ومصالحه وحبه لذاته التي تمنعه من إعطاء الجدارة ما تحتاج إليه من اهتمام يضعها في مكانها الصحيح. أما المديح الشائع والمبتذل الذي يلقى عليه عند الشك في وجوده، فإن الجدارة لا يمكن أن يمدح بها.

ومتى ارتقت شخصية الرجل إلى درجة يسهل معها تخمين كيف سيتصرف في جميع المناسبات التي تتعلق بالصدق، فإن الأوغاد وأنصاف الصادقين أيضاً يستهجنونه ويتجنبونه بحذر. والأكثر من ذلك أن الأمناء، اقتناعاً منهم بأنهم سيجدونه في الاجتماعات التي سيحتاجون إليه فيها بتأثير مبادئه، يسمحون لأنفسهم بإهماله لكي يطمئنوا إلى من يشكّون في أمره.

فجميع الناس تقريباً هم عبيد للسبب الذي أعطاه "الإسبرطيون" لعبودية الفرس، وهو عدم معرفتهم كيفية نطق لفظة "لا". فمعرفة كيفية نطق هذه الكلمة ومعرفة كيفية العيش بمفرده هما الطريقتان الوحيدتان للحفاظ على حرية المرء وشخصيته.

عندما تكون قد عزمت على أن لا ترى إلا أولئك الذين يستطيعون أن يتعاملوا معك على أساس الأخلاق والفضيلة والعقل والحق، ولا تنظر إلى التقاليد والأباطيل والآداب إلا على أنها دعائم المجتمع المدني؛ عندما أقول إنك قد عزمت على ذلك (ويجب أن تفعل ذلك تحت طائلة أن تكون أحمقا أو ضعيفاً أو حقيراً) فإنك تعيش وحيداً إلى حد ما..

ومن حق أي إنسان يعرف نفسه جيدا أن تكون له مشاعر سامية أن يبدأ من شخصيته لا من مركزه لكي يعامل معاملة لائقة.

.39.

1. قتل العجل السمين احتفالاً بعودة الطفل المقتصد[106]

ادموند ابوت 1828ـ 1885

في 18 مايو سنة 1859 أرسل السيد رينو، وهو أستاذ سابق في الفيزياء والكيمياء، وهو الآن مالك أرض في فونتين بلو وعضو مجلس بلدية تلك البلدة الصغيرة الودودة، الرسالة التالية بنفسه: (إلى السيد ليون رينو، المهندس المدني، المكتب المتبقي في برلين، بروسيا .

"طفلي العزيز، إن الأخبار السارة التي أرسلتها من سان بطرسبرج قد أثلجت صدورنا. لقد كانت أمك المسكينة مريضة منذ الشتاء؛ ولم أكن قد تحدثت إليك بشأنها خوفاً من أن يقلقك ذلك وأنت البعيد. كان هناك شخص ثالث (يمكنك تخمين اسمه إن استطعت) كان متلهفاً لعدم رؤيتك. ولكن لا تقلق يا عزيزي ليون: إننا نعود إلى الحياة بقدر ما نستطيع، لأن موعد عودتك قد تحدد بشكل أو بآخر. لقد بدأنا نعتقد أن مناجم الأورال لن تلتهم الرجل الذي هو أعز علينا من أي شيء آخر في العالم. !الحمد لله

إن هذا الحظ الشريف والسريع لن يكلفك حياتك، أو حتى صحتك، إذا صح أنك قد ازداد وزنك في الصحراء كما تؤكد لنا. لن نموت دون أن نحتضن ابننا! سيئ جدا

[106] Edmond About, Lhomme à l’oreille cassée.

بالنسبة لك إذا لم تكن قد أنهيت كل أعمالك هناك: هناك ثلاثة منا أقسموا أنك لن تعود أبدا. لن تكون الطاعة صعبة عليك، لأنك ستكون سعيد بيننا .

على الأقل هذا ما تظنه كليمنتين... لقد نسيت أنني وعدت نفسي بألا أذكر اسمها! مايتر بونيفيت، جارنا الممتاز، لم يكتفِ بوضع رأس مالك في رهن جيد؛ في وقت فراغه قام بكتابة صك صغير مؤثر جداً, في انتظار توقيعك لقد طلب عمدة بلديتنا المحترم وشاحًا جديدًا لك، والذي وصل للتو من باريس. ستكون أنت من سيستلمه. إن شقتك التي ستصبح قريباً شقتك التي تليق بثروتك الحالية. ولكن المنزل قد تغير كثيراً في السنوات الثلاث الأخيرة لدرجة أن أوصافي لن تكون مفيدة لك. لقد أشرف السيد أودريت، مهندس القلعة الإمبراطورية على العمل. لقد كان مصمماً على أن يبني لي مختبراً يليق بـ ثينارد أو ديبريز. ومهما احتججت على ذلك وقلت إنني لا أصلح لشيء، لأن أطروحتي الشهيرة عن تكاثف الغازات لا تزال في الفصل الرابع، ولأن أمك كانت متواطئة مع هذا الصديق الوغد القديم، فقد تبين أن للعلم الآن معبداً هنا. متجر سحرة حقيقي، كما كان يقول جوثون العجوز .

لا ينقصه شيء، ولا حتى محرك بخاري بأربعة أحصنة: ماذا سأفعل به؟

للأسف! لكنني أعتمد على حقيقة أن هذه النفقات لن تضيع على الجميع. لن تستريح على أمجادك. آه! لو كانت لي ملكيتك عندما كنت في مثل سنك! لكنت كرست أيامي للعلم البحت، بدلاً من أن أضيع أفضل جزء منها مع أولئك الشباب المساكين الذين لم يستغلوا صفّي إلا لقراءة الأستاذ بول دي كوك !

كنت سأكون طموحاً! كنت أود أن أرفق اسمي باكتشاف قانون عام جداً، أو على الأقل ببناء آلة مفيدة جداً. لقد فات الأوان الآن، فعيناي متعبتان وعقلي يرفض العمل. دورك يا بني! إنك لم تبلغ السادسة والعشرين، وقد أعطتك مناجم الأورال ما يكفيك لتعيش، ولم تعد في حاجة إلى شيء لنفسك، فقد حان الوقت لتعمل للبشرية. هذه أعظم رغبة وأعز أمل لوالدك العجوز، الذي يحبك وينتظرك بذراعين مفتوحتين .

"ج. رينو
"ملاحظة: "وفقا لحساباتي، يجب أن تصل هذه الرسالة إلى برلين قبل يومين أو ثلاثة أيام من وصولك. ستكونون قد علمتم من الصحف الصادرة في السابع من هذا الشهر بوفاة السيد دي هومبولت اللامع في العاشر من هذا الشهر. إنها فجيعة للعلم والإنسانية. وقد كان لي شرف الكتابة إلى هذا الرجل العظيم عدة مرات في حياتي، وقد تكرم بالرد عليَّ في رسالة لازلت محتفظاً بها. ولو أتيح لي أن أشتري بعض تذكاراته، أو بعض المخطوطات التي بخط يده، أو بعض الأجزاء من مجموعاته لسرني ذلك سروراً حقيقياً. وبعد شهر من إرسال هذه الرسالة عاد الابن الذي طال انتظاره إلى منزل والده. وجاء السيد والسيدة رينو ليأخذاه من المحطة فوجداه أطول وأسمن وأجمل في كل شيء .
وللأمانة، لم يكن صبيًا رائعًا، لكنه كان حسن المظهر، ودودًا وودودًا. كان ليون رينو رجلاً متوسط القامة، أشقر، ممتلئ الجسم ومتوازن الجسم. وكانت عيناه الزرقاوان الواسعتان وصوته الناعم ولحيته الحريرية تشير إلى طبيعة أكثر رقة من القوة. وكانت رقبته شديدة البياض، مستديرة للغاية وتكاد تكون أنثوية، في تناقض صارخ مع وجهه الذي كان مشمساً .
كانت أسنانه جميلة ولطيفة جداً وليست حادة على الإطلاق. وعندما خلع قفازيه، اكتشف يدان صغيرتان مربعتان مربعتان، متماسكتان تماماً، ناعمتان تماماً، لا حارة ولا باردة، لا جافة ولا رطبة، بل لطيفة الملمس ومعتنى بها تماماً .
وما كان أبوه وأمه ليقايضاه بأبولو بلفيدير كما كان، بل كان أبوه وأمه لا يقايضانه بأبولو بلفيدير. لقد قبلوه والله أعلم، وسألوه ألف سؤال نسي أن يجيب عليها. وهرع إلى المحطة مع والديه بعض أصدقائه القدامى من أهل البيت، طبيب ومهندس معماري ومحامٍ: كل منهم كان له دوره، وكل منهم عانقه، وكل منهم سأله إن كان بخير، وإن كانت رحلته موفقة؟ كان يستمع بصبر بل وبفرح إلى هذا اللحن المبتذل الذي لا تعني كلماته الكثير، لكن موسيقاه كانت تذهب إلى القلب،

لأنها نابعة من القلب. وكان قد مضى على وجودنا هناك ربع ساعة من الزمن، وكان القطار قد استأنف رحلته وهو يصفر، وكانت الحافلات من مختلف الفنادق قد انطلقت واحدة بعد الأخرى في هرولة كاملة في الجادة المؤدية إلى المدينة؛ ولم تمل شمس يونيو من إنارة هذه المجموعة السعيدة من الناس الطيبين .

ولكن مدام رينو صاحت فجأة أن الطفل المسكين لا بد أنه يتضور جوعاً، وأنه من الهمجية أن يؤخر عشاءه كل هذا الوقت الطويل. ومهما احتج بأنه قد تناول الغداء في باريس وأن الجوع لم يكن يتكلم بصوت عال كالفرح، فقد ألقى الرفقة كلها بأنفسهم في عربتين كبيرتين مستأجرتين، الابن بجانب الأم، والأب في الجهة المقابلة، وكأنه لم يستطع أن يشبع عينيه من منظر ابنه العزيز. وجاءت عربة في الخلف تحمل الصناديق والصناديق الكبيرة المربعة الطويلة وكل أمتعة المسافر. وعند مدخل البلدة، كان سواق العربات يضربون بسياطهم، وتبعهم سائق العربة في ذلك سائق العربة، وكان هذا الضجيج المبهج يجذب السكان إلى عتبات أبوابهم ويحيي للحظة هدوء الشوارع. وتلفتت السيدة رينو يميناً وشمالاً تبحث عن شهود على انتصارها وتحيي الناس الذين بالكاد تعرفهم بأشد الود. واستقبلتها أكثر من أم، دون أن تعرفها تقريباً، إذ لا توجد أم لا تبالي بمثل هذه السعادة، وعلاوة على ذلك كانت عائلة ليون محبوبة من الجميع! وكان الجيران يأتون إليهم ويقولون بفرح خال من الغيرة: (إنه ابن رينو الذي عمل ثلاث سنوات في مناجم روسيا وجاء ليشارك والديه العجوزين ثروته !

ولمح ليون أيضاً بعض معارفه، ولكن ليس كل الناس الذين كان يرغب في رؤيتهم مرة أخرى. ومال للحظة إلى أذن والدته وقال: (وكليمانتين؟) ونطق هذه الكلمة بصوت منخفض وقريب جداً لدرجة أن السيد رينو نفسه لم يستطع أن يعرف ما إذا كانت كلمة أو قبلة. فابتسمت السيدة الطيبة بحنان وأجابته بكلمة واحدة: "صبراً! وكأن الصبر فضيلة شائعة بين العشاق!

كان باب المنزل مفتوحاً على مصراعيه، وكانت العجوز جوثون واقفة على عتبته. ورفعت ذراعيها إلى السماء وبكت كالحيوانات، لأنها لم تعرف ليون الصغير أكثر من ذلك! وكان هناك عناق آخر رائع على الدرجة العليا من المنحدر بين الخادمة الشجاعة وسيدها الشاب، وكان ذلك العناق رائعاً أيضاً. أصدقاء م. وتظاهر رينو بالانسحاب بدافع من التحفظ، ولكن كل ذلك كان عبثاً: فقد كان واضحاً وضوح الشمس أن مكانهم قد تحدد. وعندما اجتمع الجميع في غرفة الجلوس، ما عدا كليمنتين غير المرئية، مدت الكراسي الكبيرة ذات الميداليات أذرعها نحو ابن السيد رينو؛ وكانت المرآة القديمة على رف الموقد مسرورة بعكس صورته، وأطلقت الثريا البلورية الكبيرة رنيناً خفيفاً، وبدأ المندرين على الرف يهزون رؤوسهم ترحيباً به، كما لو كانوا من القواد الشرعيين وليسوا أجانب ووثنيين. لا أحد يعرف لماذا بدأت القبلات والدموع تنهمر مرة أخرى، لكن من المؤكد أنه بدا وكأنه قدوم ثانٍ. "حساء!" صاح جوثون .

وأمسكت السيدة رينو بذراع ابنها، خلافاً لكل قوانين الآداب، ودون أن تطلب حتى عفو الأصدقاء المحترمين الحاضرين. وبالكاد اعتذرت عن تقديم الطفل قبل الضيوف. وقد تركها ليون تفعل ذلك، وكان مسروراً جداً؛ ولم يكن هناك كلمة واحدة من ذلك. الذي لم يكن قادراً على سكب الحساء في صدره بدلاً من أن يتذوقه أمامه .

وصرخ ليون، وهو يحمل الملعقة في يده: (هذه أول مرة منذ ثلاث سنوات أتناول فيها حساءً طيباً !

وخجلت السيدة رينو من السرور، وكسر جوثون شيئاً من سروره؛ وتصور كل منهما أن الطفل كان يتكلم هكذا ليطريهما في نفسه، ومع ذلك فقد نطق بالحقيقة. هناك شيئان في هذا العالم لا يجدهما الإنسان في الغالب خارج بيته: الأول هو الحساء الطيب، والثاني هو الحب غير الأناني. ولو أردت أن أقوم بتعداد صادق لكل الأطباق التي ظهرت على المائدة، فلن يكون هناك قارئ واحد من قرائي لن

يسيل فمه من الماء. حتى أنني أعتقد أن أكثر من قارئ رقيق سيخاطر بعسر الهضم .

وأرجو أن أضيف أن هذه القائمة ستستمر إلى نهاية المجلد، ولن يتبقى لي صفحة واحدة لكتابة قصة فوغاس الرائعة. لهذا السبب سأعود إلى غرفة المعيشة، حيث القهوة قد قُدِّمت القهوة بالفعل .

بالكاد أخذ ليون نصف فنجانه، ولكنلا تستنتج أن القهوة كانت ساخنة جداً أو باردة جداً، أو حلوة جداً. لا شيء في العالم كان سيمنعه من شربها حتى آخر قطرة، لولا صوت مطرقة على باب الشارع .

بدت الدقيقة التي تلت ذلك طويلة للغاية. لا! لم يصادف في أسفاره دقيقة طويلة كهذه الدقيقة. ولكن في النهاية ظهرت كليمانتين وقد سبقتها الآنسة فيرجيني سامبوكو الموقرة عمتها. وسمع المندرين المبتسمين على الرف صوت ثلاث قبلات. لماذا ثلاثة؟ إن القارئ السطحي الذي يدعي تخمين الأشياء قبل كتابتها قد وجد تفسيراً معقولاً لذلك. فهو يقول: "من المؤكد أن ليون كان أكثر احتراماً من أن يقبل الآنسة "سامبوكو" الجليلة أكثر من مرة، ولكنه عندما رأى نفسه في حضرة "كليمنتين" التي كانت ستصبح زوجته، ضاعف الجرعة وأحسن صنعاً. هذا يا سيدي، هذا ما أسميه حكم متسرع. لقد سقطت القبلة الأولى من فم ليون على خد الآنسة سامبوكو؛ وسقطت القبلة الثانية من فم ليون على خد الآنسة سامبوكو. من شفتي الآنسة سامبوكو على خد ليون الأيسر؛ أما الثالثة فكانت حادثة حقيقية أغرقت قلبين شابين في ذعر عميق .

أما ليون الذي كان مغرماً جداً بمستقبله فقد اندفع نحوها اندفاعاً أعمى لا يدري أقبل خدها الأيمن أم الأيسر، ولكنه كان مصمماً على ألا يؤخر أكثر من ذلك متعة كان يعد نفسه بها منذ ربيع عام 1856 .

ولم تكن كليمنتين تفكر في الدفاع عن نفسها، بل في وضع شفتيها الحمراوين الجميلتين على خد ليون الأيمن أو الأيسر، حسب الحالة. كان تسرع الشابينالناس

كانوا مسئولين عن عدم تلقي وجنتي كليمنتين ولا وجنتي ليون القربان المخصص لهما. أما المنداريان على الرف، اللذان توقعا أن يسمعا قبلتين، فلم يسمعا إلا قبلة واحدة. فوقف ليون عاجزاً عن الكلام، وخجلت كليمنتين حتى الشفتين، وتراجع الخطيبان خطوة إلى الوراء وهما ينظران إلى الوريدات على السجادة التي بقيت محفورة في ذاكرتهما إلى الأبد .

في نظر ليون رينو كانت كليمنتين في نظر ليون رينو هيأجمل شخص في العالم. وكان قد أحبها منذ أكثر من ثلاث سنوات بقليل، ومن أجلها قام برحلته إلى روسيا. وفي عام 1856، كانت صغيرة جداً على الزواج، وكانت غنية جداً بالنسبة لمهندس يكسب 2400 فرنك ليطالب بها بشكل لائق. وكان ليون، وهو عالم رياضي محقق، قد وضع لنفسه المشكلة الآتية: (لو فرضنا فتاة صغيرة في الخامسة عشرة والنصف من عمرها غنية بثمانية آلاف فرنك من المعاش السنوي ومهددة بميراث الآنسة سامبوكو أي مائتي ألف فرنك من رأس المال، لتكوين ثروة تساوي على الأقل ثروتها في مدة تسمح لها بأن تصبح بالغة دون أن يمهلها الوقت لتصبح عانساً). وقد وجد الحل في مناجم النحاس في جبال الأورال. وعلى مدى ثلاث سنوات طويلة كان يتراسل بشكل غير مباشر مع حبيبة قلبه. وكانت كل الرسائل التي كتبها إلى أبيه أو إلى أمه تمر بين يدي الآنسة سامبوكو، ولم تكن تخفيها أبداً عن كليمنتين .

بل إنها كانت أحياناً تقرأها بصوت عالٍ للعائلة، ولم يكن السيد رينو مضطراً أبداً إلى تخطي جملة واحدة، لأن ليون لم يكتب شيئاً لا تستطيع الفتاة الصغيرة أن تسمعه. العمة وابنة الأخت ولم يكن لديهما ما يلهيهما عن بعضهما البعض؛ فقد كانا يعيشان منعزلين في منزل صغير في أسفل حديقة جميلة، ولم يكن يستقبلان سوى الأصدقاء القدامى. لذلك لم يكن لدى كليمونتين سبب وجيه للاحتفاظ بقلبها من أجل ليون. فباستثناء كولونيل طويل القامة كان يطاردها أحياناً في المنتزه، لم يتودد إليها أي رجل .

ومع ذلك فقد كانت جميلة، ليس فقط في نظر حبيبها أو في نظر عائلة رينو أو في نظر البلدة الصغيرة التي كانت تعيش فيها. فالمقاطعات تميل إلى القناعة بالقليل. ويُعطي سمعة رخيصة كامرأة جميلة ورجل عظيم، لا سيما إذا لم يكن غنياً بما فيه الكفاية ليطلب. وفي العواصم لا يدعي الناس الإعجاب إلا بالجدارة المطلقة. وقد سمعت مرة عمدة قرية يقول في فخر واعتزاز: (يجب أن تعترفوا بأن خادمتي كاترين جميلة جداً بالنسبة لبلدة يبلغ عدد سكانها ستمائة نسمة! لقد كانت كليمانتين جميلة بما فيه الكفاية لتكون موضع إعجاب في بلدة يبلغ عدد سكانها ثمانمائة ألف نسمة. لقد كانت فتاة كريولية شقراء صغيرة شقراء، ذات عينين سوداوين، وبشرة ناصعة وأسنان براقة. كان خصرها مستديراً ونضراًمثل الاندفاع ما أظرف يديها، وما أجمل قدميها الأندلسيتين الجميلتين المقو»ستين» والمستديرتين كالحديد! وكانت كل نظراتها كالابتسامات، وكل حركاتها كالمداعبات. أضف إلى هذا أنها لم تكن حمقاء، ولا خجولة، ولا حتى جاهلة بكل شيء، كالفتيات الصغيرات اللاتي تربين في الدير. وكان تعليمها الذي بدأته أمها قد اكتمل على يد معلمتين أو ثلاث من المعلمات الكبيرات المحترمات اللاتي اختارتهن السيدة رينو معلمتها. وكانت تتمتع بذهن ثاقب وعقل متوقد. ولكني في الحقيقة أتساءل لماذا أتحدث عنها بصيغة الماضي، لأنها لا تزال حية والحمد لله، ولم يفنى شيء من كمالاتها.

2. تفريغ على ضوء مصباح[107]

وفي حوالي الساعة العاشرة مساءً، قالت الآنسة فيرجيني سامبوكو أن علينا أن نفكر في الاعتزال، فقد كانت هاتان السيدتان تعيشان بانتظام رهباني .
احتج ليون، لكن كليمون أطاعته مع عبوس صغير. كان باب الصالون مفتوحاً بالفعل، وكانت السيدة العجوز قد أخذت قلنسوتها إلى غرفة الانتظار، عندما صرخ المهندس الذي فاجأته فكرة: (لن تذهبي بالتأكيد دون أن تساعديني في فتح صناديقي! إنني أطلب منك معروفاً يا آنسة سامبوكو الطيبة) !
فتوقفت الفتاة المحترمة؛ وكانت العادة تحثها على الرحيل، والطيبة تنصحها بالبقاء، وذرة من الفضول جعلتها تحني رأسها توازنا.
"يا لها من سعادة!" قالت كليمونتين وهي تعيد قلنسوة عمتها إلى خطاف المعطف .
السيدة رينو لا تزال تجهل أين وضعت أمتعة ليون. وجاء جوثون ليقول لها أن كل شيء قد رُمي مبعثرا في دكان الساحر، حتى يستطيع السيد أن يقرر ما يجب أخذه إلى غرفته. وذهبت الرفقة كلها ومعها المصابيح والمشاعل إلى غرفة واسعة في الطابق الأرضي حيث الأفران والمخابر والأدوات الفيزيائية والصناديق، صناديق المبيت وصناديق القبعات والمحرك البخاري الشهير في مشهد مشوش وساحر. لعب الضوء في هذه الغرفة الداخلية كما في بعض لوحات المدرسة الهولندية. كان الضوء ينزلق فوق الأسطوانات الصفراء الكبيرة للآلة الكهربائية، ويرتد من فوق الحصير الزجاجي الرقيق، ويصطدم بعاكسين فضيين ويصطدم بمقياس فورتن الرائع أثناء مروره. تجمّع آل رينو وأصدقاؤهم بين الصناديق، بعضهم جالس

[107] Edmond About, Lhomme à l’oreille cassée.

والبعض الآخر واقف، و الأخرون يحملونهم بنقص المصباح والشمعة من جمال الصورة الخلابة شيئاً .

كان ليون، متسلحاً بمجموعة من المفاتيح الصغيرة، يفتح الصناديق واحداً تلو الآخر. وكانت كليمانتين جالسة أمامه على صندوق كبير مستطيل، تنظر إليه بكل عينيها بمودة أكثر مما كانت تنظر إليه بفضول. وفي البداية وضع صندوقين مربعين ضخمين لا يحتويان إلا على عينات معدنية فقط، ثم مروا بعد ذلك على الثروات من كل الأنواع التي كان المهندس قد عبأها في ملابسه وأقمشته.

وسرعان ما ملأت الورشة رائحة زكية من الجلد الروسي وشاي القوافل والتبغ الشامي وخلاصة الورد. أحضر ليون معه القليل من كل شيء، كما هي عادة المسافرين الأثرياء الذين تركوا وراءهم عائلة وأصدقاء كثيرين. فقد عرض أقمشة آسيوية، ونرجيلة فضية منقوشة من بلاد فارس، وصناديق الشاي، وشربات الورد، وخلاصات ثمينة، وأقمشة ذهبية، وأسلحة عتيقة، وقُدمت للضيوف مجموعة من الأواني الفضية، وحليّ مرصعة على الطراز الروسي، وأساور من القوقاز، وقلائد من الكهرمان اللبني وحقيبة جلدية مملوءة بالفيروز. تم تمرير كل قطعة من يد إلى يد، وسط أسئلة وتفسيرات ومداخلات من كل الأنواع. تلقى جميع الأصدقاء الحاضرين الهدايا المخصصة لهم. كانت هناك جوقة من الرفض المهذب، والإصرار الودي والشكر بكل لهجة .

وغني عن القول إن النصيب الأكبر كان من نصيب كليمنتين؛ ولكنها لم تطلبه، لأن كل هذه الأشياء الجميلة كانت في هذه المرحلة قد وضعت في السلة ولم تغادر العائلة. وأحضر ليون لوالده ثوباً مفرط الجمال مصنوعاً من الديباج الذهبي وبضعة كتب قديمة وجدها في موسكو، ولوحة جميلة لجروز ضاعت منه بأعظم صدفة في متجر حقير في مكان ما، وعينتين رائعتين من البلور الصخري وعصا للمسيو دي همبولت: ثم قال للسيد رينو وهو يضع بين يديه هذه الحاشية التاريخية: " إن حاشية رسالتك الأخيرة لم تسقط في الماء".

تلقى الأستاذ العجوز الهدية بانفعال واضح .

"لقد حملها نابليون والعلم في يده .

ماذا سيظن الناس لو أن رقيباً عجوزاً مثلي أخذها في نزهة في الغابة؟ والمجموعات؟ ألم تستطع شراء أي منها؟ هل بيعت بمبلغ كبير؟

-لم نقم ببيعها ."

ذهبت كلها إلى المتحف الوطني في برلين .

ولكني في حرصي على إرضائك سرقت بطريقة غريبة. ففي نفس يوم وصولي أخبرت الخادم المحلي الذي كان معي برغبتك. فأقسم لي أن تاجراً يهودياً صغيراً من تجار الأشياء المستعملة صديقاً له يدعى ريتر، كان يريد أن يبيع قطعة تشريحية رائعة جداً من التركة. فهرعت إلى اليهودي، وفحصت المومياء - لأنها كانت مومياء - ودفعت بدون المساومة على السعر. ولكن في اليوم التالي أخبرني أحد أصدقاء السيد دي هومبولت، وهو الأستاذ هيرتز بقصة هذه الخرقة البشرية التي كانت ملقاة في المحل منذ أكثر من عشر سنوات، والتي لم تكن أبداً ملكاً للسيد دي هومبولت. من أين حصل عليها جوثون؟ آه! الآنسة "كليمونتين" تعمل على ذلك .

أرادت كليمنتين النهوض، لكن ليون جعلها تجلس مرة أخرى.

قال: "لدينا متسع من الوقت للنظر في هذا الشيء القديم، وبالإضافة إلى ذلك، يمكنك أن تخمن أن الأمر ليس مضحكاً. هذه هي القصة التي أخبرني بها الأب هيرتز؛ وعلاوة على ذلك، فقد وعدني أن يرسل لي نسخة من مذكرات غريبة حول هذا الموضوع. لا تذهبي الآن يا آنسة سامبوكو الطيبة! إنها رواية عسكرية وعلمية صغيرة. سوف نلقي نظرة على المومياء بعد أن أخبرك بكل شيء عن مصائبه- بكى السيد أودريه، مهندس القلعة، وقال: (هذه هي رواية المومياء التي ستتلوها علينا. لقد فات الأوان يا ليون المسكين: لقد احتل ثيوفيل جوتييه مكان الصدارة في العدد السابع والعشرين من (لو مونيتور)، والجميع يعرفها، قصتك المصرية !

- يقول ليون: إن قصتي ليست مصرية أكثر من مانون ليسكوت. وينبغي لدكتورنا الفاضل مارتو الحاضر هنا اليوم أن يعرف اسم الأستاذ جان ميزر من دانتزيك؛ فقد عاش في بداية قرننا، وأظن أن آخر أعماله يرجع إلى سنة 1824 أو 1825.

-من عام 1823"، أجاب السيد مارتوت. إن مايزر هو أحد العلماء الذين شرفوا ألمانيا أعظم تشريف. ففي خضم الحروب المروعة التي أدمت بلاده، واصل عمل ليوينك وبيكر ونيدهام وفونتانا وسبالانزاني في إحياء الحيوانات. وتكرمه مدرستنا كأحد آباء علم الأحياء الحديث .

-يا إلهي! يَا لَهَا مِنْ كَلِمَاتٍ كَبِيرَةٍ!" صَرَخَتِ الْآنِسَة سامبوكو. هل يجوز احتجاز الناس في مثل هذه الساعة لإجبارهم على الاستماع إلى اللغة الألمانية !

حاولت كليمنتين تهدئتها.

"لا تستمعي إلى الكلمات الكبيرة يا عمتي العزيزة الصغيرة، احتفظي لنفسك بالرواية، لأن هناك رواية !

-واحدة فظيعة"، يقول ليون. كانت الآنسة كليمانتين تجلس على ضحية بشرية، ضحى بها الأستاذ ميزر للعلم .

ونهضت كليمانتين على قدميها، وسرعان ما قدم لها خطيبها كرسياً وجلس في المكان الذي تركته للتو. واتخذ الحاضرون من حوله، وقد خافوا أن تكون رواية ليون في عدة مجلدات، فأخذ بعضهم مكانه، وبعضهم على صندوق، وبعضهم على كرسي.

3ـ جريمة البروفسور مايزر

قال ليون: (لم يكن البروفسور "مايزر" يا سيداتي مجرماً عادياً، بل كان رجلاً مخلصاً للعلم والإنسانية. وإذا كان قد قتل الكولونيل الفرنسي الذي يرقد الآن

تحت معطفي الذي أرتديه، فقد كان ذلك أولاً للحفاظ على حياته، وثانياً لتوضيح مسألة تهمكنّ كثيراً .

"إن مدة وجودنا قصيرة جداً إلى ما لا نهاية. هذه حقيقة لا يمكن لأي إنسان أن يجادل فيها. أن نفكر أنه بعد مائة عام لن يبقى أحد من التسعة أو العشرة المجتمعين في هذا البيت على وجه الأرض! أليس هذا شيئًا محزنًا؟

تنهدت الآنسة سامبوكو بشدة. وتابع ليون: وا أسفاه! يا آنسة، لقد تنهدت مرات عديدة مثلك عند التفكير في هذه الضرورة المحزنة. لديك ابنة أخ، أجمل وأروع بنات الأخ، ومنظر وجهها الساحر يبهج قلبك. ولكنك تريدين ما هو أكثر من ذلك؛ ولن تشبعي حتى تري حفيديك من أبناء أخيك يركضون في الأرجاء. ستراهم، أنا أعتمد على ذلك. لكن هل سترى أولادهم؟ أحفادهم؟ مستحيل .

أما بالنسبة للجيل العاشر، أو العشرين، أو الثلاثين، فلا تفكر حتى في ذلك.

"ولكننا نفكر في الأمر، ولعله لا يوجد رجل لم يقل لنفسه مرة واحدة على الأقل في حياته: "ليتني أُولد من جديد بعد مائتي سنة! هذا الذي يود أن يعود إلى الأرض ليلتمس أخبار أسرته، تلك الأسرة التي من سلالته. والفيلسوف يتوق إلى معرفة ما إذا كانت الأفكار التي زرعها ستؤتي ثمارها، والسياسي ما إذا كان حزبه قد انتصر على حزبه، والبخيل ما إذا كان ورثته لن يبددوا الثروة التي جمعها، والبسيط ما إذا كان سيتمكن من العيش مرة أخرى.

المالك، إذا نبتت أشجار بستانه. لا أحد لا يبالي بمصائر المستقبل في هذا العالم الذي نركض فيه في بضع سنين ولا نعود إليه أبداً. كم من الناس من يحسدون مصير إبيمنيدس الذي نام في كهف ثم فتح عينيه ليجد العالم قد شاخ! من منا لم يحلم لنفسه بالمغامرة الرائعة للجميلة النائمة؟

"حسناً يا سيداتي، إن الأستاذ ميزر، وهو من أخطر رجال قرننا، كان مقتنعاً بأن العلم يستطيع أن يجعل كائناً حياً ينام ثم يوقظه بعد عدد لا نهائي من السنين،

ويوقف جميع وظائف الجسم، ويوقف الحياة، ويحمي الفرد من فعل الزمن قرناً أو قرنين، ثم يبعثه بعد ذلك .

-فهتفت مدام رينو قائلة: "إذن فقد كان مجنوناً ."

- لم أكن لأقسم على ذلك. ولكن كانت لديه أفكاره الخاصة عن الينبوع العظيم الذي يحرك الكائنات الحية. هل تتذكرين يا أمي الطيبة الانطباع الأول الذي راودك في طفولتك؟

عندما عرضت عليك ساعة متحركة من الداخل؟ كنت مقتنعًا بأن هناك حيوانًا صغيرًا مفعمًا بالحيوية في منتصف العلبة يعمل بجد لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم ليدير العقارب. إذا توقفت العقارب عن الحركة، كنت ستقول: "إذن فقد مات الوحش الصغير". ربما كان نائمًا فحسب .

"لقد تم توضيح لك منذ ذلك الحين أن الساعة تحتوي على مجموعة من الأعضاء المكيّفة جيدًا والمزوّدة بأدوات جيدة تتحرك تلقائيًا في تناغم تام. فإذا ما انكسر زنبرك، أو انكسر ترس، أو انكسرت حبة رمل بين جزأين، فإن الساعة لا تعمل، ويهتف الأطفال بحق: "لقد مات الوحش الصغير.

ولكن لنفترض أن لديك ساعة متينة، راسخة البنيان، سليمة من كل النواحي، وتوقفت لأن الأعضاء لم تعد تنزلق بسبب نقص الزيت، فإن الوحش الصغير لم يمت: كل ما يحتاجه هو قليل من الزيت لإيقاظه .

"هذا كرونومتر ممتاز من مصنع لندن. إنه يعمل لمدة أسبوعين دون أن يُجرح. لقد أعطيتهاإذاً لديه ثلاثة عشر يوماً ليعيشها. إذا ألقيته على الأرض، إذا كسرت الزنبرك الكبير، سيقال كل شيء. سأكون قد قتلت الوحش الصغير. ولكن لنفترض أنني وجدت طريقة لدعم أو تجفيف الزيت الرقيق الذي يسمح للأعضاء بالانزلاق فوق بعضها البعض دون أن أكسر أي شيء، فهل سيموت الوحش الصغير؟ لا، بل سيكون نائماً. والدليل على ذلك أنني أستطيع أن أضع ساعتي في درج وأحتفظ بها فيه خمساً وعشرين سنة، فإذا وضعت عليها قطرة من الزيت بعد ربع قرن

عادت الأعضاء إلى العمل. سيمر الوقت دون أن يشيخ الوحش الصغير النائم. سيظل أمامها ثلاثة عشر يومًا لتسير منذ لحظة استيقاظها.

"يرى الأستاذ ميزر أن جميع الكائنات الحية عبارة عن ساعات أو كائنات حية تتحرك وتتنفس وتتغذى وتتكاثر، شريطة أن تكون أعضاؤها سليمة ومزوتة بشكل مناسب .

وفي الحيوانات، يتمثل زيت الساعة في كمية هائلة من الماء. ففي الإنسان، على سبيل المثال، يوفر الماء حوالي أربعة أخماس الوزن الكلي. فإذا أعطينا عقيدًا يزن مائة وخمسين رطلاً، فهناكثلاثين رطلاً من الكولونيل ومائة وعشرين رطلاً أو «ستين» لتراً من الماء. وهذه حقيقة أثبتتها تجارب عديدة. وأنا أقول عقيداً كما أقول ملكاً: كل الرجال متساوون في التحليل، فالعقيد لا يتساوى في ذلك .

"كان الأستاذ ميزر مقتنعاً كجميع العلماء بأن كسر رأس العقيد أو ثقب قلبه أو شطر عموده الفقري إلى نصفين من شأنه أن يقتل الوحش الصغير، إذ أن المخ والقلب والنخاع الشوكي هي الينابيع التي لا غنى للآلة عن العمل بدونها. ولكنه كان يعتقد أيضاً أنه باستخراج «ستين» لتراً من الماء من إنسان حيّ فإنك تسكن الوحش الصغير دون أن تقتله، وأن العقيد الذي جفّفته بعناية يمكن أن تحفظه مائة عام ثم تعود إليه الحياة عندما تعيد إليه قطرة الزيت أو، وهذا أفضل، ال»ستين» لتراً من الماء التي لا يمكن للآلة البشرية أن تتحرك بدونها .

"إن هذا الرأي الذي يبدو غير مقبول بالنسبة لك ولي أيضاً، ولكن صديقنا الدكتور مارتوت لم يرفضه رفضاً مطلقاً، وقد استند إلى سلسلة من المشاهدات الموثوقة التي لا يزال في وسع أي شخص أن يتحقق منها حتى اليوم .

"هناك حيوانات تعود إلى الحياة: ليس هناك ما هو أكثر يقيناً أو أفضل إثباتاً. وقد كان السيد ميزر يسير على خطى آبي سبالانزاني وكثيرين غيره، فكان يلتقط الثعابين الصغيرة الجافة من مزراب سطح منزله الهش كالزجاج، ويعيد إليها الحياة بغمرها في الماء. إن القدرة على إعادة الحياة ليست امتيازًا لفصيلة واحدة: فقد لوحظت

في العديد من الحيوانات المختلفة. فالفولفوكس والثعابين الصغيرة أو الأنقليس الصغير أو الأنغول من الخل والطين والصمغ الفاسد والقمح الفاسد والقمح النيئ؛ الروتيفيرات، وهي جراد البحر الصغير ذو الدرع، والأمعاء الكاملة، والجنسين المنفصلين، والجهاز العصبي مع مخ متميز، وعين واحدة أو عينين حسب الجنس، وعدسة بلورية وعصب بصري؛ والتارديغراديات، وهي عناكب صغيرة ذات ست أو ثماني أرجل، وجنسين منفصلين، وأمعاء كاملة، وفم وفم وعينين، وجهاز عصبي متميز جداً، وجهاز عضلي متطور جداً؛ وكل هذه تموت وتعود إلى الحياة عشر أو خمس عشرة مرة متتالية حسب رغبة عالم الطبيعة. إذا جففت كائنًا من الروتيفر، طابت ليلتك!

على لو موي، بونجور! الحيلة هي أن تعتني به جيدًا عندما يكون جافًا. أنت تفهم أنك لو كسرت رأسه فقط لما كان هناك قطرة ماء، ولا نهر، ولا محيط قادر على إنعاشه .

"وأعجب ما في الأمر أن حيواناً لا يمكن أن يعيش أكثر من سنة كالأنجيليولا من ندى العسل يمكن أن يبقى ثمانية وعشرين عاماً دون أن يموت، إذا أخذت الاحتياط بتجفيفه. وقد جمع "نيدهام" عدداً منها في سنة 1743، وقدمها إلى مارتن فولكس الذي أهداها إلى بيكر، وأعيد إحياء هذه الحيوانات المثيرة للاهتمام في الماء سنة 1771. وقد تمتعوا بالرضا النادر لرؤية جيلهم الثامن والعشرين! ألن يكون الرجل الذي رأى جيله الثامن والعشرين جدًّا سعيدًا؟

"هناك حقيقة أخرى، لا تقل إثارة للاهتمام، وهي أن الحيوانات المجففة تعاني من وقت أصعب بكثير من الحيوانات الأخرى. فإذا انخفضت درجة الحرارة فجأة بمقدار ثلاثين درجة في المختبر الذي نجتمع فيه سنصاب جميعًا بنزلة برد في الصدر إذا ارتفعت درجة الحرارة إلى هذا الحد، فاحذر من احتقان المخ! فالحيوان الجاف، الذي لم يمت نهائياً والذي سيعود إلى الحياة غداً إذا ما بللته بالماء، يستطيع أن يتحمل تفاوتاً في درجة الحرارة يصل إلى خمس وتسعين درجة وستة

أعشار دون أن يصاب باحتقان المخ. وقد أثبت السيد "مايزر" والعديد من الآخرين ذلك .

"ويبقى أن نرى ما إذا كان يمكن تجفيف حيوان أرقى من الإنسان مثلاً دون أن يكون هناك إزعاج أكثر من الأنجيليولا أو التارديغرادي. وقد اقتنع مستر ميزر بهذا، وكتب عنه في جميع كتبه، ولكنه لم يبرهن عليه بالتجربة. يا للأسف يا سيداتي! كل الرجال فضوليون بشأن المستقبل، أو غير راضين عن الحياة,

أو يتشاجرون مع معاصريهم، سيضعون أنفسهم في الاحتياط لقرن أفضل، ولن يكون هناك المزيد من حالات الانتحار بسبب كراهية البشر! لن يحرق المرضى الذين أعلن العلم الجاهل في القرن التاسع عشر أنهم غير قابلين للشفاء بعد الآن أدمغتهم: سوف يجففون أنفسهم وينتظرون بسلام في صندوق حتى يجد الطبيب علاجاً لأمراضهم. لن يرمي العشاق المرفوضون أنفسهم وكانوا يستلقون تحت جرس آلة هوائية؛ وكنا نراهم بعد ثلاثين سنة شباباً وسيمين منتصرين يسخرون من شيوخهم القساة ويقابلون الازدراء بالاحتقار. ستتخلى الحكومات عن العادة القذرة والوحشية المتمثلة في إعدام الرجال الخطرين بالمقصلة. ولن تحبسهم في زنزانة في (مازاس) ليكملوا ذهولهم؛ ولن ترسلهم إلى مدرسة تولون ليكملوا تعليمهم الإجرامي: بل ستجففهم على دفعات، هذا لعشر سنوات، وذاك لأربعين، حسب خطورة جرائمهم. سيحل متجر بسيط محل السجون والمنازل المركزية والمستعمرة العقابية. ولن يكون هناك المزيد من الهاربين الذين يقلقهم الهروب، ولن يكون هناك المزيد من المساجين الذين يجب إطعامهم! وستعود كمية هائلة من الفاصوليا المجففة والبطاطس المتعفنة إلى البلاد للاستهلاك .

"هذه يا سيداتي، مجرد عينة صغيرة من الفوائد التي ظن الدكتور ميزر أنه ينشرها في جميع أنحاء أوروبا بتدشين التجفيف البشري. لقد قام بتجربته العظيمة في عام 1813 على عقيد فرنسي، وهو أسير كما قيل لي, وأدين كجاسوس من قبل

مجلس الحرب. ولسوء الحظ، لم ينجح؛ لأنني اشتريت الكولونيل وصندوقه بثمن حصان من أقذر متجر في برلين".

.40.

مقتطفات من رواية "البؤساء"[108]

فيكتور هيقو 1802ـ 1885

"جان فالجان" هو مدان سابق. يرحب به أسقف، فيسرق منه بعض الأشياء الفضية. لكن الشرطة تعتقله وتعيده إلى الأسقف الذي يدعي أنه أعطاه هذه الأشياء ولم يسرقها. وبمجرد أن تحرر "جان فالجان" مرة أخرى، استأنف رحلته... وغادر المدينة كما لو كان هاربًا. وبدأ يمشي على عجل عبر الحقول، سالكاً المسالك والدروب التي تظهر له. وظل يتجول هكذا طوال الصباح. كان فريسة لمجموعة من الأحاسيس الجديدة.

وفي وسط هذا التأمل سمع ضجيجاً مبهجاً. فأدار رأسه فرأى صبياً صغيراً من "سافويار" في نحو العاشرة من عمره قادماً في الطريق وهو يغني ولى جانبه قيثارته وعلى ظهره صندوق جرذ الأرض، أحد القوارض الذي يصاحبه، وبينما هو يغني كان الطفل يقطع سيره من حين إلى آخر ويلعب بالقروش التي في يده وهي على الأرجح ثروته كلها. ثم توقف فجأة دون أن يرى "جان فالجان" ونفخ حفنة القروش التي كان يتلقاها بمهارة تامة على ظهر يده.

وفي هذه المرة انزلقت عملة الأربعين سنتاً من قبضته وتدحرجت نحو الشجيرات حتى وصلت إلى "جان فالجان"، فوضع هذا الأخير قدمه عليها، ولكن الطفل كان قد تتبع عملته بعينيه، فلم يندهش ومشى إلى الرجل مباشرة

---

[108] Victor Hugo, les misérables.

- قال الطفل الصغير بثقة الطفولة التي تتكون من الجهل والبراءة:
- سيدي، قال الطفل مرة أخرى: يا سيدي، عملتي؟
- ويبدو أن جان فالجان لم يسمع. أمسكه الطفل من ياقة ثوبه وهزه. وفي الوقت نفسه حاول أن يزيح الحذاء الحديدي الكبير على كنزه.
- أريد عملتي! عملتي ذات الأربعين قرشًا! كان الطفل يبكي. ارتفع رأس "جان فالجان." كان لا يزال جالسًا. كانت عيناه غائمتين. ونظر إلى الطفل بنوع من الدهشة، ثم مد يده نحو عصاه وصاح بصوت رهيب:
- من هناك؟
- أجاب الطفل: - أنا يا سيدي! "جيرفيه" الصغير! أنا! أنا! أعد إليّ الأربعين سنتاً التي دفعتها من فضلك!
آه! إنه أنت مرة أخرى!" أجابه "جان فالجان"، وفجأة وقف منتصباً وقدمه لا تزال على العملة الفضية وأضاف: (هلا هربت من فضلك!) فنظر إليه الطفل المذعور ثم أخذ يرتجف من رأسه إلى قدميه، وبعد ثوان معدودة من الذهول بدأ يركض بكل قوته دون أن يجرؤ على أن يدير عنقه أو ينطق ببكاء. وبعد لحظات قليلة اختفى الطفل، وكانت الشمس قد غابت، وغابت الظلال حول "جان فالجان". لم يكن قد أكل طوال النهار، وربما كان مصاباً بالحمى، وفي تلك اللحظة رأى قطعة نقدية من فئة الأربعين سنتاً التي غاصت نصفها في الأرض والتي كانت تلمع بين الحصى. كان الأمر أشبه بارتجاج كهربائي ما هذا؟ قالها بين أسنانه، وبعد دقائق ركض متشنجاً نحو العملة الفضية وأمسكها ثم انتصب قائماً وبدأ ينظر بعيداً في السهل، ملقياً بعينيه نحو جميع نقاط الأفق في آن واحد، ثم صرخ بكل قوته:
- "جيرفيه" الصغير! وسكت وانتظر، ثم تمتم مرة أخرى: "جيرفيه" الصغير! ولكن بصوت ضعيف غير واضح تقريباً. وكان ذلك آخر جهده؛ وانثنى عرقوبه فجأة

تحته كما لو أن قوة خفية أثقلته فجأة بثقل ضميره المذنب: وسقط منهكاً على حجر كبير وقبضاته في شعره ووجهه في حجره، وصاح:

- أنا صعلوك!

.41.

لعبة البلياردو[109]

ألفونس دوداي 1840 ـ 1897

الجنود منهكون، بعد أن قضوا يومين في المعركة وقضوا الليل وظهورهم إلى الحائط تحت المطر الغزير. ومع ذلك فقد تُركوا لثلاث ساعات مميتة وهم مشهرون أسلحتهم في برك الطرقات الرئيسية في أوحال الحقول الموحلة.
يتجمعون معًا طلبًا للدفء والدعم، وقد أثقلهم التعب، وقضوا لياليهم في النوم، وملابسهم الرسمية مليئة بالماء. ينام البعض واقفين متكئين على كيس أحد الجيران، ويمكن رؤية التعب والحرمان بوضوح أكبر على هذه الوجوه المسترخية المهجورة في نومها. مطر، طين، لا نار، لا حساء، سماء منخفضة سوداء، والعدو في كل مكان. إنه كئيب ...
ماذا نفعل هنا؟ ما الذي يجري؟
بدت المدافع، وقد اتجهت فوهاتها نحو الغابة، وكأنها تراقب شيئًا ما. والمدافع الرشاشة في الكمين تحدق في الأفق. يبدو أن كل شيء جاهز للهجوم. لماذا لا نهاجم؟ ما الذي ننتظره؟
نحن ننتظر الأوامر، والمقر الرئيسي لا يرسلها .

---

109 Alphonse Daudet. Lettres de mon moulin.

غير أن المقر لم يكن بعيداً، في قصر لويس الثالث عشر الجميل، الذي يتلألأ قرميده الأحمر الذي غسلته الأمطار، في منتصف الطريق إلى أعلى التل بين الكتل الصخرية. مقر إقامة أميرية حقاً، يستحق أن يحمل راية مارشال فرنسا.

وخلف خندق كبير ومنحدر حجري يفصلهما عن الطريق، تمتد المروج على التوالي حتى الشرفة، سهلية وخضراء، تصطف على جانبيها مزهريات مزهرة. على الجانب الآخر، في الجانب الحميم من المنزل، تصنع الأسيجة فتحات مضيئة، وتنتشر البركة التي يسبح فيها البجع كالمرآة، وتحت سقف معبد قفص ضخم للطيور ترفرف بأجنحتها وتؤدي حركات عربة. وعلى الرغم من أن السادة السبعة عشر قد رحلوا، إلا أنه لا يوجد إحساس بالتخلي عنهم، عن ترك الحرب العظيم. لقد حافظت راية قائد الجيش حتى على أصغر الزهور في المروج، ومن المدهش أن تجد، على مقربة من ساحة المعركة، هذا الهدوء الفخم الذي يأتي من ترتيب الأشياء، والاصطفاف الصحيح لأحواض الزهور، والعمق الصامت للطرقات.

هناك، المطر الذي يعبئ الطرقات بمثل هذا الوحل القذر ويحفر أخاديد عميقة كهذه، أصبح الآن مجرد زخات أنيقة أرستقراطية تضيء حمرة الطوب وخضرة المروج، وتلميع أوراق أشجار البرتقال وريش البجع الأبيض. كل شيء يتلألأ، كل شيء هادئ. ولولا العلم الذي يرفرف على قمة السطح والجنديان اللذان يحرسان البوابة، لما ظننت أنك في مقر القيادة. تستريح الخيول في الإسطبلات. هنا وهناك تصادف هنا وهناك عمال فرشاة أو ممرضين في حالة من التجرد من الملابس يتجولون في المطابخ، أو بستاني يرتدي سروالاً أحمر اللون ويمشي بهدوء وهو ينظف مجرفته في رمال الساحات الكبيرة.

في غرفة الطعام، التي تطل نوافذها على الدرج، يمكنك أن ترى مائدة نصف مخدومة، وزجاجات غير مخدومة، وكؤوساً ملطخة وفارغة، وشحوباً على مفرش المائدة المجعد، ونهاية وجبة الطعام، والضيوف قد رحلوا. في الغرفة المجاورة، نسمع في الغرفة المجاورة أصوات وضحكات وقرقعة رخام وقرقعة كؤوس.

المارشال يلعب لعبته، ولهذا السبب ينتظر الجيش الأوامر. بمجرد أن يبدأ المارشال لعبته، يمكن أن تسقط السماء، ولكن لا شيء في العالم يمكن أن يمنعه من الانتهاء .

البلياردو

هذا هو ضعف رجل الحرب العظيم هذا .

ها هو ذا، جاداً كما لو كان في معركة، في كامل أناقته، وقد غطت صدره الرقع، وعيناه تلمعان، وخده يتوهج في صخب الوجبة واللعبة والطعام. وأحاط به مساعديه من كل جانب، متلهفين ومحترمين، وهم يتمايلون إعجاباً بكل حركة من حركاته .

وحينما كان المارشال يبدي وجهة نظر، كان الجميع يهرع إلى الهدف، وحينما كان المارشال عطشانًا، كان الجميع يريد أن يجهز له الشراب.

إنه حفيف 19 حفيفاً من الكتاف والرياش، وقرقعة الصلبان والقلنسوات، ورؤية كل هذه الابتسامات الجميلة، وهذه الانحناءات الجميلة لرجال البلاط، وهذا التطريز الكثير والزي الجديد، في هذه القاعة العالية ذات الألواح البلوطية، المفتوحة على الحدائق، وعلى ساحات الشرف، تذكرنا بخريف كومبيان، وتريحنا قليلاً من الكابوتات المتسخة التي تقبع هناك، على طول الطرقات، وتكوّن مثل هذه المجموعات المظلمة تحت المطر.

أما شريك المارشال فهو ضابط صغير الحجم، مفتول العضلات، مجعد الشعر، خفيف الشعر، خفيف القفازات، قائد أركان من الدرجة الأولى في لعبة البلياردو وقادر على التفوق على جميع المارشالات في العالم، لكنه يعرف كيف يحافظ على مسافة محترمة من رئيسه ويحرص على عدم الفوز أو الخسارة بسهولة. ...هذا ما نطلقه على ضابط له مستقبل ...

انتبه أيها الشاب، لنكن حذرين المارشال لديه خمسة عشر وأنت لديك عشرة. ستكون قد فعلت في سبيل ترقيتك أكثر مما لو كنت في الخارج مع الآخرين، تحت تلك السيول العشرين التي تغرق الأفق، تلطخ زيك الأنيق، وتشوه ذهب قبعاتك المرقطة، وتنتظر أوامر لا تأتيك.

إنها لعبة مثيرة للاهتمام حقاً. الكرات تركض وتتصادم مع بعضها البعض وتتقاطع الألوان .

الوسائد تبدو جيدة، والسجادة تسخن ...

وفجأة، تومض شعلة طلقة مدفع في السماء. صوت ارتطام يهز النوافذ. يرتجف الجميع وينظرون إلى بعضهم البعض بقلق. وحده المارشال لم يرَ ولم يسمع شيئًا: كان متكئًا على طاولة البلياردو وهو في طور صنع تأثير ارتدادي رائع؛ فالتأثيرات الارتدادية هي موطن قوته!

ولكن كان هناك وميض آخر، ثم آخر. طلقة مدفع تلو الأخرى. ركض مساعدو المعسكر إلى النوافذ. هل سيهاجم البروسيون؟

...حسناً، دعهم يهاجمون!" قال المارشال وهو يرتدي بعض البياض الأمر عائد إليك يا كابتن

ارتجف الموظفون بإعجاب. لم يكن تورين وهو نائم في المراقبة شيئاً بالمقارنة مع هذا المارشال، هادئاً جداً أمام طاولة البلياردو في لحظة الهجوم... في هذه الأثناء، ازداد الضجيج واختلط اهتزاز المدافع مع دوي المدافع الرشاشة ودوي نيران الفصائل. ارتفع ضباب أحمر، أسود حول الأطراف، في نهاية المروج. كانت الحديقة بأكملها مشتعلة. صاحت الطواويس وطيور الدراج المذعورة في القفص؛ وانتفضت الخيول العربية التي كانت تشم رائحة البارود في الإسطبلات. بدأ المقر الرئيسي في التحرك. إرسالية تلو الأخرى. السعاة يصلون بسرعة فائقة. يسألون عن المارشال.

المارشال لا يمكن تحمل تكاليفه. قلت لك لا شيء يمكن أن يمنعه من إكمال لعبته .

»دورك يا كابتن

لكن الكابتن لديه مشتتات !يا له من شيء أن تكون شاباً لقد فقد صوابه ونسي لعبته وقام بمسلسلين متتاليين سريعين كاد أن يفوز بالمباراة .

هذه المرة استشاط المارشال غضباً. كانت الدهشة والسخط واضحين على وجهه

عندها فقط، سقط حصان ملقى على بطنه في الفناء.

قام أحد مساعدي المعسكر المغطى بـ 22 طينًا بإجباره على تنفيذ الأمر، وقفز على الدرج: "مارشال! مارشال! يجب أن ترى كيف تم استقباله... ظهر المارشال منتفخًا من الغضب وأحمر كالديك، ظهر المارشال عند النافذة، وعصا البلياردو في يده: "ما الأمر؟ ما الأمر؟ لكن، أيها المارشال ...

-لا بأس، لا بأس. في وقت لاحق... انتظر أوامري،

وأغلقت النافذة

انتظروا أوامره!

هذا ما يفعلونه، المساكين. تعصف الرياح بالمطر ونيران الرشاشات في وجوههم. كتائب بأكملها تُسحق، بينما تبقى كتائب أخرى بلا فائدة، وأذرعهم في أيديهم غير قادرين على إدراك تقاعسهم. لا يمكن فعل شيء. نحن في انتظار الأوامر... على سبيل المثال، بما أنك لا تحتاج إلى أوامر لكي تموت، فقد سقط مئات الرجال خلف الشجيرات، في الخنادق، أمام القلعة الصامتة العظيمة.

وحتى بعد سقوطهم، كانت نيران رشاشات لا تزال تمزقهم إرباً إرباً، ومن خلال جراحهم المفتوحة كانت الدماء الفرنسية السخية تتدفق دون صوت... في الطابق العلوي، في غرفة البلياردو، كانت الأمور تشتعل بشكل رهيب: كان المارشال قد استأنف تقدمه، لكن القائد الصغير كان يدافع عن نفسه كالأسد ...

سبعة عشر! ثمانية عشر! تسعة عشر !
بالكاد كان هناك وقت كافٍ للحفاظ على النتيجة .
كان صوت المعركة يقترب. المارشال يلعب لواحد فقط قذائف تصل بالفعل إلى الحديقة. واحدة تنفجر فوق البركة. تخدش المرآة، وتسبح بجعة خائفة في دوامة من الريش الدامي. إنها الطلقة الأخيرة...
الآن، صمت عظيم. لا شيء سوى المطر المتساقط على الأسيجة، وتدحرج مرتبك في أسفل التل، وعلى طول الممرات الموحلة شيء يشبه دوس القطيع المسرع... كان الجيش هارباً كان المارشال قد فاز بلعبته.

.42.

المرآة في الشمال[110]

ألفونس دوداي 1840ـ 1897

على ضفاف نهر "النيمان"، وصلت فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها، بيضاء ووردية كزهر اللوز. لقد جاءت من أرض الطيور الطنانة، وجلبتها ريح الحب إلى هنا... اعتاد أهل جزيرتها أن يقولوا لها: "لا تذهبي، فالجوّ بارد في البر هناك... سيقتلك الشتاء. لكن الفتاة "الكريولية" الصغيرة لم تكن تؤمن بالشتاء، ولم تكن تعرف عن البرد إلا لما تتناول الشربات؛ ثم إنها كانت مغرمة ولم تكن تخشى الموت... و ها هي ذا تهبط هناك في ضباب "النيمان"، مع مراوحها وأرجوحة شبكية وناموسيتها وقفص ذهبي شبكي مليء بطيور وطنها.

ولما رأى الأب "نورد" العجوز هذه الزهرة القادمة من الجزر التي كان الجنوب يرسلها إليه في شعاع، تحرك قلبه شفقة؛ ولما ظن أن البرد لن يصنع إلا لقمة من الفتاة الصغيرة وطنانها، سارع فأشعل شمساً صفراء كبيرة وارتدى ثياب الصيف لاستقبالها ... وأخطأت الفتاة؛ فقد ظنت أن حرارة الشمال القاسية الثقيلة حرارة الأمد، وأن هذه الخضرة السوداء الأبدية خضرة الربيع، وعلقت أرجوحة شبكتها في أسفل الحديقة بين شجرتي تنوب، وظلت طوال النهار تتدفأ وتتمايل.

تضحك قائلة: "لكن الجو حار جداً في الشمال". لكن شيئاً ما كان يقلقها .

110 Alphonse Daudet. Conte du lundi.

لماذا لا تحتوي المنازل في هذا البلد الغريب على شرفات؟ لماذا هذه الجدران السميكة، وهذا السجاد، وهذه المعلقات الثقيلة؟ تلك المواقد الفخارية الكبيرة، وتلك الأكوام العظيمة من الخشب المكدسة في الأفنية، وتلك الجلود الزرقاء المصنوعة من جلد الثعلب، وتلك المعاطف المبطنة، وتلك الفراء النائمة في مؤخرة الخزائن؛ ما فائدة كل هذا؟ فتاة مسكينة، إنها على وشك أن تكتشف ذلك .
ذات صباح، عندما استيقظت، شعرت الفتاة الصغيرة ببرد شديد. وكانت الشمس قد اختفت، وتساقطت من السماء السوداء المنخفضة التي بدت في الليل وكأنها اقتربت من الأرض في رقائق بيضاء صَامِتَةٌ كَمَا تَحْتَ أَشْجَارِ الْقُطْنِ ... ها قد أتى الشتاء! ها قد أتى الشتاء! الرياح تصفر، والمواقد تشخر. لم تعد الطيور الطنانة تغرد في قفصها الشبكي الذهبي الكبير. تظل أجنحتها الصغيرة الزرقاء والوردية والياقوتية والخضراء والبحرية الخضراء بلا حراك، ومن المؤسف أن نراها متجمعة معًا، متخدرة، منتفخة من البرد، بمناقيرها الرفيعة وعيونها ذات الرؤوس الصغيرة. هناك، في الطرف البعيد من الحديقة، ترتجف الأرجوحة الشبكية من الصقيع، وأغصان أشجار التنوب مصنوعة من الزجاج المغزول... الفتاة الصغيرة تشعر بالبرد ولا تريد الخروج بعد الآن.

وهي ملتفة حول النار كطائر من طيورها، تقضي وقتها في التحديق في اللهب وتشمس نفسها بذكرياتها .

وفي الموقد الكبير الساطع المشتعل، تستعيد ذكرياتها في بلادها كلها: الأرصفة الواسعة المشمسة التي تتساقط عليها أشعة الشمس وقصب السكر الأسمر الذي يتساقط، وحبوب الذرة التي تطفو في غبار ذهبي، ثم القيلولة بعد الظهر، والستائر ذات الألوان الفاتحة، وحصائر القش، ثم الأمسيات المضاءة بالنجوم، والذباب الملتهب، وملايين الأجنحة الصغيرة التي تطن بين الزهور وفي شبكة الناموسيات .

وبينما كانت تحلم أمام اللهب، كانت أيام الشتاء تقصر وتصبح أكثر قتامة. وفي كل صباح، كان يتم جمع طائر طنان نافق من القفص؛ وسرعان ما لم يتبق سوى اثنين فقط، رقاقتان من الريش الأخضر تتناثران معاً في زاوية ...

في ذلك الصباح، لم تستطع الفتاة الصغيرة النهوض من الفراش. مثل الأرجوحة التي علقت في الشمال المتجمد، احتضنها البرد وشل حركتها. كان الظلام دامسًا والغرفة حزينة. وقد أسدل الصقيع ستارة سميكة من الحرير الباهت على النوافذ. كانت المدينة تبدو ميتة، وفي الشوارع الصامتة كان صوت محراث الثلج البخاري يصدر صفيراً مثيراً للشفقة... وفي الفراش، ولكي تلهي الفتاة الكريولية نفسها، تضيء مروحتها بالترترة وتقضي وقتها في التحديق في مرايا بلادها المزركشة بالريش الهندي الكبير. أيام الشتاء تتوالى أقصر من أي وقت مضى، وأكثر ظلمة من أي وقت مضى،. في ستائرها الدانتيل، تتوجع الفتاة الكريولية الصغيرة وتنتحب. أكثر ما يحزنها هو أنها لا تستطيع رؤية النار من سريرها. يبدو لها أنها فقدت وطنها للمرة الثانية... من وقت لآخر تسأل: "هل هناك نار في غرفة النوم؟ - نعم، أيتها الصغيرة، هناك المدفأة مشتعلة. هل تسمعين صوت فوران الحطب وانفجار أكواز الصنوبر؟

"دعنا نرى، دعنا نرى". لكنها مهما انحنت، كانت الشعلة بعيدة جدًا؛ لم تستطع أن تراها وهذا ما جعلها تشعر باليأس. وذات مساء، وبينما كانت مستلقية هناك شاحبة متأملة، ورأسها على حافة الوسادة وعيناها لا تزالان متجهتين نحو اللهب غير المرئي، جاءها صديقها وأخذ إحدى المرايا من السرير. حسناً، انتظري لحظة..." وركع أمام الموقد، وحاول أن يرسل إليها بمرآته انعكاس اللهب السحري: "هل تستطيعين رؤيته؟ - لا! لا أستطيع رؤية شيء. – والآن؟ - لا، ليس بعد. ثم، وفجأة، عندما سطع في وجهها نفاثة من الضوء وغمرها: أوه، أستطيع أن أراه! وماتت وهي تضحك، وفي عينيها شعلتان صغيرتان من اللهب .

.43.

عذراء ثيلوز[111]

بلزاك 1799 ـ 1850

كان "اللورد فالنس"، و"فالنس" مكان لطيف لا تبعد قلعته عن بلدة "ثيلوز"، قد اتخذ زوجة ضعيفة غير راضية عن زوجها، لأسباب تتعلق بالذوق أو الاشمئزاز، بالسرور أو السخط، بالمرض أو الصحة، فسمحت لزوجها الطيب بالتمتع بالمتعة المنصوص عليها في كل عقود الزواج. ولكي نكون منصفين لا بد من القول بأن السيد المذكور كان مزارعاً مرتباً وقذراً جداً، ودائماً يصطاد الحيوانات البرية، وليس أكثر تسلية من الدخان في القاعات. ثمَّ إن الصَّيَّاد الْمَذْكُور كَانَ قد نَيف على السِّتين من عمره بِحَسب ظَاهر الْحساب، وَقد لَا يَتَكَلَّمْ بِكَلِمَةٍ قَطُّ، كَمَا تَتَكَلَّمُ أَرْمَلَةُ الْمَشْنُوقِ فِي الْأَوْتَارِ. ولكن الطبيعة التي تعذبها تجعلها متذبذبة وعمياء وقبيحة وتزينها في المعالي في الأسفل، دون أن يكون لها من التقدير أكثر مما للجميل منها، لأنها مثل عمال النسيج لا تعرف ما تفعل، تعطي نفس الشهية للجميع، ونفس الذوق للطعام الجيد. وهكذا، بالصدفة، كل دابة هي حصان؛ ومن هنا جاء المثل: "ما من إناءٍ قبيحٍ إلا وله غطاء". ولذلك كان سيد فالنس يبحث أحياناً في كل مكان عن قدور صغيرة ليغطيها، وكثيراً ما كان يركض الوحش الصغير، بالإضافة إلى الظبي؛ ولكن الأرض كانت محرومة من هذه الطرائد ذات الثياب الرفيعة؛ وكان البرغوث من الصعب جداً إنزاله. على أنه قد بلغ إلى علم سيور دي فاليسنيس عن

[111] /fr.wikisource.org/wiki/Les_Contes_drolatiques/I/La_Pucelle_de_Thilhouze

Honoré de Balzac

طريق التقصي والاستفسار أن في ثيلوز أرملة حائك كانت لها ثريزور حقيقية في شخص فتاة صغيرة في السادسة عشرة من عمرها لم تتركها قط، وكانت هي نفسها تقودها إلى الماء من فرط فطنة الأمومة; ثم كانت تضعها في فراشها وتعتني بها وتحرسها وتوقظها في الصباح وتتركها لتقوم بعملها بحيث يكسبان معاً ثمانية صول في اليوم؛ كانت تراقبها في الكنيسة وتمنحها حق الرعي مع الصبية الصغار: و في الأعياد، كانت لا تتردد في أن ترعى مع الأولاد الصغار لكن تلك كانت تلك الأوقات, كانت حال الأرملة وابنتها من الشظف بحيث لم يكن عندهما من الخبز إلا ما يكفيهما لئلا يجوعا؛ ولما كانتا تعيشان مع أحد أقاربهما الفقيرين، فكثيراً ما كان ينفد الحطب في الشتاء والثياب في الصيف؛ وكانتا مدينتين بإيجارات تخيف رقيب البلاط الذي لا تخيفه ديون غيره بسهولة. وموجز القول أنه إذا كانت البنت قد ازدادت جمالاً فإن الأرملة قد ازدادت بؤساً وحزناً على ما أصابها من الشقاء والحزن كما يحزن الكليم على بوتقته التي يذيب فيها كل شيء. ولما اكتملت استفساراته، في يوم ممطر، دخل المولى دي فاليسنس المذكور، مصادفة، إلى كوخ الغزالين، ولكي يكون في مأمن، أرسل إلى بليسيس المجاورة ليحضر الحطب. ثم، بينما كان ينتظر، جلس على سلم بين المرأتين المسكينتين. ورأى من خلال أقمشة الكوخ الرمادية ونصف الحمراء التي كانت تكسو الكوخ، وجه بوكيل دي ثيلوز الصغير الجميل، وذراعيها الحمراوين الجميلتين المتماسكين، ومقدمها الصلب كالحصون التي تحمي قلبها من البرد، وخصرها المستدير كالبلوط الصغير، وكلها نضرة ونظيفة وأنيقة كأول الصقيع، وخضراء وطرية كبراعم أبريل؛ وباختصار، كانت تبدو مثل كل ما هو جميل في العالم. وكانت عيناها زرقاوين متواضعتين ووجهها أجمل من وجه العذراء، لأنها كانت أقل تقدماً في السن، إذ لم تنجب أطفالاً. وكان أحدهم يقول لها: (هل تريدين أن تذهبي في مغامرة؟) فتجيبه: (أين!) فتبدو لطيفة جداً وغير متفتحة لفهم الموقف. فتلوى السيد العجوز الطيب على مقعده ونظر إلى الفتاة وفك طوقه كالقرد الذي يحاول أن يصطاد

بعض الجوز. ورأت الأم ذلك ولم تقل شيئاً، من أجل اللورد الذي كان البلد كله له وحده. ولما وضعت الحزمة على النار واشتعلت، قال الصياد الطيب للعجوز: إن الحزمة قد وضعت على النار واشتعلت:

-آه! آه! آه! إنها تدفئ بقدر ما تدفئ عيني ابنتك.

-قَالَتْ: يَا سَيِّدِي، إِنَّنَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْعَلَ شَيْئًا بِهَذِهِ النَّارِ...

-فأجابها: نعم.

- وكيف يمكننا ذلك؟

-آه يا سيدتي، أعيري ثيابك لزوجتي التي تحتاج إلى خادمة؛ وسندفع لك رزمتين كل يوم.

-ها! يا سيدي، وماذا أريد مع هذه النار الثلجية الجيدة؟

-فأجاب صاحب الدكان العجوز: "حسناً، حسناً، عصيدة جيدة، لأني سأعطيك كل موسم حبة من القمح.

-فأجابته العجوز: "وأين أضعها إذن"، فأجاب العجوز: "أين أضعها؟

-في مطبخك"، صرخ مشتري الفراخ.

-ولكن ليس لدي حظيرة أو صندوق أو أي شيء.

-حسناً، سأعطيك المغاسل والصناديق والمواقد، والمشتريات، وحظيرة جيدة مع منحدرها، وكل شيء.

-قالت الأرملة الطيبة: "فيري": "المطر سيفسدها، ليس لدي منزل.

- أجابها اللورد: "ألا ترين من هنا"، "ألا ترين من هنا المسكن في توربلبير، حيث يعيش مشرفي بيليغرين الذي كان يشرف على نقر الخنزير البري؟

-نعم"، قالت السيدة العجوز.

-حسناً، ستظل عالقاً هناك لبقية أيامك.

-يا إلهي!" صاحت الأم، وأسقطت كوينويلها، "هل تقولين الحقيقة؟

-نعم، أنا أقولها

-وما الإيجار الذي ستعطيه لابنتي؟
-قال اللورد: "كل ما يمكن أن تكسبه في خدمتي."
-يا مولاي، أتريد أن تثرثر!
-قال: "لا."
-قالت: "نعم."
- أقسم بالقديس جاتيان والقديس إلياذروس وألف مليون قديس يحتشدون هناك، أقسم- وتابعت الأم الطيبة: "حسناً، إذا لم تكن تمزح"، أود أن تكون هذه الحزم، قليلاً، قد مررت أمام كاتب العدل:
-بِدَمِ الْمَسِيحِ وَدَمِ ابْنَتِكِ اللَّطِيفَةِ، أَلَسْتُ رَجُلاً شَرِيفًا؟ كلمتي جيدة.
-حسناً، أنا لا أقول لا يا مولاي؛ ولكن، على الرغم من أنني فقيرة فإنني أحب ابنتي حباً جماً لا أستطيع أن أتركها. إنها صغيرة جداً ولا تزال ضعيفة جداً، وستنهار في الخدمة. بالأمس، في عيد الفصح، قال الكاهن إن الله سيحاسبنا عن أولادنا.
-لا! لا! لا! قال الرب، اذهب وأحضر كاتب العدل.
فهرع الجزار العجوز إلى كاتب العدل، الذي جاء وصاغ عقداً وضع عليه المولى دي فاليسنيس صليبه، وهو لا يعرف الكتابة: ثم لما ختم كل شيء وقع:
- قال: حسناً، يا أمي، أ لا تزالين مسؤولة أمام الله عن عذرية ابنتك؟
-آه يا مولاي، لقد قال الكاهن: (حتى تبلغ سن الرشد)، وابنتي عاقلة تماماً.
ثم التفتت إليها العجوز قائلة: (يا ماري فيكيت، إن أكثر ما يزعجك هو الشرف، وأينما ذهبتِ سيجعل لكِ شخص واحد لا أحصي عدده يا مولاي؛ ولكنك تعرفين كل ما يترتب عليه! ... لذلك لا تستخدمه إلا بحكمة وكما ينبغي لك حتى لا تلوثي عفتك أمام الله والإنسان (ما لم تكن هناك أسباب مشروعة)، فاحرصي كل الحرص على أن تكوني قد رششتِ قضية زواجك قليلاً وإلا ستخطئين.
-نعم يا أمي"، قالت العذراء.

وهناك تركت مسكن قريبها الفقير وجاءت إلى قلعة فالنس لتخدم السيدة التي عاملتها بلطف شديد، وعلى النحو الذي يروق لها.
ولما علم أهل فالنس وساشيه وفيلينس وغيرها من الأماكن بارتفاع ثمن عذراء ثيلوزة، شرعت نساء المسناج الطيبات في تربية بناتهن العذارى وإطعامهن؛ إذ أدركن أنه لا شيء أثبت من الفضيلة; ولكن هذه التجارة كانت تجارة محظوظة كتجارة تربية دود القز الذي يسرع إليه الموت، إذ أن الفراخ كالدجاج تموت بسرعة على القش. ومع ذلك فقد كان في تورين بعض فتيات لهذا السبب مذكورات في تورين وقد مررن في جميع أديرة الرهبان على أنهن عذارى لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال لعدم تحققي منهن على الطريقة التي علمها فيرفيل للتعرف على كمال فضيلة الفتيات. وفي النهاية اتبعت ماري فيكيه نصيحة أمها الحكيمة، ولم تكن لتستمع إلى أي من طلبات سيدها المؤلمة وكلماته الذهبية ومغازلاته دون أن تكون مبللة قليلاً للزواج.
ولما تظاهر المولى العجوز بأنه يريد أن يتزوجها هربت كالقطة عند موافقة كلب وهي تصيح: (سأخبر السيدة). باختصار، بعد انقضاء ستة أشهر، لم يكن المولى قد استرد ثمن حزمة واحدة. ورداً على كل طلباته، كانت فيكيه التي كانت دائماً أكثر حزماً وصلابة، أجابت مرة على طلب مولاها الكريم: (متى أعطيتني إياها فهل ستردها إليّ؟ ثم قالت تارة أخرى: (عندما يكون عندي من المشاكل ما عند المناخل، فلن يبقى لك مشكلة واحدة على قبح ما أصنع بك!
هذا الرجل العجوز الطيب الذي أخذ هذا الفخر من مكانته في زهور الفضيلة، ولم يتردد في أن يقوم بإشارات صغيرة وخطب طويلة ومئات الآلاف من الأيمان; ذلك لأنه، بحكم رؤيته لقدمي هذه الفتاة الضخمتين الجميلتين، وفخذيها الممتلئتين اللتين تتشكلان في بعض حركاتها، وبحكم إعجابه بمشاهدتها في بعض الحركات في معاطفها، وبحكم إعجابه بمشاهدته لمفاتن أخرى قادرة على تشويش عقل قديس, فوقع هذا الشيخ الطيب في حبها بعاطفة الشيخوخة التي تزداد بنسب

هندسية على عكس عواطف الشباب، لأن الشيوخ يحبون مع ضعفهم المتزايد، والشباب مع تناقص قوتهم. ولكي لا يعطي هذه الفتاة الصاخبة أي سبب للرفض، تحدى اللورد أحد سقّائيه وقد جاوز السبعين من عمره ببضع سنين، وأفهمه أن عليه أن يتزوج ليدفئ جلده، وأن ماري فيكيت ستكون خير قرين له.
وأراد الساقي العجوز، الذي كان يكسب ثلاثمائة ليفر تورنيو من مختلف الخدمات في البيت، أن يعيش في هدوء دون أن يفتح الأبواب الأمامية مرة أخرى؛ ولكن اللورد الطيب، بعد أن طلب إليه أن يتزوج قليلاً إرضاء له، أكد له أنه لن يكون له حاجة إلى زوجته. فَأَجَابَهُ السَّاقِي الْعَجُوزُ إِلَى هَذَا الزَّوَاجِ مُلْتَزِمًا. وفي يوم الخطبة كانت ماري فيكيه متبرئة من كل أسبابها، وعاجزة عن تقديم أي شكوى إلى خاطبها، وقد منحها مهراً كبيراً ومهرها ثمن افتضاض بكارتها؛ ثم أذن للساقي العجوز أن يأتيها ويبيت معها ما استطاع، ووعده بعدد من الضربات الطيبة بقدر حبات القمح التي أعطاها لأمه؛ ولكن، في مثل سنها، كان يكفيها كيلة واحدة. ولما انتهى العرس لم يلبث اللورد بمجرد أن لبست زوجته ثياب الكتان أن هرع إلى الغرفة المزججة والمفروشة والمنجدة حيث كان قد أسكن فرخه وأجره وحزمه وبيته وقمحه، ونادل نبيذه. ونعلم باختصار أنه كان قد رسم أجمل فتاة في العالم، وهي دوقة ثيلوز، أجمل ما يكون، على ضوء النار الخافتة التي كانت تتأجج في الموقد، صاخبة بين الملاءات، تبحث عن كاستيلات، وتشم رائحة طيبة من البوسيليج، ولا يأسف على الثمن الباهظ الذي دفعه في هذا البيو. ثم لم يستطع اللورد أن يقاوم تناول اللقمة الأولى من هذه اللقمة الملكية اللذيذة، فوضع اللورد على عاتقه مهمة تذوق هذه الهيئة الشابة كسيد سابق. وهكذا ها هو ذا، ذلك المبارك الذي من فرط الشراهة يهيم على وجهه ويزل، وفي النهاية لا يعرف شيئًا آخر من أعمال الحب. فلما رأت ذلك بعد لحظة، قالت الفتاة الطيبة في براءة لفارسها العجوز: (يا مولاي، إذا كنت هناك، كما أظنك، فأرجوك أن تهب أجراسك قليلاً من الريح.)

وقد اشتهرت ماري فيكيه بهذه البراعة التي ذاع صيتها في النهاية، ولا أدري كيف، ولا يزال الناس يقولون في بلادنا: (إنها دوقة ثيلوز!) سخرية من العروس، ودلالة على الفريكوينيل.

ويقال للفتاة التي لا تود أن تفرش في ملاءتها في أول ليلة من ليالي ولادتها، إلا إذا كانت قد تغذت بفلسفة البورتريك، حيث لا سوء ظن. وقد اضطر كثير من الناس إلى أن يكونوا من الرواقيين في هذا التقليد الدرولي الذي لا يزال شائعاً إلى حد بعيد، لأن الطبيعة تتحول ولا تتغير، وستظل هناك دائماً عذارى ثيلوز صالحات في تورين وغيرها. ولو سألتموني الآن عن أخلاقية هذه الحكاية وأين تنبثق من هذه الحكاية لكان من حقي أن أجيب السيدات: إن (سنت كونتيس درولاتيك) قد وضعت لتعليم أخلاق اللذة أكثر مما هي معدة لتعليم لذة الوعظ.

ولكن، لو كان الذي يكلمني عجوزاً عجوزاً عاقلاً عاقلاً لقلت له بما يجب أن يكون عليه من الكرم في شعره المستعار الأصفر أو الرمادي: إن الله أراد أن يعاقب سيد فالنس على محاولته شراء رقصة تهدى.

.44

"موبرات"[112]

جورج صاند 1837

على حدود "دي لا مارش" و "دي بيرّي"، في البلاد المعروفة باسم "لا فارين"، وهي ليست سوى مستنقع شاسع تقطعه غابات البلوط والكستناء، ستجد في أكثر أجزاء المنطقة كثافة وهجراً قلعة صغيرة مهدمة، كامنة في واد، ولا يمكن رؤية أبراجها المتكسرة إلا على بعد مائة خطوة أو نحو ذلك من المشبك الرئيسي. إن الأشجار العتيقة التي تحيط بها والصخور المتناثرة التي تهيمن عليها تدفنها في ظلام دائم، وفي أحسن الأحوال يمكن في الظهيرة عبور الطريق المهجور الذي يؤدي إليها دون أن تصطدم بالجذوع المعقوفة والركام الذي يعيقها في كل خطوة. هذا الوادي المظلم والقلعة الحزينة هي "لاروش موبرات".

منذ وقت ليس ببعيد، قام آخر آل "موبرات" الذي ورث هذه الضيعة بإزالة السقف وبيع جميع الأخشاب؛ ثم، كما لو أنه أراد أن ينسف ذكرى أسلافه، أمر بهدم البوابة ونزع البرج الشمالي من أعلاه إلى أسفله، وشق الجدار المحيط به، وغادر مع عماله نافضاً الغبار عن قدميه تاركاً ضيعته للثعالب والأفاعي. ومنذ ذلك الحين، عندما يمر الحطابون وحرّاقو الفحم الذين يعيشون في الأكواخ المتناثرة في الجوار نهاراً من أعلى وادي "روش موبرات" يصفرون بغطرسة أو بابتسامة خافتة في وجه جيرانهم.

[112] George Sand. MAUPRAT 1837

في هذه الأطلال بعض اللعنات النشطة؛ ولكن عندما يحل ضوء النهار ويبدأ العصفور في العواء من أعلى الثغرات، يمر الحطابون وحاملي الفحم في صمت، ويسرعون في سيرهم ويرسمون من وقت لآخر علامة الصليب لدرء الأرواح الشريرة التي تسود هذه الأطلال.

إنني أعترف بأنني شخصياً لم أمر قط بهذا الوادي ليلاً دون أن أشعر بشيء من الاضطراب؛ ولن أجرؤ على أن أقسم بأنني في بعض الليالي العاصفة لم أجعل حصاني يتحسس المهماز ليتخلص من الانطباع غير السار الذي يسببه هذا الجوار بسرعة أكبر، ذلك لأنني، في واقع الأمر، لم أذهب إلى هذا الوادي من قبل. عندما كنت طفلاً كنت أضع اسم "موبرات" بين اسمي "كارتوش" و "لا باربو بلو"، وكثيراً ما كنت أخلط في أحلامي المخيفة بين الأساطير القديمة عن الغول والبعبع وبين الأحداث الحديثة جداً التي أعطت صورة شريرة في مقاطعتنا لعائلة "موبرات".
وكثيراً ما كنت أسمع أنا ورفاقي أثناء الصيد، عندما كنا نغادر المخبأ لنذهب للتدفئة عند كومة الفحم المضاء التي يسهر عليها العمال طوال الليل، كنت أسمع هذا الاسم القاتل يتنفس على شفاههم ونحن نقترب. لكن وبعد أن تعرفوا علينا وتأكدوا من أن شبح هؤلاء الأشقياء لم يكن مختبئاً بيننا، قصوا علينا، بنصف صوت، قصصاً تجعل الشعر يقف ويقشعر لها البدن، وسأمتنع عن سردها لكم، آسفاً على ما أفسدته وأوجعت ذاكرتي. ليس الأمر أن القصة التي سأرويها لكم هي على وجه التحديد قصة ممتعة ومسلية. بل على العكس من ذلك، أستسمحك عذراً على إرسال مثل هذه القصة السوداء إليك اليوم؛ ولكن في الانطباع الذي تركته في نفسي شيئاً من العزاء، وإذا جاز لي أن أقول ذلك، فهو شيء صحي للروح، وأرجو أن تعذرني على الاستنتاجات التي توصلت إليها. وفضلاً عن ذلك، فإن هذه القصة قد رويت لي للتو؛ وأنت تطلبين واحدة: إن الفرصة أفضل من أن تكون كسلي أو عقمي.

وفي الأسبوع الماضي قابلت أخيراً "برنار موبرات"، آخر أفراد العائلة، الذي أراد بهدم منزل الضيعة الذي كان يسكنه أن يزيل الرعب الذي سببته له ذكريات طفولته بعد أن طلق أقاربه سيئي السمعة منذ زمن طويل. وبرنار هذا هو أحد أكثر الرجال المحترمين في البلاد.

وجدت نفسي بالقرب من منزله مع صديق لي يعرفه. ووجدت نفسي بالقرب من منزله مع صديق لي يعرفه، فأعربت له عن رغبتي في رؤيته؛ فوعدني صديقي بأن يرحب بي ترحيباً حاراً، وأخذني إليه على الفور. كنت أعرف الخطوط العامة لقصة هذا الرجل العجوز الرائعة؛ ولكني كنت دائماً شديد الرغبة في معرفة التفاصيل، وخاصة في سماعها منه. كان هذا القدر الغريب مشكلة فلسفية كاملة بالنسبة لي لأحلها. ولذلك فقد كنت أراقب ملامحه وأخلاقه وداخله باهتمام خاص، ف"برنار موبرات" لا يقل عمره عن ثمانين سنة، وإن كانت صحته القوية وقوامه المعتدل ومشيته المتينة وخلوه من أي عاهة توحي بأنه أصغر من ذلك بخمسة عشر أو عشرين عاماً. وكان يمكن أن يبدو وجهه في غاية الوسامة لولا تعابير الصلابة التي جعلت ظلال آبائه تمر أمام عيني على الرغم من نفسي. أخشى كثيراً أنه يشبههم جسدياً. هذا ما كان يمكن أن يخبرنا به هو وحده، إذ لم نكن أنا وصديقي نعرف أحداً من آل "موبرات"؛ ولكن هذا ما حرصنا على ألا نسأله عنه. وبدا لنا أن خدمه كانوا يخدمونه بسرعة خرافية ودقة في المواعيد بالنسبة لخدم "بيري". ومع ذلك فقد كان عند أدنى مظهر من مظاهر التأخير يرفع صوته، ويقطب حاجباً كان لا يزال شديد السواد تحت شعره الأبيض، ويتمتم بكلمات قليلة من نفاذ الصبر تبعث على الضجر. كدتُ أُصدم في البداية؛ فقد ظننتُ أن أسلوبه كان ينم عن الكثير من الموبقات. ولكن الطريقة اللطيفة الأبوية تقريباً التي خاطبهم بها بعد لحظات، وحماستهم التي بدت لي مختلفة تماماً عن الخوف، سرعان ما صالحتني معه. . وكان، علاوة على ذلك، مهذباً إلى أبعد الحدود معنا، وكان يعبّر عن نفسه

بأجمل العبارات. ولسوء الحظ، في نهاية العشاء، تسبب الباب الذي أهملنا إغلاقه، والذي جلبت رياحاً باردة على جمجمة العجوز، في أن يشتم بشكل فظيع لدرجة أنني وصديقي تبادلنا نظرة الدهشة. لقد لاحظ ذلك. قال: (اعذروني أيها السادة؛ إني أرى أنكم ترونني غير متكافئ بعض الشيء؛ إنكم لا ترون إلا القليل، فأنا غصن قديم انفصل بسعادة من عرش خبيث وزرع في تربة طيبة، ولكنه لا يزال مع ذلك معقوفاً وخشناً كالشجرة المقدسة البرية في مكانها، ولا يزال في نفسي الكثير من العناء قبل أن أصل إلى حالة من اللطف والوداعة. الهدوء الذي تجدونني فيه. وإنني لو كنت أجرؤ على ذلك لعتبت على العناية الإلهية عتاباً واحداً عظيماً، وهو أن أجعل حياتي قصيرة مثل حياة سائر البشر. فعندما يستغرق المرء أربعين أو خمسين سنة ليتحول من ذئب إلى إنسان، فعليه أن يعيش مائة سنة بعد ذلك ليستمتع بانتصاره. ولكن ما فائدة ذلك بالنسبة لي." وأضاف بلكنة من الحزن. الجنية التي حولتني لم تعد هنا لتستمتع بعملها. حسناً، لقد حان الوقت لننتهي من ذلك! ثم التفت إليَّ، ونظر إليَّ بعينيه السوداوين الكبيرتين المتحركتين بشكل غريب: قال: "تعال أيها الشاب، أنا أعرف سبب وجودك هنا: أنت فضولي لمعرفة قصتي. تعال واجلس بجانب النار واسترح، لن أستخدمك كخشبة. لن تسعدني أكثر من أن تستمع إليّ. غير أن صديقك سيقول لك إنني لا أتحدث عن نفسي بسهولة، فأنا كثيراً ما أخشى التعامل مع الحمقى؛ ولكني سمعت عنك وأعرف شخصيتك ومهنك: أنت ملاحظ وراوٍ، أي معذرة أيها الفضولي الثرثار. وبدأ يضحك، وحاولت أنا أيضاً أن أضحك، على الرغم من أنني بدأت أخشى أن يكون يسخر منا؛ وعلى الرغم من نفسي فكرت في الحيل القذرة التي كان جده يلعبها على المتفرجين الغافلين الذين كانوا يذهبون لرؤيته. ولكنه وضع ذراعه تحت ذراعي في ود، وأجلسني أمام نار مشتعلة، إلى جانب مائدة محملة بالكؤوس: لا تغضب، قال: لا تغضب؛ فأنا في مثل سني لا أستطيع أن أتغلب على السخرية الوراثية؛ وبكل جدية، أنا مسرور باستقبالك وأقص عليك قصة حياتي. إن رجلاً

سيئ الحظ مثلي يستحق أن يجد مؤرخاً أميناً يطهر ذاكرته من كل لوم. فقدمت إليه كأساً في صمت، فرفضها بإشارة وابتسامة كأنها تقول: (إن هذا خير لجيلك المخنث). ثم بدأ قصته.

.45.

الرابح الأكبر، المنفق الكبير[113]

ليو تولستوي (1828-1910)

في بلدة صغيرة على ضفاف نهر أوكا كان يعيش عبّارة فقير يدعى تيموفيتش والذي كان يعمل في تجارته غير المربحة لمدة عشر سنوات.
تغير مالك العبّارة عدة مرات، لكن تيموفيتش ظل يعمل كمعدّي. كان معتادًا على هذا العمل الذي كان يضمن له لقمة العيش؛ وعلاوة على ذلك، وبما أنه كان أمينًا ولم يغش رئيسه في الجباية اليومية، فقد كان يحظى بثقة الأخير الكاملة. كان الجميع يعرف العم تيموفيتش، وكثيرًا ما كان يُطلب منه أن يكون الأب الروحي.
لم يكن قد جمع الكثير من الممتلكات. ولم يتمكن خلال عشر سنوات من شراء قفطان لأيام الأعياد، وبليسيه من جلد الغنم. أما القلنسوة الفخمة، فقد كان يريد واحدة منذ سنتين، وفي كل مرة كان يذهب فيها إلى السوق ليشتري خبزاً ومؤناً لثلاثة أو أربعة أيام، لم يكن يفوته أن يتوقف أمام الدكاكين. وكان ينظر إلى القلنسوات ويختار أفضلها ويناقش صاحب المحل في السعر ويوهم صاحب المحل أنه سيأتي ويشتريها حالما يتوفر لديه المال.
ومع أن تيموفيتش كان معتادًا على أسلوب حياته، إلا أنه كان يحسد من وقت لآخر أولئك الذين يعيشون أفضل منه.

---

113 touslescontes.com/biblio/conte.php?iDconte=335

ففكّر: "لماذا أعطى الله كذا وكذا من الثروة ولم يعطني شيئًا؟ يا له من مصير محزن لي !

وبدأ يشكو بمرارة أكثر من فقره، ويصلّي إلى الله ليمنحه ثروة.

-وقال في نفسه: (حينئذ سأعيش عيشة حسنة) ثم قال لنفسه: لا أنسى الفقراء؛ وأخيراً سأعرف كيف أعيش عيشة حسنة !

وذات يوم، كان تيموفيتش واقفاً بالقرب من مقصورته عندما رأى شرطياً على الضفة الأخرى يقترب من العائم. وعندما وصل الرجل إلى الشاطئ، نادى تيموفيتش مشيراً إليه أن يتقدم.

-تساءل رجل العبارة متسائلاً: "ماذا يريد مني؟

فتقدم إلى الشرطي.

وقبل أن يقترب منه خلع الرّقيب قبعته وحياه وهنأه وتمنى له الصحة والسعادة. وفي كلمة واحدة قال له الكثير من الهراء لدرجة أنه افترض أن الرّقيب قد عاد لتوه من حفلة ما مرحة، ونظر إليه تيموفيتش دون أن يفهم.

- أعتقد أن عمك هو الذي توفي في روستوف، حيث كان يربح أموالاً طائلة من التجارة، وبما أنه لم يكن له أبناء، فقد ورثت أنت كل أملاكه. ولهذا السبب طلب مني العمدة أن أهنئك وأطلب منك أن تذهب لرؤيته.

وذهل تيموفيتش وحكّ مؤخرة رقبته ونظر إلى الرّقيب الذي وقف أمامه حاسر الرأس يلوح ويبتسم. قال الرّقيب لنفسه: "هناك شيء ما هناك"، لأن هؤلاء الناس لا يخرجون عن طريقهم من أجل لا شيء.

-ما الأمر يا ميرون؟ لا بد أنك تحتفل بعيد ميلاد أحد أصدقائك.«

فأقسم الحارس بكل القديسين أنه قد أُرسل فعلاً من قبل العمدة :

-تعال معي"، وأضاف: "سوف يعلمك كل شيء عن ذلك .« !

قرر تيموفيتش أن يتبعه. وفي الطريق، حاول أن يعرف من هو قريبه روستوف هذا؛ ثم عرف أنه عمه الذي عاش هناك مدة طويلة ولم يسمع عنه شيئاً.

وعندما وصل تيموفيتش إلى مكتب رئيس البلدية، قال له رئيس البلدية
- إن عمك قد مات لتوه في روستوف تاركاً لك دكانين من دكاكينه ومائة ألف روبل.
وبدون مزيد من اللغط، قام تيموفيتش بترتيبات سفره، ولكن على الرغم من تأكيدات الحارس، لم يكن أحد على استعداد لأن يؤمن بثروة المهرب غير المتوقعة، أو أن يدفع له المبلغ اللازم للرحلة. أما بالنسبة له، فلم يكن لديه حتى خمسة روبلات.
ومع ذلك، تمكن تيموفيتش بطريقة ما من الوصول إلى روستوف.
وعندما رأى قائد العبّارة كل هذه الثروات التي كان على وشك امتلاكها، لم يصدق عينيه في البداية. لم يجرؤ قط في أحلامه أن يأمل في الحصول على كل هذه الثروة. ولكن كيف يدير هذه الثروة العظيمة؟ كان سؤالاً محرجاً بالنسبة له.
كان لديه الكثير من المسودات على تاجر واحد، والكثير على تاجر آخر. هنا كان عليه أن يقاضي، وهناك كان عليه أن يترافع، وهكذا دواليك. لا تنسوا المواعيد النهائية ... يتم إرسال بعض البضائع مع كاتب إلى موسكو، والبعض الآخر إلى حدود كرغيس. يكتب الكتبة أنهم ينتظرون الأوامر.
تيموفيتش جاهل؛ فهو لم يسبق له أن احتفظ بأي حسابات، والآن يحتاج إلى عشرة محاسبين للقيام بهذه المهمة. إنه يفقد عقله ولا يعرف ماذا يفعل. ليس لديه أحد في هذه المدينة المجهولة لينصحه. صحيح أنه وجد العديد من الأصدقاء هنا، لكنهم يخدعونه ويسرقون منه.
فأحدهم يدعوه إلى منزله ويفرح به ويحتفل ؛ وآخر يدعوه إلى حفلة تدفئة منزله؛ وآخر يدفعه إلى مشاريع جديدة يوحي إليه أنه سيجني منها أرباحاً طائلة، وآخر يطلعه على حسابات عمه القديمة التي لا يفهم تيموفيتش عنها شيئاً. وباختصار، لم يعد الرجل المسكين يعرف ما إذا كان قد أصبح رأساً على كتفيه أم لا. لقد كان تعيساً وقلقاً كما لم يكن في أي وقت مضى. لقد فقد شهيته للطعام، وفقد نومه؛ وكان ذلك كافياً لقتله.

ثم بدأ تيموفيتش بعد ذلك يشرب حتى الثمالة؛ وكان عدد الذين ساعدوه على تبديد أمواله لا يحصى. فأكلوا وشربوا وأقاموا الولائم، ودائمًا على حسابه.
وذات يوم عاد إلى المنزل مخموراً والتقط مصباحاً وحمله إلى غرفة نومه. تعثّر وأسقط المصباح الذي انكسر، وفي الحال اشتعلت النيران في المنزل.

خرج تيموفيتش ليطلب المساعدة، لكنه عبر غرفتين، ثم نام.
احترق المنزل بأكمله، ولولا أنهم أخرجوه لمات في الحريق.
استيقظ تيموفيتش المسكين حزينًا، لكنه تنفس بحرية وشعر قلبه أخف من ذي قبل.
لا مزيد من الشد والجذب الآن، لا مزيد من الناس الذين يتوجسون مني بإطراء باطل، ويسرقون مني علانية أو غير ذلك. لن أضطر للركض إلى المحاكم لأحصل على المال، أو لأدفع فواتير الصرف بنفسي. لن أضطر إلى العيش مثل البارونات، ولن أضطر إلى الشرب بعد الآن. لقد انتهى كل شيء، لقد مر كل شيء كحلم مؤلم. هذه الثروة المجنونة التي جاءتني دون عناء، إن لم أكسبها فقد أنفقتها على الأقل.
بصق وغادر روستوف.
وعاد إلى بلده في (لابتي)، ماشياً على قدميه، بدون حقيبة سفر، - ولم يكن لديه ما يضعه فيها، - يأكل في الطريق ما أعطي له.
عاد إلى العمل وأصبح عامل عبّارة مرة أخرى.
ومنذ ذلك الحين، عاش كما كان يعيش من قبل؛ لقد أصبح عجوزًا بالفعل. الجميع يعرفونه ويحبونه؛ وهو راضٍ بنصيبه؛ يجذب حبل العبّارة ويطلب من الله أن لا يطلب المزيد من الغنى.

في هذه الأثناء، كان يرتدي ملابس قديمة.

.46.

المهزلة النورماندية[114]

قي دي موباسان (1850-1893)

إلى أ. دي جووانفيل

جرى الموكب على طول الممر الغارق الذي ظللته الأشجار العالية التي تنمو على منحدرات المزارع. جاء أولاً العرسان الجدد، ثم الأهل، ثم الضيوف، ثم الفقراء المحليين، ثم الأطفال الذين كانوا يحومون حول الموكب كالذباب، ويمرون بين الصفوف، ويتسلقون الأغصان للحصول على نظرة أفضل.

وكان العريس رجلاً وسيماً، هو جان باتو، أغنى مزارع في البلاد. وكان قبل كل شيء صياداً مسعوراً فقد كل إحساسه في إرضاء هواه، وكان ينفق أموالاً طائلة على كلابه، وحراسه، وقوارضه، وبنادقه، وكان يصرفها عليهم جميعا...

أما العروس روزالي روسيل فقد توددت إليه جميع الأطراف في المنطقة، إذ كان يعتقد أنها جذابة وموهوبة؛ ولكنها اختارت باتو، ربما لأنها أحبته أكثر من الآخرين، ولكن أيضاً، كما كان النورماندي الوقور، لأنه كان يملك مالاً أكثر.

وما كادوا يطرقون البوابة الكبيرة لمزرعة الزوج حتى دوت أربعون طلقة بندقية دون أن يرى المسلحون المختبئون في الخنادق. وعند هذا الصوت استولى على الرجال الذين كانوا يتململون في ثيابهم البهيجة فرحاً عظيماً؛ وترك باتو زوجته

[114] touslescontes.com/biblio/conte.php?iDconte=

وقفز على خادم رآه خلف شجرة، وأمسك ببندقيته وأطلق بنفسه طلقة وهو يتمايل كالمهر.

ثم انطلقنا مرة أخرى تحت أشجار التفاح المثقلة بالفاكهة بالفعل، عبر العشب الطويل، وسط العجول التي كانت تنظر بعيونها الكبيرة، ثم نهضت ببطء وظلت واقفة وأنوفها ممدودة نحو العريس.

عاد الرجال إلى الجدية مرة أخرى عندما اقتربوا من الوجبة. وكان بعضهم، وهم الأغنياء، يرتدون قبعات حريرية لامعة عالية، بدت في غير محلها في هذا المكان؛ وكان البعض الآخر يرتدون قبعات قديمة طويلة الشعر، بدت كجلد الخلد؛ أما الأكثر تواضعاً فكانوا يرتدون قبعات عادية.

وكانت جميع النساء يرتدين شالات متدلية على ظهورهن، ويضعن أطرافها على أذرعهن باحتفال. وكانت هذه الشالات حمراء ملونة ومزركشة ومزخرفة وبدا بريقها يذهل الدجاج الأسود على الروث والبط عند البركة والحمام على الأسطح المصنوعة من القش.

بدت خضرة الريف كلها، خضرة العشب والأشجار، وقد بدت كلها خضراء من العشب والأشجار وقد تفاقمت بسبب ملامستها لهذا اللون الأرجواني الناري وأصبح اللونان المتقاربان جداً متلازمين تحت نار شمس الظهيرة.

بدت المزرعة الكبيرة وكأنها تنتظر هناك، في نهاية مظلة أشجار التفاح. كان نوع من الدخان يتصاعد من الباب والنوافذ المفتوحة، ورائحة طعام كثيفة تفوح من المبنى الواسع، من جميع فتحاته ومن الجدران نفسها.

امتدت حاشية الضيوف مثل الأفعى عبر الفناء. أول من وصلوا إلى المنزل كسروا السلسلة وتبعثروا، بينما واصلوا هناك الدخول من البوابة المفتوحة. واكتظت الخنادق الآن بالأطفال الفضوليين والفقراء، ولم يتوقف إطلاق النار الذي لم يتوقف، وانفجر من كل الجهات في آن واحد، واختلط في الهواء ضباب من البارود وتلك الرائحة التي تتحول إلى اللون الرمادي.

وكانت النساء ينقرن على أثوابهن خارج الباب لينفضن الغبار عن ثيابهن، ويفككن الأوريفلام التي كانت بمثابة شرائط لقبعاتهن، ويفككن شالاتهن ويضعنها على أذرعهن، ثم يدخلن إلى البيت ليتخلصن من هذه الحلي إلى الأبد.

وُضعت المائدة في المطبخ الكبير الذي يتسع لمائة شخص.

جلسنا في الساعة الثانية. وفي الساعة الثامنة كنا نأكل مرة أخرى. وكان الرجال غير مرتدين أزرارهم، بأكمام قمصانهم، وقد احمرّت وجوههم، يلتهمون الطعام كالحفر. كان عصير التفاح الأصفر يلمع بسعادة، صافياً وذهبياً، في الكؤوس الطويلة، بجانب النبيذ الملون، النبيذ الداكن، بلون الدم.

وكنا بين كل طبق من الأطباق نصنع حفرة من الحفر، حفرة النورمان، ونشرب كأساً من البراندي الذي كان يبعث النار في أجسامنا والجنون في رؤوسنا.

ومن وقت لآخر، كان الضيف يخرج بين الفينة والأخرى، وقد امتلأ كالبرميل، إلى الأشجار المجاورة، فيقضي حاجته، ثم يعود وفي أسنانه جوع جديد.

كانت فتيات المزرعة قرمزيات اللون، مقهورات، أجسادهن مشدودة كالبالونات، مقطوعات إلى نصفين من مشداتهن، منتفخات من أعلى إلى أسفل، يجلسن على المائدة بدافع الحياء. ولكن عندما غادرت إحداهن، وهي أكثر خجلاً من غيرها، المائدة، نهضن جميعاً في أعقابها. وعادوا أكثر سعادة واستعداداً للضحك. وبدأت النكات الثقيلة.

كانت هذه كلمات بذيئة قُذفت عبر الطاولة، وكلها تدور حول ليلة الزفاف. تم إفراغ ترسانة خفة دم الفلاحين. على مدى مائة عام، كانت نفس التفاهات تستخدم في نفس المناسبات، وعلى الرغم من أن الجميع يعرفها، إلا أنها كانت لا تزال تحمل نفس المعنى، مما جعل سلسلتي الضيوف تنفجر في ضحكات مدوية.

كان رجل عجوز أشيب الشعر ينادي: "المسافرون إلى ميزيدون بالسيارة" (المسافرون إلى ميزيدون بالسيارة). وكانت هناك صيحات من البهجة.
وكان في الطرف البعيد من المائدة أربعة رجال من الجيران يعدون النكات للعروسين ويبدو أنهم كانوا يلقون النكات على العروسين ويبدو أنهم كانوا يتمازحون في همساتهم.
صرخ أحدهم، مستغلاً فجأة لحظة هدوء قائلاً :
"إن الصيادين هم الذين سيفعلون ذلك الليلة، مع وجود القمر هناك! قل لي يا جان، أليس هذا هو القمر الذي ستراقبه"؟
استدار العريس فجأة:
"دع الصيادين يأتون!
لكن الآخر ضحك:
"آه! يمكنهم أن يأتوا؛ لن تترك عملك من أجل ذلك!
اهتزت الطاولة كلها من الفرح. واهتزت الأرض واهتزت الكؤوس.
لكن العريس استشاط غضباً من فكرة أن يستغل أحدهم زفافه ليصطاد في بيته:
"أقول لك، دعهم يأتون!
ثم كانت هناك فورة من الكلام المزدوج المؤذي الذي جعل العروس تحمر خجلاً قليلاً، إذ كانت ترتجف من الترقب.
ثم بعد أن شربت براميل البراندي ذهب الجميع إلى الفراش، وذهب الزوجان الشابان إلى غرفة نومهما التي كانت في الطابق الأرضي مثل كل غرف نوم المزارع، ولما كان الجو دافئاً بعض الشيء، فقد فتحا النافذة وأغلقا المظلة. وكان على الخزانة ذات الأدراج مصباح صغير رديء الذوق، هدية من والد الزوجة، وكان السرير جاهزاً لاستقبال الزوجين الجديدين اللذين لم يضعا في أول عناق لهما كل مراسم البرجوازيين في المدن.

وكانت المرأة الشابة قد خلعت غطاء رأسها وثوبها، وكانت لا تزال ترتدي ثوبها الداخلي وتخلع حذاءها، بينما كان جان قد أنهى سيجارته وهو ينظر إلى رفيقه من الزاوية.
وكان يراقبها بعينين لامعتين، حسية أكثر منها حانية، لأنه كان يشتهيها أكثر مما يحبها، وفجأة، وبحركة مفاجئة، كرجل على وشك أن يشرع في العمل، خلع بدلته.
وكانت هي قد حلت رباط حذائها وكانت الآن تخلع جواربها، ثم قالت له كما لو كان طفلاً:(اذهب واختبئ هناك، خلف الستائر، حتى أستطيع أن أخلد إلى الفراش)
فتظاهر بالرفض، ثم ذهب في خبث ومكر، وأخفى نفسه ما عدا رأسه، ثم قال لها: (لا تذهبي إلى هناك حتى أذهب إلى السرير). فضحكت، وأرادت أن تغطي عينيها، وتلاعبا في مرح وغرام، دون أن يتعلم الحياء أو الحرج.
وأخيراً استسلم؛ ثم حلت في ثانية واحدة ثوبها الداخلي الأخير، فانزلق على ساقيها وسقط حول قدميها وانسدل على الأرض في دائرة. تركته هناك، وخطت فوقه، عارية تحت قميصها الطافي، وانزلقت إلى السرير الذي كانت نوابضه تغني تحت ثقلها.
ووصل في الحال وقد تجرد من حذائه وارتدى سرواله، وكان منحنياً على زوجته يبحث عن شفتيها اللتين كانت تخبئهما في الوسادة، عندما دوى صوت طلقة رصاص من بعيد، في اتجاه بوا دي رابيه، كما بدا له.
نهض بقلق وقلبه يتسارع، ثم ركض إلى النافذة وفك المظلة.
كان القمر المكتمل يغمر الفناء بالضوء الأصفر. وصنعت ظلال أشجار التفاح بقعاً داكنة عند سفحها، وفي البعيد، كان الريف المغطى بالثمار الناضجة يلمع.
وبينما كان جون ينحني إلى الخارج مستمعاً إلى كل همهمات الليل، التفت ذراعان عاريتان حول عنقه، ثم سحبته زوجته إلى الخلف هامسة: دعني وشأني، ما الفرق، هيا.

والتفت حولها وأمسك بها واحتضنها وهو يتحسسها تحت القماش الخفيف؛ ورفعها بين ذراعيه القويتين وحملها نحو سريرهما.
وبينما كان يضعها على السرير، الذي انحنى تحت ثقلها، دوّى دويّ آخر، كان هذا الدويّ أقرب.
ثم أقسم يوحنا وهو يرتجف غضبًا مضطربًا: "باسم الله! هل يعتقدون أنني لن أخرج بسببك؟ انتظر، انتظر!" فارتدى حذاءه، وفكّ بندقيته التي كانت لا تزال معلقة في متناول يده، وبينما كانت زوجته تزحف على ركبتيها وتتوسل إليه وهي في حالة ذهول، خرج من الطريق بسرعة، وركض إلى النافذة وقفز إلى الفناء.
انتظرت ساعة أو ساعتين حتى طلوع النهار.
لم يعد زوجها إلى المنزل. ثم غلبها النعاس فنادت، وأخبرت عن غضب جان ومطاردته للصيادين.
وعلى الفور انطلق الخدم والسعاة والفتيان بحثاً عن السيد.
وعُثر عليه على بعد فرسخين من المزرعة مربوطاً من رأسه إلى قدميه، شبه ميت من شدة الغضب، وبندقيته ملتوية وخرقته مقلوبة من الداخل، وحول عنقه ثلاثة أرانب برية ميتة وعلى صدره علامة
"من يذهب للصيد يفقد مكانه."
وفي وقت لاحق، عندما روى ليلة الزفاف تلك، أضاف قائلاً: "أوه، من أجل مزحة! لقد كانت مزحة جيدة. لقد اصطادوني مثل الأرنب، الأوغاد، وخبأوا رأسي في كيس. ولكن إذا جربتهم مرة أخرى، فاحذروا!
وهذه هي الطريقة التي تستمتع بها في أيام الزفاف في نورماندي.

.47.

المرأة المجنونة[115]

قي دي موباسان (1850–1893)

إلى روبير دي بونيير

قال السيد ماتيو دي إندولان: "حسناً، لقد ذكرني طائر الغراب بحكاية شريرة جداً من الحرب.
أنت تعرف ممتلكاتي في ضاحية كورميل. كنت أعيش هناك عندما وصل البروسيون.
كانت جارتي امرأة مجنونة نوعاً ما قد ذهب عقلها بسبب سوء الحظ. فقد فقدت ذات مرة، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، والدها وزوجها وطفلها الوليد في شهر واحد.
عندما يدخل الموت مرة واحدة إلى منزل، فإنه دائمًا ما يعود على الفور، كما لو كان يعرف الباب.
فأخذت المسكينة الشابة المسكينة التي أصابها الحزن الشديد، ولزمت فراشها وظلت تهذي لمدة ستة أسابيع. ثم أعقب هذه الأزمة العنيفة نوع من الضجر الهادئ، وظلت بلا حركة، لا تكاد تأكل، ولا تحرك عينيها إلا قليلاً. وفي كل مرة

---

115 touslescontes.com/biblio/conte.php?iDconte=210 ة

حاولنا أن ننهضها، كانت تصرخ وكأننا قتلناها. فتركناها مستلقية هناك طوال الوقت، ولم نكن نخرجها من أغطيتها إلا لنغسلها ونقلب فراشها.
وبقيت إلى جانبها خادمة عجوز تسقيها بين الحين والحين شراباً أو تمضغ لها بعض اللحم البارد. ماذا كان يدور في تلك الروح البائسة؟ لم نعرف أبداً، لأنها لم تتكلم مرة أخرى. هل كانت تفكر في الموتى؟ هل كانت تستغرق في أحلام اليقظة حزينة، دون ذاكرة واضحة؟ أم أن عقلها المحطم ظل ساكناً كالماء بلا تيار؟
وظلت لمدة خمسة عشر عاماً مغلقة وخاملة.
وجاءت الحرب، وفي الأيام الأولى من شهر ديسمبر، اخترق البروسيون كورميل.

أتذكر ذلك كما لو كان بالأمس. كان الجو قارس البرودة، وكنت مستلقياً على كرسي بذراعين، وقد أقعدني النقرس عن الحركة، عندما سمعت دقات أقدامهم الثقيلة المتواترة. رأيتهم يمرون من نافذتي.
كانوا يستعرضون إلى ما لا نهاية، كل شيء متشابه، مع تلك الحركة الشبيهة بحركة الدمى التي تميزهم. ثم وزع القادة رجالهم على السكان. حصلت على سبعة عشر. وكان للجارة، المرأة المجنونة، اثنا عشر، من بينهم قائد، مرتشٍ حقيقي، عنيف وفظ.
في الأيام القليلة الأولى سارت الأمور بشكل طبيعي. قيل للضابط المجاور أن السيدة مريضة ولم يقلق بشأنها. ولكن سرعان ما أغضبته هذه المرأة التي لم يسبق له أن رآها. فسأل عن مرضها، فقيل له إن مضيفته طريحة الفراش منذ خمسة عشر عاماً بسبب حزنها الشديد. ولعله لم يصدق شيئاً من ذلك، وخيل إليه أن المسكينة الحمقاء لم تغادر فراشها كبراً وكبرياء حتى لا ترى البروسيين ولا تتحدث إليهم ولا تلمسهم.
فطلب إليها أن تستقبله، وأدخلته غرفتها. سألها بفظاظة

"أتوسل إليك يا سيدتي أن تنهضي وتنتصبي في وسطك حتى نتمكن من التخلص من كبدك.
فأدارت عينيها الغامضتين الفارغتين نحوه ولم ترد عليه.
وواصل كلامه:
"لن أتسامح مع الوقاحة. إذا لم تنهضي بمحض إرادتك، فسأجد طريقة لأجعلك تنهضين بإرادتك الحرة.
لم تتحرك، وظلت بلا حراك كما لو أنها لم تره.
فثارت ثورته، واتخذ من هذا الصمت الهادئ علامة على الازدراء الشديد. وأضاف "إذا لم تكوني تيسنتو تيمين."...
ثم غادر.
وفي اليوم التالي، حاولت الخادمة العجوز المذهولة أن تلبسها ثيابها، ولكن المرأة المجنونة أخذت تصرخ وتقاوم. صعد الضابط بسرعة إلى الطابق العلوي وصاحت الخادمة وهي ترمي بنفسها على ركبتيها

"إنها لا تريد ذلك يا سيدي، إنها لا تريد ذلك. سامحها، إنها تعيسة جداً.
وظل الجندي محرجاً ولم يجرؤ، رغم غضبه، على أن يجعل رجاله يسحبونها من السرير. ولكنه ضحك فجأة وأعطى أوامره بالألمانية.
وسرعان ما ظهرت مفرزة تحمل فراشاً كما لو كانت تحمل رجلاً جريحاً. وفي هذا الفراش، الذي لم يكن غير مرتب، ظلت المرأة المجنونة، الصامتة دائماً، هادئة غير مبالية بالأحداث ما دامت مستلقية على الفراش. وكان رجل في الخلف يحمل حزمة من ملابس النساء.
وقال الضابط وهو يفرك يديه معاً
"سنبذل قصارى جهدنا إن لم تستطع أن تتدبر أمرك بنفسك وتصنع برومية بيتية.

ثم انطلق الموكب في اتجاه غابة إيموفيل.
وبعد ساعتين عاد الجنود وحدهم.
ولم يروا المرأة المجنونة مرة أخرى. ماذا فعلوا بها؟ إلى أين أخذوها؟ لم نعرف أبداً.
كان الثلج يتساقط الآن ليلاً ونهاراً ويدفن السهول والغابات تحت غطاء من الطحالب الجليدية. كانت الذئاب تعوي عند عتبة بابنا.
طاردتني فكرة هذه المرأة المفقودة، وقمت بعدة محاولات لدى السلطات البروسية للحصول على معلومات. كدت أن أُصاب بطلق ناري.
عاد الربيع. ابتعد جيش الاحتلال. ظل منزل جاري مغلقًا، ونما العشب بكثافة في الأزقة.
كانت الخادمة العجوز قد ماتت خلال الشتاء. لم يعد أحد يهتم بالمغامرة بعد ذلك؛ أنا فقط كنت أفكر فيها طوال الوقت.
ماذا فعلوا بالمرأة؟ هل هربت عبر الغابة؟ هل تم القبض عليها في مكان ما واحتجازها في مستشفى دون أن أتمكن من الحصول على أي معلومات منها؟ لا شيء يمكن أن يخفف من شكوكي، لكن شيئًا فشيئًا، خفف الوقت من القلق في قلبي.
وفي الخريف التالي، جاءت طيور الغابة بأعداد كبيرة، وبعد أن أراحني النقرس قليلاً، جررت نفسي إلى الغابة. كنت قد قتلت بالفعل أربعة أو خمسة طيور طويلة المنقار عندما أطلقت النار على أحدها الذي اختفى في حفرة مليئة بالأغصان. اضطررت إلى النزول لالتقاط حيوانا وجدته ملقى بجانب جمجمة. وفجأة ضربتني ذكرى المرأة المجنونة في صدري مثل لكمة. لقد مات كثيرون غيرها في هذه الغابة، ربما في تلك السنة المشؤومة؛ ولكني لا أدري لماذا، كنت متأكداً، أقول لك، من أنني كنت ألتقي برأس ذلك المجنون البائس.

وفجأة فهمت، خمنت كل شيء. لقد تركوها على ذلك الفراش، في الغابة الباردة المهجورة؛ وكانت قد تركت نفسها تموت تحت الثلج الكثيف الخفيف، دون أن تحرك ذراعاً أو ساقاً.

ثم افترستها الذئاب.

وصنعت الطيور أعشاشها في صوف فراشها الممزق.

احتفظت بهذا العظم الحزين وأتمنى ألا يرى أبناؤنا الحرب مرة أخرى.

.48.

الذئب[116]

قي دي موباسان (1850–1893)

هذا ما أخبرنا به الماركيز العجوز ماركيز درفيل في نهاية عشاء سان هوبير في منزل البارون دي رافيل.
كان قد تم إطلاق النار على ظبي أثناء النهار. وكان الماركيز هو الوحيد من بين الضيوف الذي لم يشارك في المطاردة لأنه لم يكن يصطاد أبداً.
وطوال الوجبة، لم يكن هناك حديث يذكر عن أي شيء سوى مذابح الحيوانات. وكانت النسوة أنفسهن مهتمات بالحكايات المتعطشة للدماء والتي غالباً ما تكون غير قابلة للتصديق، وكان المتحدثون يحاكون الهجمات والقتال بين الرجال والوحوش، ويرفعون أسلحتهم ويروون بصوت مدوٍّ.
كان السيد درفيل يتحدث بشكل جيد، بشاعرية معينة كانت مبالغاً فيها بعض الشيء، ولكنها كانت مليئة بالتأثير. ولا بد أنه كان يتدرب على القصة كثيراً، لأنه كان يتكلمها بطلاقة، ولا يتردد في اختيار الكلمات التي اختارها بمهارة لنقل الصورة.

-أيها السادة، أنا لم أصطد قط، ولا أبي ولا جدي ولا جد جدي. كان جدي الأكبر ابن رجل يصطاد أكثر منكم. توفي عام 1764. سأخبركم كيف.

116 https_touslescontes.com

كان اسمه جان، وكان متزوجاً، وكان والد هذا الطفل الذي كان جد جدي الأكبر، وعاش مع أخيه الأصغر، فرانسوا دارفيل، في قصرنا في لورين، في وسط الغابة.
ظل فرانسوا دارفيل صبيًا لأنه كان يحب الصيد.
كان كلاهما يصطادان من أول العام إلى آخره، دون راحة، دون توقف، دون كلل. كان ذلك كل ما أحباه، وكل ما فهماه، وكل ما تحدثا عنه، وكل ما عاشا من أجله.

كان لديهم هذا الشغف الرهيب الذي لا يرحم في قلوبهم. كان يحرقهم، ويغزوهم تمامًا، ولا يترك مجالًا لأي شيء آخر.
كانا يحرمان أي شخص من إزعاجهما أثناء الصيد لأي سبب كان. لقد ولد جدي الأكبر بينما كان والده يطارد ثعلباً، ولم يقطع جان درفيل ركضه بل أقسم قائلاً: "يا إلهي، كان بإمكان ذلك الوغد أن ينتظر!
وكان أخوه فرانسوا أكثر حماسة منه. فما أن نهض حتى ذهب ليرى الكلاب، ثم الخيول، ثم أخذ يصطاد الطيور حول القلعة حتى حان وقت الرحيل ليجبر بعض الوحوش الكبيرة.
وكانا معروفين في البلاد باسم السيد المركيز والسيد لو كاديت، ولم يكن نبلاء ذلك الزمان يفعلون كما يفعل نبلاء عصرنا الذين يريدون أن يقيموا تراتبية تنازلية في الألقاب؛ لأن ابن المركيز ليس كونتاً ولا ابن الفيكونت باروناً أكثر من كون ابن الجنرال عقيداً بالولادة. لكن الغرور التافه اليوم يجد فائدة في هذا الترتيب.
أعود إلى أسلافي.
لقد كانوا، على ما يبدو، طوال القامة بشكل غير متناسب، عظاماً ضخام القامة، كثيفي الشعر، عنيفين وقويين. وكان الأصغر سناً، وهو أطول من الأكبر، يتمتع بصوت جهوري لدرجة أنه، وفقاً لأسطورة كان يفخر بها، كانت كل أوراق الشجر في الغابة تهتز عندما يصرخ.

وعندما امتطى كلاهما صهوة جواده ليذهبا للصيد، لا بد أنه كان منظرًا رائعًا أن ترى هذين العملاقين يمتطيان حصانيهما العظيمين.

وقرب منتصف شتاء عام 1764، كان البرد قارساً ثم اشتد وأصبحت الذئاب شرسة.

حتى أنها كانت تهاجم الفلاحين الكسالى، وتطوف حول المنازل ليلاً، وتعوي من غروب الشمس إلى شروقها وتفرغ الإسطبلات من السكان.

وسرعان ما بدأت الشائعات تنتشر. كان هناك حديث عن ذئب هائل، ذو فرو رمادي يكاد يكون أبيض اللون، أكل طفلين، والتهم ذراع امرأة، وخنق كل كلاب الحراسة في البلد ودخل بلا خوف إلى الحقول ليأتي ويشم من تحت الأبواب.

وادعى جميع السكان أنهم شعروا بأنفاسه التي جعلت الأنوار تومض. وسرعان ما انتشر الذعر في جميع أنحاء المقاطعة. لم يجرؤ أحد على الخروج بمجرد حلول المساء. وبدا الظلام مسكوناً بصورة هذا الوحش.

وعزم الأخوان دارفيل على العثور عليه وقتله، ودعيا جميع السادة المحليين للذهاب للصيد.

كل ذلك دون جدوى. مهما بحثنا في الغابات والأدغال، لم نعثر عليه أبدًا. تم قتل الذئاب، ولكن ليس هذا الحيوان. وفي كل ليلة بعد الصيد، كان هذا الحيوان، كما لو كان ينتقم، يهاجم بعض المسافرين أو يلتهم بعض الماشية، ودائماً ما كان بعيداً عن المكان الذي كان يبحث فيه عنه.

وأخيراً، وفي إحدى الليالي، دخل حظيرة الخنازير في قصر دارفيل وأكل أجمل تلميذتين.

فاشتعل الأخوان غضباً، ورأيا في هذا الهجوم تبجحاً من جانب الوحش وإهانة مباشرة وتحدياً. فأخذا كل كلابهم البوليسية القوية المعتادة على ملاحقة الوحوش المخيفة، وانطلقا في مطاردة الوحش المخيف، وقلوبهم تخفق من شدة الغضب.

من الفجر حتى الوقت الذي غابت فيه الشمس خلف الأشجار العظيمة العارية، وهما يبحثان في الغابة دون أن يجدا شيئاً.

وأخيراً عاد كل منهما غاضباً مستوحشاً على خيله في طريق يحده الشجر، وتعجبا من علمهما الذي أحبطه هذا الذئب الذي استولى عليه فجأة نوع من الخوف الغامض.

قال الأكبر سناً

-هذا ليس وحشاً عادياً. يبدو أنه يفكر كالإنسان.

فأجابه الأصغر:

- ربما كان علينا أن نحظى بكرة يباركها ابن عمنا الأسقف، أو نطلب من أحد القساوسة أن يقول الكلمات المناسبة.

ثم صمتوا.

تابع جان:

-انظر إلى الشمس، إذا كانت حمراء. سوف يسبب الذئب الكبير بعض المتاعب الليلة.

لم يكد ينتهي من كلامه حتى انتفض حصانه؛ وبدأ حصان فرانسوا في الجري. انفتحت أمامهما شجيرة كبيرة مغطاة بأوراق الشجر الميتة، ووثب وحش ضخم رمادي اللون وانطلق في الغابة.

وأطلق كلاهما نوعاً من نخير الفرح، وانحنى كل منهما على أعناق خيولهما الثقيلة وقذفا بها إلى الأمام بدفع أجسادهما كلها، واندفعا بها بسرعة هائلة، وأثاراها وقاداها إلى الأمام وأفزعاها بأصواتهما وإيماءاتهما ومهمازهما، حتى بدا الفارسان القويين وكأنهما يحملان الوحشين الثقيلين بين فخذيهما كأنهما يطيران.

وهكذا انطلقوا من بطنه إلى بطنه عبر الغابات، وفوق الوديان، وفوق التلال، وأسفل الوديان، وهم ينفخون في أبواقهم بأعلى صوتهم لجذب رجالهم وكلابهم.

وفجأة، وفي اندفاعه المجنون، ارتطم جدي بغصن ضخم على جبهته فشق جمجمته وسقط ميتاً على الأرض، بينما اندفع حصانه مذعوراً واختفى في الظلال التي تلف الغابة.

توقف درفيل الأصغر سناً في مكانه وقفز إلى الأرض وأمسك بأخيه بين ذراعيه ورأى أن المخ يقطر من الجرح مع الدم.

فجلس إلى جانب الجثة، ووضع الرأس المشوه والمحمر على حجره وانتظر متأملاً في وجه أخيه الأكبر الجامد. وشيئاً فشيئاً استولى عليه خوف، خوف فريد لم يشعر به من قبل، خوف من الظلال، وخوف من العزلة، وخوف من الغابة المهجورة، وخوف من الذئب العجيب الذي قتل أخاه للتو لينتقم منهما.

كان الظلام يزداد كثافة، والبرد الحاد يجعل الأشجار تصدر صريراً. وقف فرانسوا وهو يرتجف، ولم يعد قادراً على البقاء في مكانه أكثر من ذلك، وشعر بأنه شبه مغمى عليه. لم يعد بالإمكان سماع أي شيء بعد ذلك، لا صوت الكلاب ولا صوت الأبواق، كان كل شيء قد كتمه الأفق الخفي؛ وكان هناك شيء مخيف وغريب في هذا الصمت الكئيب في المساء الجليدي.

وأمسك بجسم جون الضخم بين يديه الضخمتين، وجذبه ووضعه على السرج ليحمله إلى القلعة؛ ثم انطلق مرة أخرى في بطء وعقله غائم كأنما غلبت عليه غشاوة رمادية تلاحقه صور مرعبة ومدهشة.

ثم، فجأة، في الطريق الذي غزاه الليل، مرّ شكل كبير. كانه الوحش. وانزلق شيء بارد، كقطرة ماء، على ظهره وصنع، مثل راهب مسكون بالشيطان، إشارة صليب عظيمة، مذهولاً من العودة المفاجئة للوحش المتربص المخيف. ولكن عينيه وقعتا على الجسد الجامد الملقى أمامه، وفجأة تحول من الخوف إلى الغضب فارتجف من الغضب المضطرب.

فحمل حصانه وانطلق خلف الذئب.

وتبعه عبر الغابات والأخاديد التي لم يعد يعرفها، وعينه مثبتة على البقعة البيضاء التي هربت في الليل الذي حل على الأرض.
وبدا جواده أيضاً وقد حركته قوة وحماسة غير معروفة. فركض إلى الأمام مباشرة، وعنقه ممدود إلى الأمام، يصطدم بالأشجار والصخور، ورأس القتيل وقدماه مرميتان على السرج. ومزقت الأشجار العليقة الشعر، ومزقت جبهته التي كانت تضرب الجذوع الضخمة فتتناثر دماؤها؛ ومزقت المهمازات أشلاء من لحاء الشجر.
وفجأة خرج الحيوان والراكب من الغابة واندفع في وادٍ مع ظهور القمر فوق الجبال. كان الوادي صخرياً مغلقاً بالصخور الضخمة، ولم يكن هناك مخرج، واستدار الذئب المحاصر.
ثم أطلق فرانسوا عواءً من الفرح ترددت أصداؤه كصوت الرعد، ووثب عن جواده وسيفه في يده.
وكان الوحش الضخم بظهره المستدير في انتظاره وعيناه تلمعان كنجمتين. ولكن قبل أن يبدأ المعركة، أمسك الصياد القوي بأخيه، وأجلسه على صخرة، وسند رأسه بالحجارة التي لم تكن الآن إلا بقعة دم، وصاح في أذنيه كأنه يخاطب أصم: (انظر يا جان انظر إلى هذا!
ثم ألقى بنفسه على الوحش. شعر بقوة كافية لإسقاط جبل وسحق الحجارة بين يديه. وأراد الوحش أن يعضه محاولاً أن ينغرز في بطنه، ولكنه كان قد أمسكه من رقبته، دون أن يستخدم سلاحه، وكان يخنقه في رفق، وهو يستمع إلى أنفاسه في حلقه ودقات قلبه، وهو يضحك مستمتعاً بجنون وهو يشد عنقه الهائل أكثر فأكثر، ويصرخ في هذيان من الفرح: انظر يا جان، انظر! لقد توقفت كل المقاومة، وتلاشى جسد الذئب. لقد مات.
ثم أخذه فرانسوا من ذراعه وحمله وألقى به عند قدمي الأكبر، وهو يردد بصوت حنون: حسناً، حسناً، حسناً، حسناً، يا صغيري جان، ها هو ذا!

ثم أعاد الجسدين على سرجه، أحدهما فوق الآخر، وانطلق من جديد.

وعاد إلى القلعة وهو يضحك ويبكي، ويصرخ من شدة الانتصار ويختصم من شدة الفرح وهو يروي موت الحيوان، ويئن ويمزق لحيته وهو يروي موت أخيه.
وكثيراً ما كان يقول فيما بعد وهو يتحدث عن ذلك اليوم والدموع في عينيه: لو أن جان المسكين كان يستطيع أن يراني وأنا أخنق الآخر لمات سعيداً، أنا واثق من ذلك!
لقد غرست أرملة جدي في ابنها اليتيم رعبًا من الصيد توارثته أبًا عن جد، وانتقل من الأب إلى الابن إليّ.
صمت ماركيز دارفيل. سأل أحدهم:
-هذه القصة أسطورة، أليس كذلك؟
فأجاب راوي القصة:
-أقسم أنها حقيقية من أولها إلى آخرها.
ثم قالت امرأة بصوت خافت
-كل شيء متشابه، من الجميل أن يكون لديك مثل هذه العواطف.

1882

.49.

الأسرار[117]

ألفونس دي لا مارتين (1790 ـ 1869)

الفصل الأول

أنت تريد أن تعرف النصف الأول من حياتي؛ لأنك تحبني؛ ولكنك لا تحبني إلا في الحاضر والمستقبل؛ أما ماضيَّ فيفلت منك؛ فهو جزء مني قد سلب منك، ولا بد لك من استعادته. وأنا أيضاً سأجده حلواً أحياناً، ومؤلماً في كثير من الأحيان، أن أعود من أجلك ومعك إلى المصادر الحية المحجوبة لوجودي ومشاعري وأفكاري. عندما يضطرب النهر ولا يعود يتدحرج إلا أمواجاً مضطربة ومضطربة بالفعل، بين الرمال القاحلة، قبل أن يضيع في المحيط المشترك، من منا لا يحب أن يصعد مجرى ووادياً في تعرجات مجراه الطويلة، ليعجب بالعين ويستخرج من جوف يده أمواجه الأولى الخارجة من الصخر، المتوارية تحت الأوراق، طازجة كالثلج الذي تمطر منه، زرقاء عميقة كسماء الجبل الذي ينعكس فيها؟ آه! إن ما تطلبه مني سيكون انتعاشاً لذيذاً لروحي، كما سيكون فضولاً رقيقاً مرضياً لك. إنني أقترب من تلك النقطة غير الحاسمة في حياة الإنسان عندما نصل إلى منتصف السنوات التي يقيسها الله عادةً لأفضل البشر، ونكون للحظة كما لو كنا معلقين بين شطري وجودنا، لا نعرف تماماً ما إذا كنا لا نزال نصعد أم أننا بدأنا بالفعل في

[117] fr.wikisource.org/wiki/Les_Confidences_(Lamartine)/Livre_1

1863 نشره المؤلف، (Œuvres complètes tome 29 p 34-17 ،. ص).

الهبوط. هذا هو الوقت المناسب لتتوقف للحظة، إذا كنت لا تزال مهتماً بنفسك، أو إذا كان شخص آخر لا يزال مهتماً بك، لتلقي بعض النظرات إلى الوراء، ومن خلال الظلال التي تنتشر بالفعل وتتنافس على انتباهك، لتستعيد المواقع، والأزمنة، والأشخاص، والذكريات الحلوة التي يمحوها المساء والتي تود أن تحييها إلى الأبد في قلب شخص آخر، كما تعيش إلى الأبد في قلبك. ولكني وأنا أبدأ في أن أفتح لك طيات ذكرياتي هذه، الحميمة جداً والمغلقة بعناية، أشعر بدفقات من الحنان والحزن والألم تتصاعد من أعماق صدري، وتكاد تخنقني أنات حياتي الماضية؛ كأنها نائمة ولكنها لم تمت، وربما كنت مخطئاً في تحريكها، وربما لم أستطع أن أستمر في ذلك. الصَّمْتُ كَفَنُ الْمَاضِي، وَرَفْعُهُ ... أَحْيَانًا يَكُونُ خَطَرًا وَغَالِبًا خَطِرًا ولكن حتى عندما يُرفع بورع ومحبة، فإن اللحظة الأولى تكون قاسية. هل سبق لك أن مررت بواحدة من أفظع تجارب الحياة؟ لقد مررت بها مرتين، ولا أفكر فيها أبدًا دون أن أرتجف.

لقد أخذ الموت منك على حين غرة، وفي غيابك كائناً من أكثر الكائنات التي عاشت فيها نفسك، أماً، وطفلاً، وزوجة حبيبة. لقد جاءك النبأ الفاجع قبل أن تستقبل الأرض الوديعة المقدسة لهذا الجسد النائم إلى الأبد. تعبر العتبة، وتصعد الدرج، وتدخل الغرفة، وتجد نفسك وحيدا مع الله والموت. تجثو على ركبتيك بجانب السرير وتقضي ساعات وأنت ممدود الذراعين ووجهك على ستائر سرير الجنازة. أخيرًا تنهض وتخطو بضع خطوات حول الغرفة. تقترب أكثر فأكثر من السرير، حيث ملاءة بيضاء، ملقية فوق جسد بلا حراك، تحدد شكل الكائن الذي لن تراه مرة أخرى. يسيطر عليك شك رهيب: يمكنني رفع الكفن، يمكنني رؤية وجه الحبيب مرة أخرى. هل يجب أن أراه مرة أخرى كما صنعه الموت؟ هل أقبّل ذلك الجبين من خلال القماش ولا أرى ذلك الوجه المتلاشي مرة أخرى إلا في الذاكرة وباللون والهيئة والفراسة التي منحته إياها الحياة؟ أيهما أفضل لعزاء الناجي من الموت، ولمن أخذه الميت؟ مشكلة مؤلمة! لا يسعني إلا أن أتصور أن الناس

يسألون أنفسهم هذا السؤال ويحلونه بطريقة مختلفة. أما أنا، فقد سألت نفسي نفس السؤال، ولكن الغريزة كانت دائماً تتغلب على المنطق. أردت أن أرى مرة أخرى، ورأيت مرة أخرى! ولم تتبدل تلك الذكرى التي أردت أن أطبعها في نفسي بطابع الحنان: ذكرى الوجه الحي المتحرك، الذي امتزج في ذهني بذكرى الوجه الجامد المعروف الذي نحته الموت في الرخام، فتركت في نفسي شيئاً من تلك الوجوه المتحجرة في رقة نفسي، شيئاً نابضاً كالحياة وثابتاً كالخلود.

إنني أشعر بشيء من هذا الشعور بالتردد وأنا أعيد لك فتح هذا الكتاب المختوم من ذاكرتي. تحت هذا الحجاب من النسيان هناك امرأة ميتة: إنها شبابي! كم من الصور المبهجة، بل كم من الصور المهيبة، بل كم من الصور النازفة التي ستدب فيها الحياة! لا عليك؛ أنت تريدينها، أنا أطيعك. في أي يد ألطف وأتقى يمكنني أن أضع الرماد الذي لا يزال دافئاً لما كان عليه قلبي يوماً ما؟ لأحفظه لبضعة أيام!

الفصل الثاني

يا إلهي كثيراً ما ندمت على ولادتي، لقد تمنيت أحياناً أن أعود إلى العدم، بدلاً من أن أتقدم، عبر الكثير من الأكاذيب، والكثير من المعاناة والكثير من الخسائر المتتالية، نحو ذلك الفقدان الذي نسميه الموت! ولكن، حتى في تلك اللحظات التي يتغلب فيها اليأس على العقل، وننسى أن الحياة مهمة مفروضة علينا لنكمل أنفسنا، كنت أقول لنفسي دائماً: هناك شيء كنت أندم على عدم تذوقه، إنه حليب الأم، إنه حنان الأب، إنها تلك القرابة بين النفوس والقلوب مع الإخوة؛ إنه حنان العائلة وأفراحها وحتى أحزانها؟ من الواضح أن الأسرة هي ذات ثانية، أعظم من ذواتنا، موجودة أمامنا وتعيشنا بأفضل ما فينا؛ إنها صورة وحدة الكائنات المقدسة والمحبة التي تكشفها المجموعة الصغيرة من الكائنات التي تهتم ببعضها

البعض وتظهرها المشاعر! لقد فهمت مراراً الرغبة في توسيع نطاق الأسرة؛ أما أن نهدمها فذلك كفر بالطبيعة وإثم على القلب الإنساني! أين ستذهب كل تلك العواطف التي وُلدت هناك وعششت تحت سقف الأب؟ لن يكون للحياة أي مصدر، ولن تعرف من أين أتت ولا إلى أين هي ذاهبة. سيصبح كل هذا الحنان في النفس مجردا من الذكاء. آه! تحفة الله أن جعل نواميسه التي هي أكثر النواميس محافظة على الإنسانية، وفي الوقت نفسه أكثر المشاعر بهجة للفرد! إذا كنت لا تحب، فأنت لا تفهم!

فطوبى لمن أعطاه الله أسرة صالحة مقدسة! تلك هي أول بركات القدر؛ وحين أقول أسرة صالحة، لا أعني أسرة شريفة من ذلك النبل الذي يجله الناس ويسجلونه على الورق. فهناك نبل في كل مناحي الحياة. لقد عرفت عائلات من الحرّاثين الفلاحين حيث كان هذا النقاء في الشعور، وهذه الشهامة في الاستقامة، وهذه الزهرة في الرقة، وهذه الشرعية في التقاليد التي نسميها نُبلاً، ظاهرة في تصرفاتهم وفي ملامحهم وفي لغتهم وفي أخلاقهم كما كانت في أعراق الملوكية السامية. فهناك نبل الطبيعة كما نبل المجتمع، وهو الأفضل. ولا يهمنا على أي طابق في الشارع أو على أي علو في الحقول يبنى البيت المنزلي ما دام ملجأ التقوى والنزاهة والحنان الذي يخلد نفسه فيه! إن قدر الطفل هو البيت الذي وُلد فيه؛ فروحه تتكون قبل كل شيء من الانطباعات التي تلقاها هناك. والنظرة في عيني الأم هي جزء من روحه التي تخترقنا من خلال عيوننا نحن، ومن منا لا يشعر عند رؤية تلك النظرة مرة أخرى في حلم أو في فكرة، بشيء ينحدر إلى فكره يهدئ من اضطرابه، ويزيده صفاءً على صفائه؟

لقد وهبني الله نعمة أن ولدت في أسرة من تلك الأسر المفضلة التي هي أشبه بملاذ التقوى لا تستطيع أن تستنشق فيها إلا الرائحة الطيبة التي بثتها في الحياة بضعة أجيال; عائلة لا عظمة فيها، ولكن لا عيب فيها، وضعتني العناية الإلهية في إحدى

تلك المراتب المتوسطة من المجتمع حيث ينتمي المرء إلى النبلاء بالاسم وإلى عامة الناس بتواضع ثروته وببساطة حياته وبعيشه في الريف بين الفلاحين يشاركهم نفس العادات ويقوم بنفس العمل. إذا كان لي أن أُولد من جديد على هذه الأرض، فسأظل أرغب في أن أُولد من جديد هنا. فأنت في وضع جيد لرؤية وفهم الظروف المختلفة للبشرية... في الوسط. ليست عالية إلى درجة الحسد، وليست منخفضة إلى درجة الاحتقار، بل هي النقطة الصحيحة والدقيقة التي يلتقي فيها سمو الأفكار التي تنتجها وجهة النظر العليا وطبيعية المشاعر التي يحفظها الاتصال بالطبيعة وتتلخص في أحوال الإنسان.

الفصل الثالث

على ضفاف نهر السون[118]، على بعد بضعة فراسخ من مدينة ليون، تقع مدينة ماكون الصغيرة و الرشيقة، محاطة بالقرى والمروج على منحدر تل لا يكاد يرتفع عن السهول. يلفت انتباه وأفكار المسافرين في طريقهم إلى بروفانس[119] أو إيطاليا، على متن البواخر التي تعبر النهر طوال اليوم، برجان قوطيان من الجرس القوطي، وقد دمرتهما الثورة وقوضهما الزمن. أسفل أطلال الكاتدرائية القديمة، على امتداد نصف فرسخ تمتد صفوف طويلة من المنازل البيضاء والأرصفة حيث يتم تحميل وتفريغ البضائع القادمة من جنوب فرنسا ومزارع الكروم في ماكون. أما الجزء العلوي من المدينة، الذي لا يمكن رؤيته من النهر، فهو مهجور للصمت والراحة. تبدو كمدينة إسبانية. ينمو العشب بين الأحجار المرصوفة بالحصى في الصيف. الجدران العالية للأديرة القديمة تظلم الشوارع الضيقة. كلية ومستشفى وكنائس،

---

118 la Saône,

119 La Province

بعضها مرمم وبعضها الآخر متهدم يستخدمه التجار المحليون كمتاجر؛ ساحة كبيرة مزروعة بأشجار الليمون على طرفيها، حيث يلعب الأطفال ويجلس المسنون تحت أشعة الشمس في الأيام المشمسة؛ ضواحي طويلة ذات منازل منخفضة تشق طريقها إلى أعلى التل، عند مصب الطرق الرئيسية; بعض المنازل الجميلة التي يطل أحد جانبيها على المدينة، بينما يطل الجانب الآخر على الريف والمساحات الخضراء؛ وحول الساحة خمسة أو ستة فنادق أو منازل كبيرة مغلقة دائماً تقريباً، تستقبل في الشتاء العائلات القديمة في المقاطعة: هذا ما تبدو عليه البلدة العليا. هذا هو حي ما كان يسمى قديماً حي النبلاء ورجال الدين؛ وهو لا يزال حي القضاء والأملاك. والأمر نفسه في كل مكان: ينزل الناس من المرتفعات للعمل، ويصعدون إلى الأعلى للراحة. يبتعدون عن الضوضاء بمجرد أن يشعروا بالراحة.

وفي إحدى زوايا هذه الساحة التي كانت قبل الثورة سوراً، والتي لا تزال تحتفظ باسمها، ترى بيتاً كبيراً شامخاً تخترقه نوافذ نادرة وتربط جدرانه العالية الضخمة التي سودها المطر وخدشتها الشمس منذ أكثر من قرن من الزمان مفاتيح حديدية كبيرة. باب مرتفع وعريض، يسبقه درج من درجتين يؤدي إلى رواق طويل، وفي نهايته سلم حجري ثقيل يضيء في ضوء الشمس من خلال نافذة ضخمة ويرتفع من طابق إلى طابق ليخدم العديد من الشقق العميقة. هذا هو المنزل الذي ولدت فيه.

الفصل الرابع

كان جدي لا يزال على قيد الحياة. لقد كان رجلاً نبيلاً عجوزاً خدم لفترة طويلة في جيوش لويس الخامس عشر، وحصل على صليب القديس لويس في معركة فونتنوي.[120] وبعد أن عاد إلى مقاطعته كقائد في سلاح الفرسان، كان قد جلب معه عادات الأناقة والبهاء والمتعة التي اكتسبها في البلاط وفي الحاميات. وكان رجلاً ثرياً في بلده، وكان قد تزوج من وريثة غنية من فرانش كومتيه، التي أعطته مهراً من الأراضي الجميلة والغابات الواسعة في محيط سان كلود وفي مضايق جورا، غير بعيد عن جنيف. وكان لديه ستة أولاد، ثلاثة أبناء وثلاث بنات. ووفقاً للتفكير السائد في ذلك الوقت، ذهبت ثروة العائلة بالكامل إلى الابن الأكبر. أما الابن الثاني فقد التحق كرهاً بالدولة الكنسية التي لم يكن لديه أي مهنة. ومن بين البنات الثلاث، تربت اثنتان من البنات الثلاث في الأديرة، وكانت الأخرى راهبة وأخذت نذورها. كان والدي أصغر أفراد هذه العائلة الكبيرة. في سن السادسة عشرة، تم تكليفه في نفس الفوج الذي خدم فيه والده من قبله. لم يكن له أن يتزوج أبدًا: كانت هذه هي القاعدة السائدة في ذلك الوقت. وكان عليه أن يشيخ في رتبة متواضعة هي رتبة نقيب الفرسان التي ارتقى إليها مبكراً؛ وأن يزور بيت أبيه من وقت إلى آخر خلال الفصل الدراسي؛ وأن ينال شيئاً فشيئاً صليب سان لوي، وهو الهدف الوحيد لطموحات رجل نبيل من أبناء الأقاليم; ثم، في شيخوخته، مزوداً بمعاش صغير من الملك ومعاش شرعي أصغر من ذلك، ليقطن في غرفة علوية من بعض القصور القديمة التي كانت ملكاً لأخيه الأكبر، ويعتني بالحديقة، ويصطاد مع كاهن الرعية، ويدرب الخيول، ويلعب مع الأطفال، ويلعب الشطرنج أو التريكتراك[121] للجيران، ويتلذذ بالجميع عبداً منزلياً، سعيداً بأن يكون كذلك،

[120] Fontenoy

[121] trictrac

محبوباً ولكن مهملاً من الجميع، وهكذا أنهى حياته، دون أن يلاحظه أحد، دون ممتلكات، دون زوجة، دون ذرية حتى أن أقعده العجز والمرض عن غرفة الرسم إلى الغرفة العارية، حيث كانت خوذته وسيفه القديم معلقين على الحائط، وقيل ذات يوم في القلعة "لقد مات الفارس. "

كان والدي شوفالييه دي لامارتين[122]، وكانت هذه الحياة مقدرة له. وكان متواضعاً ومحترماً، وكان يتقبلها بتذمر ولكن دون إظهار ذلك. غيرت ظروف غير متوقعة كل هذه الترتيبات القدرية. فقد أصبح أخوه الأكبر عاجزاً، ونصحه الأطباء بعدم الزواج. وقال لوالده: "يجب أن تزوج الفارس. وكان هذا انقلاباً عاماً في كل مشاعر الأسرة وكل ما كان في عقل وقلب الرجل العجوز من تحيزات العادة. ليس من المفروض أن يتزوج الفرسان. لقد تُرك أبي لفوجه، ولم يتزوج. هذه الصعوبة التي أثارت ثائرة جدتي بشكل خاص، كانت تؤجل من سنة إلى أخرى. - إن الزواج من فارس! أمر وحشي. - ومن ناحية أخرى، فإن ترك العرق المتواضع والاسم المغمور ينقرض كان جريمة في حق الدم. ومع ذلك كان علينا أن نتخذ قرارنا. لم يتم اتخاذ أي قرار، وكانت الثورة تقترب.

الفصل الخامس

في ذلك الوقت في فرنسا، ولا تزال هناك واحدة في ألمانيا، كانت هناك مؤسسة دينية ودنيوية في آن واحد، يصعب تكوين فكرة عنها اليوم دون أن تبتسم، فقد كان هناك تقارب بين الدنيا والدين في تباين كان ساحراً وشديداً في آن واحد. لقد

122 Chevalier de Lamartine.

كان ما نسميه فصلًا من فصول الشرائع النبيلة. كانت هذه الفصول على النحو التالي.

في مقاطعة من المقاطعات وفي موقع كان يتم اختياره عادة اختياراً جيداً، غير بعيد عن بعض المدن الكبيرة التي كان جوارها يحرك هذا النوع من الأديرة دون إحاطة بها، كانت العائلات الغنية والنبيلة في المملكة ترسل للسكنى، بعد أن تكون قد قامت بما كان يسمى بالبراهين، أولئك اللواتي لم يكن لهن ذوق في حالة الراهبات اللواتي لم تستطع هذه العائلات أن تقدم لهن مهوراً كافية لتزويجهن. وقد مُنحت كل منهن مهراً صغيراً ومنزلاً جميلاً محاطاً بحديقة صغيرة، مبنيّاً على مخطط موحد ومجموعاً حول كنيسة الفصل. كانتا نوعًا من الرهبنة الحرة، مرتبتين جنبًا إلى جنب، ولكن مع باب نصف مفتوح على العالم؛ نوع من العلمنة الناقصة للرهبانيات في الماضي؛ انتقال أنيق ولطيف بين الكنيسة والعالم. دخل هؤلاء الشباب من سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. بدأوا بالعيش هناك تحت إشراف الراهبات الأكبر سناً اللاتي قطعن نذورهن وعهدت بهن عائلاتهن إليهن؛ ثم ما إن بلغن العشرين من العمر حتى أخذن على عاتقهن مسؤولية أسرهن الخاصة، وانضممن إلى واحد أو اثنين من أصدقائهن وعشن معاً في مجموعات صغيرة من اثنين أو ثلاثة.

كانوا يعيشون في الفصل خلال أشهر الصيف فقط. وفي فصل الشتاء، كانوا يعودون إلى عائلاتهم في المدن المجاورة، حيث كانوا يقضون نصف عام في الاستمتاع بأنفسهم وتزيين غرف معيشة أمهاتهم. وخلال الأشهر التي كانوا يقيمون فيها في الفصل، لم يكونوا ملزمين بفعل أي شيء سوى الذهاب إلى الكنيسة وترنيم المكتب مرتين في اليوم، وحتى في ذلك الوقت كان أقل عذر كافياً لإعفائهم. أما في المساء فكانوا يجتمعون تارة في بيت رئيسة الدير، وتارة في بيت إحداهن للعب والدردشة والقراءة، لا قواعد غير أذواقهم الخاصة ولا إشراف غير

إشراف الكاهنة العجوز، الوصية المتسامحة على هذا القطيع الساحر. ولم يكن عليهن العودة إلا في أوقات معينة. كان الرجال مستبعدين من هذه الاجتماعات، ولكن كان هناك استثناء واحد جعل كل شيء أسهل. كان بإمكان الراهبات الشابات أن تستقبل كل واحدة منهن أخواتها في زيارات لعدد معين من الأيام، وكان بإمكانهن أن يعرفنهن على أصدقائهن في جمعيات الفصل. وقد أدى هذا بطبيعة الحال إلى نشوء أواصر المودة الأكثر رقة بين الضباط الشباب الذين يقضون بضعة أيام من الفصل الدراسي مع أختهم وأصدقاء الأخت الشباب. ومن وقت لآخر، كان يترتب على ذلك بعض الاختطافات أو بعض الهمسات في الفصل؛ ولكن بصفة عامة، كان يسود هذه العلاقات الحميمة الرقيقة تحفظ ورع وحشمة لا تغتفر، وكانت المشاعر المتبادلة التي كانت تؤججها الزيارات السنوية للفصل تؤدي فيما بعد إلى زيجات الميل النادرة جداً في ذلك الوقت في المجتمع الفرنسي.

الفصل السادس

كانت إحدى شقيقات أبي راهبة في إحدى تلك الأديرة النبيلة في بوجوليه، على ضفاف نهر السون، بين ليون وماكون، وكانت قد نذرت نذورها وهي في الحادية والعشرين من عمرها. كان لديها منزل هناك كان جدي قد بناه لها. وكان لها صديقة ساحرة هناك، في السادسة عشرة من عمرها، كانت قد دخلت للتو في الرهبنة. وعند زيارة والدي لأخته في ساليس[123] (اسم القرية)، انبهر والدي بنعم هذه الشابة وروحها وصفاتها الملائكية. وقع الشاب المنعزل والضابط الوسيم في الحب. وكانت شقيقة والدي هي الكاتم الطبيعي لهذا الحنان المتبادل. لقد شجعتها، وبعد سنوات عديدة من الصمود، والعديد من العقبات التي تم التغلب

[123] Salles

عليها، والعديد من الصعوبات، أصبحت أخت والدي هي المؤتمن الطبيعي على هذا الحنان المتبادل. فوافقت، وبعد سنوات عديدة من الثبات، وتذليل كثير من العقبات، وقهر كثير من المعارضات العائلية، تحقق القدر الذي كان وزيره الأقوى دائماً هو الحب، وتزوج أبي من صديقة أخته.

الفصل السابع

أليكس دي رويس، وهو اسم والدتنا، كانت ابنة السيد دي رويس، المراقب المالي العام لدوق أورليان. وكانت مدام دي رويس، زوجته، وصية فرعية على أولاد هذا الأمير، ومفضلة دوقة أورليان الجميلة الفاضلة التي احترمتها الثورة وطردتها من قصرها وقادت ولديها إلى المنفى وزوجها إلى المقصلة. عاش السيد والسيدة دي رويز في القصر الملكي في الشتاء وفي سان كلو في الصيف. وقد ولدت أمي هناك؛ وتربت هناك مع الملك لويس فيليب، في ألفة محترمة تنشأ دائماً بين الأطفال من نفس العمر تقريباً، ويشتركون في نفس الدروس ونفس الألعاب.

وكم من مرة حدثتنا أمي عن تربية هذا الأمير الذي قذفت به الثورة بعيداً عن وطنه، والذي كانت ستحمله ثورة أخرى إلى العرش؟ لم يكن في حدائق سان كلو نافورة أو زقاق أو حديقة لم نعرفها من ذكريات طفولتها قبل أن نراها بأنفسنا. كانت سان كلو بالنسبة لها ميللي مهدها ومهدها، المكان الذي نبتت فيه كل أفكارها الأولى وأزهرت وأينعت ونمت مع نباتات هذه الحديقة الجميلة. وكانت كل الأسماء الرنانة في القرن الثامن عشر أول الأسماء التي نقشت في ذاكرتها.

كانت مدام دي رويس، والدته، امرأة ذات جدارة. وقد اجتذبت وظائفها في بيت الأمير الأول من سلالة الأمير الأول وجمع حولها العديد من مشاهير العصر. وقد جاء فولتير في رحلته الأخيرة القصيرة إلى باريس، والتي كانت بمثابة انتصار، لزيارة الأمراء الصغار. وحضرت والدتي التي لم تكن قد بلغت السابعة أو الثامنة من

عمرها تلك الزيارة، وعلى الرغم من صغر سنها إلا أنها فهمت من الانطباع الذي كان يتركه حوله أنها ترى شيئاً أكثر من ملك. لقد ظل موقف فولتير وزيه وعصاه وإيماءاته وكلماته محفورة في ذاكرتها الطفولية مثل بصمة كائن من العصر القديم في صخر جبالنا.

وكان دالمبيرت ولاكلوس ومدام دي جينليس وبوفون وفلوريان والمؤرخ الإنجليزي جيبون وجريم وموريل ومي نيكر[124] ورجال الدولة ورجال الأدب والفلاسفة في ذلك الوقت يعيشون جميعاً في مجتمع مدام دي روي[125]. لقد كانت قريبة بشكل خاص من أكثرهم خلوداً على الإطلاق، جان جاك روسو. كانت أمي، رغم ورعها الشديد وتمسكها الشديد بالعقيدة الكاثوليكية، قد احتفظت بإعجابها الشديد بهذا الرجل العظيم، ولا شك أنه كان لديه أكثر من عبقرية، لأنه كان لديه روح. لم تكن على دين عبقريته، لكنها كانت على دين قلبه.

الفصل الثامن

كان لدوق أورليان، وهو أيضاً كونت بوجوليه، الحق في تعيين عدد معين من السيدات في كورة سال التي كانت تابعة لدوقيته. وبهذه الطريقة وبواسطته تم تعيين والدتي في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. وما زلت أحتفظ بصورة لها في تلك السن، غير الصورة التي رسمت لها في تلك السن، عدا الصورة التي كثيراً ما رسمها لنا جميع أخواتها وأبي نفسه من ذاكرته. تظهر في زيها الكنسي. فنرى شابة طويلة نحيلة ذات خصر مرن وذراعين أبيضين جميلين يبرزان من الأكمام

124 D’Alembert, Laclos, madame de Genlis, Buffon, Florian, l’historien anglais Gibbon, Grimm, Morellet, M. Necker…

125 Madame des Roys

الضيقة لفستان أسود. يعلق على صدرها صليب الفصل الذهبي الصغير الخاص بالكنيسة. طرحة من الدانتيل، أقل سواداً من شعرها، تنسدل وتطفو على جانبي رأسها. يشع وجهها، الشاب والساذج، وحيداً وسط هذه الألوان الداكنة.

لقد أزال الزمن إلى حد ما نضارة ألوانها التي كانت في الخامسة عشرة من عمرها. لكن الملامح نقية كما لو أن فرشاة الرسام لم تجف بعد على اللوحة. هناك تلك الابتسامة الداخلية للحياة، وذلك الحنان الذي لا ينضب من الروح والنظرات، وفوق كل ذلك الشعاع من النور الهادئ جداً مع العقل، المشبع بالحساسية التي تنساب كالعناق الأبدي من عينيها، عميقة قليلاً ومحجوبة قليلاً بالجفن، كأنها لم تشأ أن تخرج كل الصفاء وكل الحب الذي في عينيها الجميلتين. يمكنك أن تفهم، بمجرد النظر إلى هذه الصورة، كل العاطفة التي لا بد أن تكون مثل هذه المرأة قد ألهمتها في والدي، وكل التقوى التي كانت ستلهمها فيما بعد في أولاده.

لقد كان والدي نفسه، في ذلك الوقت، جديراً بمظهره الخارجي وشخصيته أن يتعلق بقلب امرأة حساسة وشجاعة. ولم يكن قد بلغ من العمر عتياً، فقد كان في الثامنة والثلاثين من عمره. ولكن بالنسبة لرجل من سلالة قوية، كان سيموت وهو لا يزال شاباً في عقله وجسمه في التسعين من عمره، بكامل أسنانه وشعره وكل ما يستلزمه التقدم في السن من جمال شديد ومهيب، كانت الثامنة والثلاثون زهرة العمر. كانت قامته الطويلة، وسلوكه العسكري، وملامحه الذكورية، تحمل كل سمات النظام والقيادة. كان الكبرياء اللطيف والصراحة هما السمتان المميزتان لمظهره. ولم يكن يتسم بالخفة ولا بالرشاقة، على الرغم من وجود الكثير من ذلك في روحه. وكان يغلي الدم في أعماق قلبه غلياناً عجيباً، ولكنه كان يبدو في ظاهره بارداً غير مبالٍ، لأنه كان يخشى نفسه ويخجل من حساسيته.

ولم يكن في العالم رجل أقل شكاً في فضيلته ولا أكثر تغليفاً للكمالات الشديدة التي تتسم بها طبيعة البطل في كل تواضع المرأة. أنا نفسي كنت مخدوعا لسنوات

عديدة. لقد ظننت أنه كان قاسياً ومتقشفاً ولكنه لم يكن إلا عادلاً ومتزمتاً. أما أذواقه فكانت بدائية مثل روحه. كان أباً وجندياً، كان رجلاً كاملاً. الصيد والغابة، عندما كان في نصف العام في المقاطعة؛ أما بقية العام فكان يركض في كتيبته وجواده وسلاحه وقوانينه التي كان يتبعها بدقة ويضفي عليها حماسة حياة الجندي: كانت هذه كلها شغله الشاغل. لم يكن يرى شيئًا أبعد من رتبته كقائد في سلاح الفرسان وتقدير رفاقه. كانت كتيبته أكثر من عائلته. كان يرغب في شرفها بقدر رغبته في شرفه. كان يعرف جميع أسماء الضباط والفرسان عن ظهر قلب. كان محبوباً منهم. كانت ولايته هي حياته. ولم يكن له أي طموح إلى ثروة أو رتبة أعلى، وكان مثله الأعلى أن يكون ما كان عليه، ضابطاً صالحاً؛ وأن يكون الشرف روحه، وخدمة الملك دينه، وأن يقضي ستة أشهر من السنة في بلدة حامية والستة الأخرى في بيت صغير خاص به في الريف، مع زوجة وأطفال. الرجل البدائي، في نهاية المطاف، معدلاً قليلاً بالجندي، الذي كان والدي.

الثورة وسوء الحظ والسنين والأفكار التي عدّلته وأكملته في شيخوخته. وأستطيع أن أقول إنني رأيت بنفسي طبيعته العظيمة السهلة تتطور بعد سبعين سنة من عمره. لقد كان من سلالة البلوط التي تنبت وتجدد نفسها حتى اليوم الذي توضع فيه الفأس على جذع الشجرة. وفي الثمانين من عمره كان لا يزال يتحسن.

الفصل التاسع

لقد سبق أن قلت ما هي العقبات التي كانت تقف في طريق زواجه من عوائق الحظ وتحيزات العائلة. لكن ثباته وثبات والدتي تغلبا عليها. لقد اتحدا في نفس اللحظة التي كانت فيها الثورة على وشك أن تهز كل المؤسسات الإنسانية والتربة التي قامت عليها.

كانت الجمعية التأسيسية تعمل بالفعل. لقد كانت تقوض الامتيازات والتحيزات التي كانت تدعم النظام الاجتماعي القديم في فرنسا بقوة العقل الذي كان، إذا جاز التعبير، فوق طاقة البشر. وكانت هذه العواطف العظيمة للشعب تجتاح بالفعل، كما تجتاح الأمواج التي بدأت الرياح تهبّ على فرساي تارة، وعلى الباستيل تارة أخرى، وعلى دار بلدية باريس تارة ثالثة. ولكن حماسة النبلاء للتجديد السياسي والديني العظيم كانت لا تزال قائمة. وعلى الرغم من هذه الزلازل الأولية، كان يُعتقد أنها ستكون قصيرة الأجل. لم يكن هناك مقياس في الماضي لقياس الارتفاع الذي سيصل إليه فيض الأفكار الجديدة مسبقاً. ولم يكن والدي قد ترك الخدمة عندما تزوج: لم يكن يرى في كل هذا إلا رايته التي يجب أن يتبعها، وملكه الذي يجب أن يدافع عنه، وبضعة أشهر من الكفاح ضد الفوضى، وبضع قطرات من دمه يهبها لواجبه، ولم يكن يرى في كل هذا إلا أن يهبها لواجبه. هذه الومضات الأولى من العاصفة التي كانت ستغمر العرش وتزلزل أوربا لنصف قرن على الأقل، كانت قد ضاعت على أمي وعليه في أول أفراح حبهما وفي أول آفاق سعادتهما. وأذكر أني رأيت ذات يوم غصناً من أغصان الصفصاف وقد فصلته العاصفة عن جذعه يطفو في الصباح على فيض نهر السون[126]. وكانت أنثى العندليب لا تزال تحضن عشها على غير هدى في زبد النهر، وكان الذكر يتابع عشقه على قطعة من الحطام.

النصوص متاحة بموجب رخصة المشاع الإبداعي للمشاع الإبداعي وفق نفس الشروط.

[126] La Seine

.50.

من قصص انطون تشيكوف [127]

مع الأصدقاء[128]

في الصباح، وصلت رسالة
"عزيزي ميشا، لقد نسيتنا تمامًا .في أقرب وقت ممكن، نريد أن نراك. اشتقنا إليك، تعال وأرِنا عينيك الصافيتين. نحن نتطلع لرؤيتك .تا وفا. كوزمينكي، 7 يونيو"
كانت الرسالة من تاتيانا ألكسيفنا لوزيف. في ذلك الوقت كانت بودغورين تعيش في كوزمينكي، قبل عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة، كانت تُدعى بالشكل المتعارف عليه لاسمها الأول، تا. ولكن من كانت تا؟ عادت الذكريات تتدفق، ذكريات المحادثات الطويلة والأحاديث المسعدة، والضحكات المبهجة، والأغاني الرقيقة، والمشي والنزهات المسائية ومجموعة كاملة من الفتيات والشابات اللواتي عشن في كوزمينكي وما حولها .تذكر بودغورين وجهًا بسيطًا، ذكيًا ومفعمًا بالحياة والنمش الذي كان يتماشى مع شعرها المتلألئ، وجه بسيط وذكي، وجه فاريا، أوبشكل أكثر رسمية فارفارا بافلوفنا ، إحدى صديقات تاتيانا. كانت قد أكملت دراستها وكانت تاتيانا وفاريا وهما في نفس العمر تقريباً، ولكنه كان في ذلك الوقت

---

127 Anton Tchekhov est un écrivain et dramaturge russe né le 17 janvier 1860 à Taganrog et mort le 15 juillet 1904 à Badenweiler. Tout en exerçant sa profession de médecin, il publie entre 1880 et 1903 plus de 600 œuvres littéraires...

128 Traduction en français de Boris Czerny

طالباً، بينما كانتا فتاتين صغيرتين في سن الزواج، وكان هو مجرد صبي بالنسبة لهما. والآن، عندما أصبح محاميًا وبدأ شعره أبيض اللون، ظلوا ينادونه ميشا ويعتبرونه شابًا يافعًا.

لقد أحبهم كثيراً، ولكن يبدو أنه أحبهم في ذكرياته أكثر مما أحبهم في حياته الواقعية. والواقع أنه لم يكن يعرف عنها إلا القليل، فقد كانت غير مفهومة وغريبة بالنسبة له، غريبة كتلك الرسالة القصيرة المبهجة التي استغرقت بالتأكيد وقتاً وجهداً كبيرين في كتابتها، وعندما كتبتها تاتيانا كان زوجها سيرجي سيرجيفيتش لوسفيتش لوزيف يقف بالتأكيد وراء ظهرها يراقبها... عندما تزوجا منذ ست سنوات، كانت كوزمينكي جزءًا من مهر تاتيانا، ولكن لم يستغرق الأمر من سيرجي سيرجييفيتش وقتًا أطول من ذلك حتى أفسد التركة، والآن كلما اضطرا إلى دفع ديون للبنك أو الوفاء برهون أو طلب المشورة لجأوا إلى بودغورين بصفته محامياً، وقد طلبا منه مرتين بالفعل أن يقرضهما المال. ومن الواضح أنهم أرادوا هذه المرة المال أو المشورة.

لم يعد يشعر بأي انجذاب نحو كوزمينكي. كان مكانًا حزينًا. لم يعد هناك شيء، لا الضحكات ولا الضوضاء ولا الوجوه السعيدة الخالية من الهموم ولا الليالي المقمرة، وفوق كل ذلك فقد ذهب الشباب ولم يعد هناك من سحر إلا في الذكريات. وبالإضافة إلى "تا" و"فا"، كانت هناك "نا"، نادية أخت تاتيانا، التي كان يُشار إليها مزحًا وجدّا باسم "نا" خطيبته. كان قد شاهدها وهي تكبر، وظن الجميع أنه سيتزوجها، وظل لفترة من الوقت مغرماً بها بل وكان على وشك التقدم لخطبتها، لكنها كانت قد قاربت الرابعة والعشرين ولم يتزوجها بعد...

" فكر بقلق وهو يعيد قراءة الرسالة. لم يكن قد زار عائلة فارفارا بافلوفنا منذ فترة طويلة وشعر بثقل على ضميره. وخطا بضع خطوات إلى داخل الغرفة، وبعد لحظة من التفكير، أجبر نفسه على أن يقرر الذهاب وقضاء بضعة أيام معهم لكي يتخلص من هذا العمل الرتيب ويكون حراً ومرتاحاً مع نفسه، على الأقل حتى

الصيف القادم. وعندما غادر إلى محطة بريست بعد الغداء، أخبر خادمته أنه سيعود بعد ثلاثة أيام. واستغرقت الرحلة ساعتين بالقطار من موسكو إلى كوزمينكي، وعشرين دقيقة أخرى أو نحوها بعربة تجرها الخيول من المحطة إلى الضيعة. من خط السكة الحديدية، يمكنك أن ترى بالفعل الغابة التي تملكها تاتيانا وثلاثة منازل خشبية طويلة وضيقة بناها سيرجي سيرجيفيتش ولكن لم يكتمل بناؤها أبدًا، والذي كان قد شرع خلال السنوات الأولى من زواجه في جميع أنواع المشاريع التجارية المشكوك فيها. كانت هذه المنازل هي سبب خرابه، لكنها لم تكن الوحيدة التي كانت سببًا في خرابه، حيث ساهمت أيضًا مشاريع اقتصادية مختلفة، ناهيك عن رحلاته المتكررة إلى موسكو، حيث كان يتناول الإفطار في بازار سلافيانسكي بازار الحصري للغاية، والغداء في مطعم الأرميتاج، قبل أن ينهي أيامه في منزل في مالايا برونيا أو في ملهى غجري في شارع جيفوديركا (كان يقول إنه كان "سيغير الأمور"). ولم يكن بودغورين ينفر من تناول الشراب، بل وأحياناً أكثر من المعقول، فكان يذهب أحياناً إلى بيوت الفتيات بنوع من اللامبالاة...

.51.

موت موظف [129]

في أمسية جميلة،"إيفان دميتريتش تشارفياكوف جالس في الصف الثاني من مقاعد الأوركسترا، كان يشاهد من خلال منظاره المكبّر، ويراقب "لي كلوش دي كورنفيل."
شعر أنه في ذروة النعيم.
ولكن فجأة...
ولكن فجأة تجعد وجهه، وتراقصت عيناه، وتوقف تنفسه;
خلع منظاره وانحنى,
و... أتشي! أتشم! ... عطس.
العطاس ليس ممنوعاً في أي مكان.
يعطس المشايخ ورؤساء الشرطة وأحيانًا حتى أعضاء المجالس الخاصة. الجميع يعطس.
مسح شيرفياكوف وجهه بمنديله الصغير دون أن يزعجه أحد، وقال وهو رجل مهذب: "لن أعطس.
نظر حوله ليرى إن كان عطسه قد أزعج أحدًا.
لكنه ارتبك على الفور.

---

129 La Mort d'un fonctionnaire est initialement publiée dans la revue russe Les Éclats, numéro 27, du 2 juillet 1883 sous le pseudonyme de Anton Tchekhov: A. Tchékhonté. C'est une nouvelle humoristique et ironique sur la servilité et l'obséquiosité des fonctionnaires.

فقد لاحظ رجلاً عجوزاً يجلس في الصف الأمامي يتمتم مع نفسه وهو يمسح صلعته ورقبته بقفازه بعناية. تعرّف تشيرفياكوف على هذا الرجل العجوز، وتعرف على المسؤول الكبير في وزارة الاتصالات، بريزالوف، الذي كان يحمل رتبة جنرال.

قال تشيرفياكوف لنفسه: "لقد رششته."!

إنه ليس رئيسي في العمل، إنه من قسم آخر؛ ولكن الأمر مزعج رغم ذلك. يجب أن تعتذر.

سعل تشيرفياكوف بتردد، وانحنى إلى الأمام وهمس في أذن الجنرال:

-أنا آسف يا صاحب السعادة؛ لقد رششتك دون أن أقصد ذلك.

- لا شيء... لا شيء... لا شيء...

-بسم الله، سامحني! أنا... لم أفعل ذلك عن قصد!

-أتوسل إليك !دعني أستمع..

ثرثر شيرفياكوف وابتسم بغباء وعاد للمشاهدة.

كان ينظر، لكنه لم يعد في نعيم.

بدأ يشعر بالقلق.

وأثناء العرض، اقترب من بريزالوف وسار حوله وتغلب على خجله وغمغم،

-بسم الله، سامحني! أنا... لم أفعل ذلك عن قصد!

-أتوسل إليك ! دعني أستمع...

ثرثر شيرفياكوف وابتسم بغباء وعاد للمشاهدة.

كان يشاهد، لكنه لم يعد في نعيم.

بدأ يشعر بالقلق.

وأثناء العرض، اقترب من بريزالوف وسار حوله وتغلب على خجله وغمغم...

عند عودته إلى المنزل، أخبر تشيرفياكوف زوجته عن وقاحته اللاإرادية.

وبدا له أن زوجته لم تعلق أهمية كافية على ما حدث.

كانت منزعجة بعض الشيء، ولكن عندما علمت أن بريزالوف "لم يكن جزءًا من إدارة زوجها"، هدأت من روعها.

-قالت له: "اذهب واعتذر، وإلا سيعتقد أنك لا تعرف كيف تتصرف في الأماكن العامة."

-هذا كل ما في الأمر... اعتذرت، لكنه كان غريبًا...

لم يقل كلمة واحدة... ولم يكن لدينا وقت للحديث.

وفي اليوم التالي، ارتدى تشيرفياكوف زيه الجديد، وقص شعره وذهب ليشرح نفسه لبريزالوف... وعندما دخل غرفة الانتظار، رأى العديد من الأشخاص، وفي وسط السائلين كان الجنرال الذي بدأ بالفعل في تلقي الالتماسات. وبعد طرح بعض الأسئلة، نظر بريزالوف بدوره إلى شيرفياكوف.

" -بالأمس، في أركاديا، يا صاحب السعادة، إذا كنت تتذكر"، بدأ المبعوث، كما لو كان يقدم تقريراً، "لقد عطست و... رششتك دون قصد... سامحني...

-يا له من أمر تافه... كلمتي!" قال الجنرال... "ماذا تريد؟

"قال شيرفياكوف وقد شحب لونه.

إذن هو غاضب... لا، لا يمكننا أن نترك الأمر هكذا... سأشرح له"...

عندما فرغ الجنرال من آخر زائر وأراد العودة إلى شقته، تقدم تشيرفياكوف خطوة نحوه وبدأ يتمتم:

-يا صاحب السعادة، إذا كنت أجرؤ على إزعاج سعادتكم، فذلك بالضبط، إذا جاز لي أن أقول ذلك، بدافع الشعور بالأسف... لم أفعل ذلك عن قصد، يجب أن تعرف ذلك بنفسك!

بدا الجنرال كما لو كان يريد البكاء وقام بإيماءة غارقة في البكاء:

-ولكنك ببساطة تسخر مني يا سيدي العزيز!" ثم اختفى خلف بابه.

"أي سخرية هذه؟" تساءل تشيرفياكوف. لا يوجد أي شيء!

إنه جنرال ولا يمكنه أن يفهم ... إذا كان الأمر كذلك، فلن أعتذر له بعد الآن.

فليأخذه الشيطان!

سأكتب له، لكنني لن آتي! !كلمتي، لن آتي"!

هذا ما فكر فيه تشيرفياكوف وهو في طريقه إلى المنز لكنه لم يكتب رسالة إلى الجنرال. فكر وفكر، لكنه لم يستطع التفكير فيما يكتب، لذا كان عليه أن يعتذر شخصياً في اليوم التالي.

-لقد جئت بالأمس لا لإزعاج سعادتكم وليس للسخرية منكم، كما تكرمتم بقولكم. كنتُ أعتذر عن رَشِّكم عندما عطستُ...

لم أكن أفكر في السخرية منكم... هل أجرؤ على ذلك؟ لو بدأنا في الضحك لما بقي احترامٌ ... لأناسٍ من ذوي المكانة العالية...

-اخرج!" صرخ الجنرال وقد تحول لونه إلى الأزرق فجأة وبدأ يرتجف.

" -تمتم شيرفياكوف وهو يذوب من الرعب.

-اخرج!" كرر الجنرال وهو يدوس بقدميه في معدة شيرفياكوف، حدث شيء ما في معدته. لم ير ولم يسمع شيئًا، فتراجع نحو الباب,

خرج وسحب نفسه ببطء إلى المنزل...

بعد أن عاد ميكانيكياً إلى منزله، دون أن يخلع زيه الجديد تمدد المستكشف على أريكته...

ومات.

...

تم بحمد اللّه وحفظه